مكتبة التاريخ الوسيط

تاريخ
العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية

مكتبة التاريخ الوسيط

تاريخ
العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

تصـــدير

يشرفني أن أقدم لقراء العربية الكرام هذا المرجع الذى يضم بين دفتيه أهم معالم تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها • وهو ثمرة عمل فى هذا الميدان يقرب من ربع قرن • بدأناه بالتعريف بتلك العصور التى اقتطعت من تاريخ البشريـة اكثر من عشرة قـرون من الزمان ، وما ثار حول بدايتها ونهايتها من أراء وأفكار • وانتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن الاسس التى ارتكزت عليها تلك القرون ، والتى تعبر عن روحها أصدق تعبير • ثم تناولنا بالدراسة أبرز قضاياهـــا فى المجالين السياسى والحضارى • فتحدثنا عن الجرمـان البرابـرة وغزواتهم ، والممالك التى أقاموها على أنقاص الامبراطورية الرومانية • واستعرضنا ، بعد ذلك ، الاحوال الاجتماعية التى يعبر عنها النظام الطبقى ، والاقتصادية الممثلة فى نظام الاقطاع ، والدينية المتمثلة فى الجهاز الكنسى البابوى ومؤسسـاته الدينية كالرهبنــة والديرية ، والحربية المتمثلة فى نظام الفروسية ، الى جانب النواحى الفكـرية والادبية • وناقشنا موضوع احياء الامبراطورية أيام شارلمان فى بداية القرن التاسع ، وتجديدها أيام اوتو الكبير فى القرن العاشر ، والاثار المترتبة على ذلك من حيث قيام الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية، وبكلمة أدق ، بين الكنيسة والدولة حول المسائل العلمانية والامور المترتبة على ذلك من حيث قيام الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية، والنتائج الخطيرة التى ترتبت عليه •

كذلك وجهنا عناية خاصة الى القرون الاخيرة من تلك العصور التى شهدت انتفاضات وانقلابات شتى ، أدت الى زوال الاقطاع ، ونمـو الملكيات المستبدة فى الغرب بعامة وفى فرنسا بصفة خاصة ، والمراحل

التى مر بها التطور الدستورى فى الجزيرة البريطانيـة ، ثم نشـأة الجامعات ، وظهور المدن وماصاحبها من انتعاش التجارة وزيادة الرخاء فى الغرب ، الامر الذى عجل بزوال العصور الوسطى بمثلها وفلسفتها ومفاهيمها ، وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغـــايرة · واختتمنا الكتاب بدراسة عن العوامل التى أدت الى التغيير الكبير فى طبيعة اوروبا فى أواخر العصر الوسيط ، والتى مهدت لعصر النهضة فالعصر الحديث ·

والله ولى التوفيق ،

الاسكندرية فى يناير ١٩٨٤

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة

فى

تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها

جاءت العصور الوسطى بعد العصر القديم لتقتطع من تاريخ الانسانية حوالى عشرة قرون من الزمان . وهناك كثير من الآراء والأفكار والنظريات التى قامت حول بداية العصور ونهايتها . ولكنها تبدأ عادة بالقرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس الميلادى . تبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على أيدى الجرمان البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وتنتهى بسقوط القسطنطينية فى أيدى الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، أو بحركة الاصلاح الدينى فى الغرب فى القرن السادس عشر . ويقسم المؤرخون الغربيون الحديثون تلك العصور الى حقبتين متميزتين : العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠ و ١٠٠٠ م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة أو الستة التالية . ومنهم من يقسمها الى ثلاث حقب هى : العصور الوسطى المبكرة ، والعصور الوسطى الحقيقية ، والعصور الوسطى المتأخرة . والجدير بالذكر أن هذا لا يعنى على الاطلاق أنه يوجد خط فاصل بين هذه الفترات ، اذ كانت متصلة بطبيعة الحال ، وان تميزت كل فترة منها بخصائص معينة . ثم أنه لا يجوز القول بأنه يوجد تمييز محدد واضح بين التاريخ الوسيط من ناحية وبين كل من العصر القديم والعصر الحديث من ناحية أخرى ، اذ تداخلت عناصر الفكر فى بعضها فى مختلف عصور التاريخ .

لقد بدأت العصور الوسطى بالقرن الخامس عندما وقعت غارات المتبربرين على الدولة الرومانية القديمة ، وكانت آنذاك شبحا متهالكا . ثم انهال اولئك القوم آخر الأمر فى جوف هذه الدولة المتحضرة ، وقضوا عليها وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على أنقاضها ممالك جديدة جرمانية لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة .

كان هذا يعنى بكلمة مختصرة نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وتقاليده

وحضارته ، وبداية عصر جديد له نظمه وقوانينـــه الخاصة به · فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وأنهار من أساسه ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة الذى كان سائدا عند الرومان القدماء ، لتحـل محله أنظمـة مغايرة وأمم جديدة لهـا حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الادبية والمـادية والاجتماعية الخـاصة بهـــا ·

ومن أهم الآثار التى ترتبت على غزوات البرابرة أنها أوجـدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة أنحاء الغرب الاوروبى ، وكانت السبب المباشر فى انهيار دولة الرومان التى انهكتها الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى أخريات عهدها · ويقول المؤرخ المعروف ادوارد جيبون E. Gibbon انه كان فى حكم المستحيـل أن تحرز الانسانية أى تقدم فى ذلك العهد المضطرب · وكان على العصور الوسطى التى تسلمت تلك التركة المثقلة بالمشاكل والصعاب ، كان عليها أن تقوم بدور هام خطير ، وهو العمل على الخروج من هذه الفوضى ، وتحقيق نوع من الامن والهـــدوء والاستقرار · ولم يكن هناك بد من ذلك ، لتعود الحياة الى سيرتها الاولى ، ويسترد المجتمع أنفاسه اللاهثة ، ويأخذ طريقه نحو التقـدم والرقى · ويمكن القـول ان تلك العصور نجحت الى حد بعيد فى ايجاد نوع من الامن والطمأنينة النسبية ·

لقد جاءت العصور الوسطى كرد فعل للعصر القديم بمثله ومبادئه· ويعتبرها كثير من المؤرخين المحدثين المستغلين فى هذا الميدان ، أنها عصر جمود وظلام وبرودة · وعلى رأس هؤلاء المؤرخ · و · ب · كير W. P. ker فى كتـــابه « العصـــور المظلمة » · ويقول جيبون فى مقدمة كتابه « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » عندما تعرض لعصر الانتقال من التاريخ القديم الى التاريخ الوسيط ، انـــه

انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط الذى تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة ، ويعنى بذلك تغلب الجرمان والمسيحية على الجهاز الرومانى القديم · لقد كانت العصور الوسطى ، فى نظر جيبون ، عصور ظلام ليس فيها من نور العلوم والمعرفة شىء يذكر ، ولم يكن فيها أى خير للبشرية · ذلك أن انهيار الدولة الرومانية بقانونها ونظمها وحضارتها الزاهرة واقتصادها النقدى وجهازها الادارى المحكم ، وقيام الدول والممالك المتبربرة على أنقاضها ، وكذلك ظهور المسيحية والقضاء على الوثنية وعبادة الامبراطور — انما يعنى فى نظر هذا الفريق من المؤرخين انهيار المدينة وبداية البربرية فى التاريخ الاوروبى ·

وفى هذا الحكم بعض الظلم والاجحاف وبعد عن الحق والواقع · لقد سماها البعض بالعصور المظلمة لانهم لم يقدروها حق قدرها · اذ أثبتت أحدث البحوث التاريخية أن تلك القرون العشرة لم تكن غارقة فى الظلام بقدر ما تصور جيبون وكير وغيرهما · بل أنها على العكس من ذلك ، لم تكن خالية من مدنية وسيطة متوسطة الشأن ، خاصة بها ، لها مقوماتها وصفاتها ومميزاتها وشخصيتها ، بالرغم من أنها لم تصل الى مستوى المدنية الرومانية فى التاريخ القديم أو المدنية المرتبطة بالتاريخ الحديث · فضلا عن أن وقوع العصور الوسطى بين حضارتين مزدهرتين هو الذى جعل المؤرخين الغربيين الحديثين ينظرون اليها تلك النظرة الجامدة ·

كانت حضارة العصور الوسطى ، اذن ، نتيجة طبيعية وحتمية للظروف والملابسات التى أحاطت بالانسان فى فترة تغير وانتقال من القديم الى الوسيط ، عندما قضى الجرمان على الامبراطورية الرومانية

وجهازها العتيق فى الحكم والادارة والاقتصاد ، وعندما انحدرت جحافلهم داخل حدودها عبر الدانوب والراين يبحثون عن مكان أمين يقيمون فيه ، وعندما ظهرت الديانة الجديدة لتقضى على الوثنية وعبادة الامبراطور ٠

ومن الخطأ القول بأن هذه الأمم المتبربرة لم تكن لها حضارة أو نظم وتقاليد دستورية خاصة بها قبل أن تستقر فى الغرب ٠ اذ المعروف أن العناصر الجرمانية كانت مثلا شديدة التمسك بمبدأ الفردية٠ وكانت حتى قبل نزولها فى جوف الامبراطورية الرومانية تعيش فى تجمعات كبيرة متحدة قوية ، بالرغم من اختلاف جنسياتها وتباين السنتها ؛ ويعبر عن هذه الفردية شعار أحد العناصر المتبربرة وهو المغول القائل « لا ملك لنا ، ولا نريد لنا ملكا أيا كان ، ففيما بيننا كل رجل ملك » ٠ وكان هذا من الاسباب التى أدت الى انتصار الغزاة الجرمان على الدولة الرومانية والحاق الهزيمة بجيوشها ، فى وقت كانت فيه هذه الدولة فى طور الاحتضار ٠

لقد استندت قواعد العالم الوسيط ، وبخاصة فى قرونه المبكرة ، الى كثير مما كان قائما بين هذه العناصر الجرمانية ، مع الاخذ بنصيب من حضارة روما القديمة ، وتكييفها لتلائم الظروف والاوضاع الجديدة التى طرأت على العالم وقتذاك ٠ ونجد مثلا واضحا لذلك فى القوط الشرقيين فى ايطاليا الذين كانوا متفوقين حضاريا على العناصر الجرمانية الاخرى ٠ فقد ادركوا أهمية قيام مدنية متقدمة وهم الشعب المنتصر الاقل مدنية الذى عاش مع الشعب الرومانى المغلوب صاحب التراث القديم ٠ لذلك لم يحطموا جهاز العمل الرومانى ، ولم يستبدلوه بأنظمتهم الاجتماعية ، بل نراهم يبقون على النظام القديم ويهيئون لانفسهم مكانا فى ظله ٠ ومن أشهر ملوكهم الذين نهجوا هذا السبيل

وشجعوه مؤسس دولتهم المسمى ثيودوريك Theodoric . وهذا أيضا ما فعله كلوفيس Clovis مؤسس الاسرة الميروفنجية في غالــــة .

ولكن الى جانــب المدنيـــة الرومانيـــة التى أفـــاد منهـــا الغـــزاة البرابرة كان هنـــاك نظـام جديد يشق طريقـــه وسط الأحداث التى ألمت بالغرب ، ونعنى به الاقطاع . والاقطـــاع يعتبر فى الواقع امتزاج بين العناصر الجرمانيـــة الجديدة الغالبة والعنـــاصر الرومانية القديمة المغلوبة ، وهو بكلمة مختصرة عبارة عن رابطة بين أدت اليه ظروف ترتبط بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط . وكان المجتمع الأوروبى فى ظل هذا النظام يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه أيام الامبراطورية الرومانية القديمة . فبينما كانت الامبراطورية الرومانية قائمة على المركزية المتطرفة ، كانت العصور الوسطى لا مركزية الى حد بعيد ؛ اذ كانت المحلية ضاربة أطنابها فى كل شىء . وبينمـــا كانت حضارة الاقطاع حضارة زراعية بحتة ، كانت الحضارة الرومانية حضارة مدنية تقوم على الصناعة والتجارة . وبينما كانت المدينة هى عصب المجتمع الاوروبى فى التاريخ القديم أصبحت القرية هى عمـوده الفقرى فى العصر الوسيط .

والى جانب غزوات البرابرة ونظامهم الاقطاعى بحضارته الزراعية الذى حل محل النظام القديم وتراثه الكلاسيكى ، كان هناك شىء آخر خطير اخذ فى النمو ، ونعنى به الدين المسيحى الذى ظهر فى أخريات التاريخ القديم ؛ وقد سارعت كثير من الطوائف وبخاصة العبيد والاقنان الى اعتناق الدين الجديد . ومع ذلـــك فقد لقى اضطهاد الحكـــومة الامبراطورية خلال القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخها ، اذ اعتبرتـــه دولة داخل الدولة ، ومنافسا خطيرا لسلطة الامبراطورية ، وتهديدا

مباشرا لوحدة الامبراطورية · واستمر الامر هكذا الى أن اعترف الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine, the Great في اوائل القرن الرابع بالمسيحية رغبة منه فى المحافظة قدر الاستطاعة على وحدة الدولة الرومانية ، واعتبر كنيستها هى كنيسة الدولة والامبراطور هو الرئيس الدينى الاعلى لهـا ·

ويلاحظ أن البرابرة عندما اجتاحوا الدولة الرومانية ، اكتسحوا أمامهم كل شيء فيما عدا الكنيسة ورجالها · فقد أبقوا على القس فى كنيسته والراهب فى ديره · ويفسر العالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne هذه الظاهرة أن الجرمان كانوا يخشون أن يصب عليهم رجال الدين لعنتهم فتحل بهم الكوارث والويلات · وهكذا أصبحت تلك الكنيسة اللاتينيه هى كل ما تبقى من الامبراطورية القديمة بعد زوالها · أو حسبما قال القديس أوغسطين اوف هيبو St . Augustine (٣٥٣ -٤٣٠ م) لقد بنيت « مدينة الله » أى الكنيسة ، بينما زالت « مدينة الانسان » أى الامبراطورية ، وذلك فى رسالته التى كتبها باللاتينية باسم « مدينة الله » De Civitate Dei

وقد ترتبت على ذلك أحداث تركت آثارها الخطيرة فى مجرى التاريخ الأوروبى الوسيط وحضارته · اذ اتخذت الكنيسة قالب الامبراطورية وورثت القياصرة القدماء نفوذهم وسلطاتهم عندما أصبح الكرسى الامبراطورى فى الغرب شاغرا بعد تأسيس القسطنطنية عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، وانتقال الاباطرة اليها · وقد التف الناس فى الغرب حول تلك الكنيسة للخروج بهم من حالة الفوضى التى ألمت بالغرب عقب غزوات البرابرة ، ونجحت فى القيام بمهمتها الى حد بعيد · وهكذا دفعتها الظروف الى الانغماس فى الشئون الدنيوية الى جانب القيام برسالتها الروحية ، وقادها هذا آخر الأمر الى الدخول فى صراع

عنيف ضد القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطورية الذى امتد قرابه ثلاثة قرون من الزمان تشمل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط . وقد ثارت حول هذا الكفاح الكثير من النظريات السياسية المؤيدة للبابوية أو المعارضة لها . والتى كان لها شأنها فى ذلك الحين .

وكيفما كان الأمر ، فلم يكن قيام المسيحية وفلسفتها ليتفقان بحال مع بقايا الحضارة الرومانية التقليدية ، والتراث الكلاسيكى القديم . لقد كان هذا التراث فى نظر المسيحية تراثا ضارا عديم الفائدة لارتباطه بالوثنية وماتدعو اليه من الحرية والانطلاق وتعدد الآلهة ، وهو أمر حاربته المسيحية دون رفق أو هوادة . ولقد كانت الحياة الدنيا فى نظرها مطية زائلة الى الدار الثانية باعتبارها دار الخلد والنعيم المقيم ، وان الفرد يجب أن يعد نفسه للحياة الأبدية . كما كانت تحرم عليه مباهج الدنيا وملذاتها باعتبارها متعا زائلة . وتنادى بأن الخلاص هو الغاية النهائية التى لابد منها لكل كائن حى . فى حين أن الوثنية القديمة كانت تتميز بالتحرر والانطلاق والتمتع بالطبيعة وجمالها ، وفى شتى صورها ومظاهرها . وهكذا صبغت المسيحية الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط بصبغة خاصة ظهر أثرها جليا فى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وفى نظمها وحضارتها . فالحب مثلا أو التمتع بالجمال اعتبرته المسيحية اثما وخطيئة مميتة . فلم يكن يسمح للأديب أو الشاعر أو الفنان أو المفكر أن يعبر عن مثل هذه الأحاسيس وغيرها التى حرمتها المسيحية وفلسفتها ، تلك الفلسفة التى اعتبرت الأساس الأول للحياة والتفكير فى العصور الوسطى المبكره . ولم يكن مسموحا بتدريس آداب اليونان والرومان القديمة لما فيها من عناصر وثنية . لقد نبذتها الكنيسة اللاتينية ، وبلغ من تعنتها حيال التراث الكلاسيكى القديم أن حاربته بدون رفق أو هوادة ، حتى أن المتبقى منه الذى حفظه

لنا الزمن من الضياع ضئيل جدا وضعيف فى مستواه .

تلك هى الخطوط العريضة التى تحدد معالم الفكر المسيحى الوسيط ، وكل ما يتصل به من أنظمة وحضارة كانت تتعارض تماما مع نظريات وأفكار العصر القديم . وتلك هى الفكرة التى أوحى بها الدين الجديد وتشبثت بها الروح الجرمانية . وهى تنحصر – حسبما ذكرنا – فى النظرة الى العالم الآخر ونهاية الحياة الدنيا ، والجنة والجحيم ، والثواب والعقاب . وقد تعرض لذلك كثير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء ورجال الدين والسياسة أمثال القديس فرنسيس الأسيزى ST. Francis of Assisi (١١٨١ – ١٢٢٦) ، وروجربيكون Roger Bacon (١٢١٤ – ١٢٩٤) ، والقديس توماس الأكوينى ST. Thomas Aquinas (١٢٢٠ – ١٢٧٤) ، والشاعر الايطالى دانتى اليجيرى (١٢٦٥ – ١٣٢١) ، وسير توماس مور Sir Thomas More (١٤٧٨ – ١٥٢٥) .

ومع ذلك فقد كانت هناك عناصر أخرى سابقة للمسيحية أثرت فى الدين الجديد وتأثرت به . ذلك أن العناصر الرئيسية التى أثرت فى حضارة العالم القديم قبل المسيحية هى : الوثنية ودين الدولة الرسمى ونعنى به عبادة الامبراطور ، ثم بعض العبادات التى هى من أصل شرقى مثل عبادة ايزيس ومثرى ، وأخيرا اليهودية التى كانت تتميز بالتعصب وضيق الأفق وفقا لقول المؤرخ جورج جوردون كولتون G. G. Coulton وبالرغم من أن المسيحية انتصرت فى صراعها ضد هذه العناصر ، الا أنه لم يتسن لها القضاء عليها قضاء تاما . فقد أثرت هذه العناصر فى الديانة الجديدة ، ووجد بينها جميعا نوع من الامتزاج . اذ استوعبت المسيحية الكثير من أفضل عناصر الفكر السابقة ، كما أخذت عنها بعض نواحى ضعفها . فعن الديانة الوثنية أخذت المسيحية عادة

عبادة الصور ، وعن العبادات الأخرى انتقل اليها حماس لم يكن يتفق مع الأخلاق ، وأما عن اليهودية فقد انتقل اليها تعصب واضح ٠

ومهما يكن من شيء ، فان تلك النظرة المحدودة الضيقة للأمور فى نطاق المسيحية وتعاليم الكنيسة اللاتينية ، والتى عاش الفرد أسيرها قرونا عديدة ، جعلت الناس لا يفكرون فى استنباط قوانين الطبيعة ، ولم يحاولوا نتيجة لذلك التقدم فى الآداب والعلوم والفنون ، واستعوزتهم القدرة على استخلاص مافى الطبيعة من ثروات معدنية وزراعية ٠ وشغل الناس أغلب حياتهم فى فترة العصور المظلمة بالكفاح من أجل كسب القوت اليومى فحسب وكفاهم فى ذلك الكفاف من العيش ٠ وكان أن وجد شعور متزايد بالسأم والملل ، وحالة من الضغط والكبت والحرما ٠ وهذه ، بالاضافة الى عوامل أخرى عديدة ، كانت من أهم أسباب التغيير فى الانسان والمجتمع ٠ وقد أدى ذلك الى مايعرف بنهضة القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وظهور الفكر الحر والمفكرين والفلاسفة الذين نادوا بالانطلاق والرجوع الى التراث القديم للافادة منه ٠ كما نتج عنه وترتب عليه كل الحركات التى شهدها العصر الوسيط فى قرونه الأخيرة فى الدين والفلسفة والقانون والسياسة والعلم والاجتماع والاقتصاد ٠

والخلاصة انه اذا كان العصر الوسيط قد بدأ بداية سيئة للأسباب التى أشرنا اليها ، واذا كان قد مر ببعض الفترات الحالكة نتيجة لظروف خارجة عن ارادته ، الا أنه الى جانب مساوئه فقد كانت له مزاياه ، والى جانب النواحى السلبية فيه فقد كانت له أيضا نواح ايجابية غير قليلة ٠ وقد أدى واجبه كاملا فى كلا الحالتين ٠ اذ مهد بعيوبه ومحاسنه الطريق لعصر النهضة الذى مهد بدوره الطريق للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة ٠

الموضوع الأول

التحديد الزمني للعصور الوسطى الأوروبية

والنظريات التي قامت حول بدايتها

قبل تناول موضوع التحديد الزمنى للعصور الوسطى الأوروبية ، يحسن أن نمهد لذلك بكلمة سريعة عن تقسيم التـاريخ نفسه الى حقب وعصـــور !

ان مسألة تقسيم التاريخ الى عصور وتحـــديد بداية ونهاية كل عصر ، مسألة صعبة معقدة ثـار حولها الكثير من الجدل بين المـؤرخين وواضعى النظريات ، ولم يصلوا فيها الى نتيجة حاسمة قاطعـة • ولقد اتضح بعد دراسات طويلة مضنية أن التاريخ ليس له بداية أو نهاية • وأن تحديد البدايات والنهايات لمختلف الحقب التاريخية انما هو محاولة اجتهادية تقليدية جرى عليها الكتاب والمؤرخون بقصد تسهيل دراســة التاريخ وتقريبه الى الأفهام قدر الاستطاعة٦

وعلى هذا ، يواجه الباحث الذى يتناول بالدراسه أى فترة تاريخية مشكلة التحديد الزمنى لها ، وأين يضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها • وليس هذا بالأمر الهين أو اليسير ، لأن التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والأحداث المتراصة المترابطة التى لا يمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها • وأن كل فترة من فترات التـــــاريخ ماهى الا عصر تغـير وانتقال من السابق الى اللاحق • ومع ذلك فقد اتفق على تقسيم التاريخ الى ثلاثة عصور رئيسية هى على التوالى : التاريخ القديم والعصر الوسيط والعصر الحـديث • كما اتفق على تحـــديد كل عصر تحـــديدا زمنيا دقيقا • ولكن يجب أن نفهم جيدا أن هذا التحديد الجاف لا يعنى بحال أن فترة ما تنتهى فى يوم معين معلوم ، وأن فترة أخرى تعقبها فى اليوم التالى تختلف عنها فى قوانينها وأنظمتها من سياسية ودينية وثقافيـة واقتصادية واجتماعية وغيرها •

فعندما نقول ان العصور الوسطى تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى

فى القرن الخامس عشر ، أو انها تقع على وجد التحديد بين عامى ٤٧٦م ، ١٤٥٣ م ـ فان ذلك لا يعنى بحال أن التاريخ القديم بحضارته وأنظمته فى الدين والفلسفة والفكر والقانون والاقتصاد والاجتمـــاع قد انتهى فجأة وبدون سابق انذار سنة ٤٧٦م ، وأن العصور الوسطى بمثلهـــا ومبادئها ونظمها وتقاليدها قد زالت نهائيا سنة ١٤٥٣م ٠ فلا يمكـن فى الواقع تحديد يوم بالذات أو سنة بعينها كنهـاية للقديم وبدايـــة للوسيط ، أو كنهاية للوسيط وبداية للنهضة والحديث ٠ فمما لاشـك فيه أن عناصر التاريخ القديم قد استمرت بعد ٤٧٦ م لتؤثر فى العصر الوسيط ، وان لم تكن بنفس القـــوة التى كانت عليها قبل انهيـــار الامبراطورية الرومانية ، كما أن عناصر التاريخ الوسيط قد استمـرت هى الأخرى بعد سنة ١٤٥٣ م لتؤثر فى عصر النهضة وان لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انتهاء العصور الوسطى ٠

ولايضاح هذه المسألة نقول ان دراسة أى عصر تعنى القاء الضـــوء على النظم والحضارة السائدة فيه من اجتماعية واقتصادية وسياســية وعسكرية وفكرية وغيرها ٠ وليس من الحكمـــة القول بأن كل هـــذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية خصائص أخرى جديدة مغايرة ٠ وعلى هذا فان قيام العصور والحركات الهامة فى التـــاريخ ، وان قيـــام الـــدول والامبراطوريات وانهيارها ، وان الأحداث الخطيرة التى تؤثر تأثـــيرا بالغا فى مجرى التاريخ البشرى ـ كل هذه لايمكن أن تكـــون فجائية ٠ انما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج الى فتــــرات من الوقت ممتدة متباعدة ٠

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى أبحاثهم ودراســــاتهم ٠ وكانوا يختارون حادثة أو واقعة لها دلالتها أو تاريخا له أهميته ليكـــون

نقطة البداية أو النهاية لفترة ما ٠ والأمثلة على ذلك عديدة ٠ اذ يعتبر بعض المؤرخين سنة ٤٧٦ التى قضى فيها البرابرة بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية القديمة ، كبداية للقرون الوسطى ونهاية للتاريخ القديم ٠ هذا ، بينما يرى البعض الآخر أن عصر النهضة يبدأ بدانتى الليجبيرى والكوميديا الالهية فى القرن الرابع عشر ، أو بحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ٠ ويجعل بعض الكتاب الثورة الفرنسية أو نتائج مؤتمر فينا بداية للعصر الحديث ، وهكذا ٠

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن ندرس العصور الوسطى التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالى عشرة قرون من الزمان ٠ فيجب أن نعرف كيف ومتى بدأت وكيف ومتى انتهت ، ويجب أن نضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ٠

ولقد تعددت النظريات والآراء والأفكار فى هذا الصدد ٠ وسنحاول فيما يلى عرض أهم الأفكار والنظريات التى قامت حول بداية العصر الوسيط ، ثم نعقبها بتلك التى أثيرت حول نهايتها ٠

أهم النظريات التى قامت حول بداية العصور الوسطى الأوروبية

الواقع أنه توجد حدود فاصلة عديدة يصلح كل منها أن يكون بداية لدراسة تاريخ العصور الوسطى ٠ ولكل حادثة أو تاريخ ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ أو ذاك يأخذ برأى أو بآخر كبداية لتلك العصور ٠ وفيما يلى أهم النظريات التى أثيرت حول هذا الموضوع ٠

النظرية الأولى :

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤ م كنهاية لتاريخ الدولة الرومانية وبداية للعصور الوسطى ، وهى السنة التى تولى فيها الامبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عرش الامبراطورية ٠ وهناك أكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار ٠ منها أن الامبراطور اوغسطس (٣٠ ق ٠ م - ١٤ م) قد وضع أساس القاعدة القائلة بأن الامبراطور

هو أول روماني حر في روما · ولكن دقلديانوس نحا نحوا مغـــايرا · اذ اعتنق مبادىء الملكية الشرقية التي تجعل من الملوك أشخاصا فـــوق القانون وفوق الشعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر · فهم أقـــرب للآلهة منهم للناس · فالملك في نظره نصف اله يجب أن يؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبادة والولاء ، ثم أن حكم دقلديانوس يتســـم بتلك الفظائع التى ارتكبها ضد المسيحية والمسيحيين ، باعتبـــار أن الدين الجديد منافس خطير لعبادة الامبراطور ووحدة الامبراطورية ، وباعتباره دولة داخل الدولة · فقد هدم الكنائس وحرق الكتب المقدســة ، وبالغ في اضطهاد المسيحيين في جميع أرجاء الامبراطورية ، فعذبهم وشـــردهم وقتلهم لدرجة أن الاضطهاد الذى حدث في مصر وقتئذ جعل الأقبـــاط يقررون فيما بينهم استخدام تاريخ توليه الحكم كبداية لتاريخ الســنين القبطية · وعلى هذا الأساس تبدأ السنة القبطيــة من سنة ٢٨٤م التى تعتبر سنة الشهداء · ويبدو أن هناك أخطاء تاريخية تتعلق بدقلديانوس واضطهاداته التى يشوبها شيء من المبالغة والتهويل · فمن الثابت أن هناك اضطهادات أفظع من تلك التى ارتكبها دقلديانوس ، وبخاصة تلك التى وقعت أيام نيرون وفاليريان وجاليريوس وماكستنيوس وغيرهـــم · ومن الدواعي الأخرى التى دعــت الى اختيار بدايـــة حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط أنه يعتبر حدا فاصـــلا بين زمنين منفصلـــين تقريبا · فقد كان هذا الرجل أول من فكر في أمر تقسيم الامبـــراطورية الرومانية الى قسمين أحدهما شرقي والآخر غربي ، ذلك التقسيم الذى لم يأخذ شكله النهائى الطبيعي الا في عهد قسطنطين الكبير في أوائـــل القرن الرابع · ومع ذلك يجب أن نفهم أن وجود حاكم في الشـــرق مقره القسطنطينية وآخر في الغرب مقره ميـــلان أو رافنا في عهد خلفـــاء دقلديانوس ، لم يضعف من وحدة الامبراطورية الرومانية بمعنـــاها

المعروف وقتذاك . بل كان هذا فى واقع الأمر ، وعلى حد قـــول أحد مؤرخى القرن الرابع الميلادى عبارة عن انفصال ظاهرى فقط . فقد كانت نفس القوانين والأنظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آنئذ من كلا الحاكمين وفى كلا العاصمتين .

النظـــرية الثانية :

ويحدد بعض المؤرخين سنة ٣٢٣ م كبداية للعصـــور الوسطى ، وهى السنة التى اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine I, the Great (٣٠٥ ـ ٣٣٧ م) عـــرش الامبراطوريــــة بعـــد قضائه على خصومه ومنافسيه فى الشرق والغرب . ومن أهم الأسـباب فى الأخذ بهذه النظرية مايلى :

أولا ـ التغييرات الاجتماعية والدينيـــة الهائلة التى حدثـــت فى عهده . اذ انتصرت المسيحية فى ذلك الوقت على الوثنية بعد صـــراع عنيف معها . كما انتصرت على عبادة الامبراطور واعترف بها قسطنطين كديانة رسمية للدولة فى مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م الذى أجـاز رسميا اعتناق الدين الجديد . وأصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الدولة والامبراطور هو الرئيس الدينى الأعلى لها . وكانت هذه الخطوة انقلابا عظيم الشأن ترك آثاره البالغة فى مجريات الأمور والأحوال طيلة العصور الوسطى .

ثانيا ـ اقدام قسطنطين على خطوة لا تقل عن سابقتها شأنا ، وهى تأسيس مدينة القسطنطينية على الضفة الآسيوية للبسفور عند اتصـاله ببحر مرمرة ، لتفى بمطـالب العصر وحاجيـــاته . ولذلك آثار بالغـة الأهمية فى مجرى التاريخ البشرى وقتئذ ، لأن نقل الامبراطورية من الغرب الى الشرق ، وترك القياصرة الأقدمين روما الى القسطنطينية كان معناه تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية

الغربية أكثر من عشرة قرون ، ونعنى بذلك الامبراطورية الرومانيـة الشرقية أو الدولة البيزنطية التى كان مقرهـا القسطنطينية أو رومـا الجديدة تمييزا لها عن روما الغرب · ومن النتائج التى ترتبت أيضـا على نقل كرسى الامبراطورية الى الشرق هو ترك روما وهجرها · فأمسى الكرسى الامبراطورى فى روما القديمة خاليا ، وبدأ الرومان ينظرون فى زعامتهم الى البابا وكان وقتئذ أسقف رومـا · وهذا يفسر لنا قـوة البابوية فيما بعد ، وتطلعها الى زعامة العالم المسيحى دينيا ودنيويـا ، ومحاولتها الاستيلاء على كل ماكان للامبراطور من حقوق وامتيازات فى التاريخ القديم · كما أدى هذا الى دخولها فى كفاح عنيف مع القـوى العلمانيـة فى الغرب الأوروبى بعد احياء الامبراطورية الرومانية فى عصر شارلمان وتجديدها فى عهد اوتو الكبير ·

ثالثا - يلاحظ أن السياسة الادارية والمـالية التى اسـتنها قسطنطين ، وكذلك تشريعاته وقوانينه واصلاحاته العسكرية والدينية ، قد ساعدت على تدعيم الامبراطورية الشرقية ، بينما انحدرت وتهـاوت الامبراطورية الغربية أمام سيل الجرمان البرابرة المتدفقين من الشمال ·

النظرية الثالثـة :

اعتبار سنة ٣٣٠م كبداية للتاريخ الوسيط لأنها السنة التى تـم فيها تشييد مدينة القسطنطينية التى بدىء فى تشييدها فى نوفمبـر ٣٢٤ م وتم تدشينها فى مايو ٣٣٠ م وما ترتب على ذلك من آثار أشرنا اليها فى النظرية السابقة ·

النظـرية الرابعة :

يحدد فريق آخر من المؤرخين سنة ٣٦١م كبداية القرون الوسطى وهى سنة اعتلاء الامبراطور جوليان المرتد Julian, the Apostate عرش الإمبراطورية الشرقية ، ومحاولته الفاشلة القضاء على المسيحية

واعادة الوثنية من جديد كدين رسمي للحكومة · ويدل فشله على أن الديانة الجديدة كانت قد تأصلت جذورها في كيان العالم الأوروبى بشكل لا يسمح لأحد ولو كان الامبراطور نفسه أن يعود بها الى الماضى الوثنى · ولكن يلاحظ في نفس الوقت أنه في عهد الامبراطور جوليان تبدأ بذور الانقسام بين المسيحيين أنفسهم ، ذلك الانقسام الذى أخذ فيما بعد شكل الهرطقة الأريوسية في شمال أوروبا · وهى نسبة الى شخص يدعى اريوس ، وهو كاهن سكندرى كان قد طلع بآراء جديدة فى المسيحية تتلخص في أن المسيح مخلوق وهو يشبه الله الآب ولكن طبيعته تختلف عن طبيعة الآب الذى كان موجودا قبله ، وأن عمل الآب انتهى بخلق الابن بنفحه من روحه القدس فى العذراء مريم ، وهذا الابن خلق العالم · وقد انتشرت بدعة اريوس هذه التى تعرف بالأريوسية الى ماوراء الحدود المصرية داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية وخارجها بين الأمم الجرمانية بصفة خاصة · وتصدى له فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد بمدينة نيقيه سنة ٣٢٥ م تحت رئاسة الامبراطور قسطنطين الكبير ، اثناسيوس بطريق الاسكندرية الشهير الذى دحض حججه حتى قرر المجمع خطأ النظرية الأريوسية والحكم على صاحبها بالهرطقة وما يترتب عليها · وكان اثناسيوس هذا عالما عظيما نشطا له مؤلفات عديدة ، ذهب الى روما والمانيا والقسطنطينية وآسيا الصغرى ، ونفى من مصر ، ثم أصبح أخيرا بطريقا على الاسكندرية وهو الذى تزعم حركة قانون الايمان المسيحى ·

النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة ٣٧٦م كنهاية للقديم وبداية للعصر الوسيط ، على أساس أنها كانت السنة التى تحول فيها أحد العناصر الجرمانية ، وهو عنصر القوط الغربيين ، من الوثنية الى المسيحية على يد أسقف

أريوسى اسمه أولفيلاس • وترجع أهمية هذا التاريخ فى نظر المؤرخين ألى اهتمامهم العظيم بموضوع البرابرة ، وماكان لهم بعدئذ من القـوة والجبروت فى غزواتهم التى اكتسحوا بها روما • ويمكن الأخذ بهـــذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام • فاعتناق القوط الغربيين المسيحية جعل الأباطـرة الشرقيين يســـمحون لهم بعبور الدانـــوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الامبراطورية البيزنطية ، وكأن هذا من البدايات التى تدل على غزوات البرابرة فى أوروبا • وجدير بالذكر أن القوط عندما نزلوا فى الامبراطورية انما كانت تدفعهم عنـاصر أخرى أشد بربرة منهم : اذ كانت تدفعهم قبائل الوندال من الشـــمال وقبائل الهون من الشرق •

النظرية السادسة :

يضع بعض المؤرخين المعنيين بهذا الموضوع سنة ٣٧٨م كبـداية لتاريخ العصر الوسيط ، وذلك لوقوع معركة من المعارك الهامة الحاسمة فى التاريخ الغربى بين القوط الغربيين وبين جيوش الامبراطور البيزنطى فالنس Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) بجوار مدينة أدرنة • وقد سميت الموقعة باسم تلك المدينة ، وفيها ألحق القوط الغربيون هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطى كانت لها مضاعفاتها وآثارها الخطيرة • وقد اعتبرت هذه المعركة لفترة طويلة احدى المعارك الفاصلـة فى التاريخ بصفـــة عـــامة •

ويعتبر سولمون كاتــز Solomon Katz من الفـــريق الذى يؤيد هذه النظرية • يقول فى كتابه « انهيار روما وبداية العصـــور الوسطى فى أوروبا » ان روما كانت تقاتل البرابره على حدود الدانوب والراين فترة لاتقل عن قرنين من الزمان ، كما حاربتهم فى تاريخ لاحق فى شبه الجزيرة البريطانية • ويســتطرد قائلا ان البـــداية الحقيقية

للغزوات الجرمانية هى سنة ٣٧٨ عندما قضى القوط الغربيون على ثلثى الجيش الرومانى فى الشرق ، وعلى أكفأ قواده ، بل وعلى الامبراطور فالنس نفسه فى معركة أدرنة · ويستمر قائلا ان المؤرخ الرومانى اميانوس مارسللينوس Ammianus Marcellinus الذى ينهى سرده للتاريخ الرومانى بتلك المعركة ، يقول : « ولم يضع حدا لتلك الكارثة التى ليس ثمة سبيل لاصلاحها سوى الليل ، تلك الكارثة التى ستترك النتائج المترتبة عليها آثارها على مصير الامبراطورية لفترة طويلة من الزمن » · ولايجد كاتز معركة مماثلة لها فى التاريخ اليونانى والرومانى سوى معركة كاناى Cannae حيث لقى الرومان هزيمة مريرة فى حروبهم ضد هانيبال قبل ذلك التاريخ بستة قرون · ويأخذ برأى اميانوس المؤرخ جيبون وغيره من المؤرخين الحديثين الذين يعتبرون موقعة أدرنة نقطة تحول فى التاريخ ، وحدا فاصلا بين العالمين القديم والوسيط ·

النظرية السابعة :

بينما تضع فئة أخرى من المؤرخين بداية حكم الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥ م) Theodosius I, the Great نقطة التحول من التاريخ القديم الى التاريخ الوسيط · فيرى البعض أن سنة ٣٧٩م التى قرر فيها هذا الامبراطور القضاء نهائيا على بدعة اريوس والقضاء بصفة قاطعة على كل العناصر الوثنية الباقية فى الامبراطورية، الأمر الذى ترتب عليه تأسيس الديانة الجديدة كديانة رسمية لجميع أفراد الشعب بصفة قاطعة لارد فيها ، يرى البعض أن سنة ٣٧٩م هى أصلح بداية للعصر الوسيط ·

النظرية الثامنة :

ويجعل البعض الآخر سنة ٣٩٥م كنقطة التحول الى التاريخ

الوسيط على أساس أن الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I قسم في هذه السنة الامبراطورية الرومانية التي كانت لاتزال تحت حكم شخص واحد ، الى قسمين منفصلين مستقلين عن بعضهما تماما ، وليس كما سبق في عهد دقلديانوس لأن تقسيمه هو وأتباعه للامبراطورية كان تقسيما صوريا فحسب • اذ كانت الامبراطورية حتى حكم ثيودوسيوس لاتزال وحدة واحدة في مجموعها على الرغم من انقسامها انقساما فرعيا الى فرعين • ولكن ثيوديوسيوس قسمها الى قسمين أحدهما غربي والآخر شرقي • وقد أعطى الجزء الشرقي لابنه أركاديوس Arcadius والجزء الغربي لابنه الآخر المسمى هونوريوس Honorius • وأصبح كل منهما مستقلا عن الآخر، وأسس لنفسه دولة وأسرة قائمة بذاتها • وهذا يعني بكلمة مختصرة بداية دولة جديدة في الشرق ، في الوقت الذي كانت فيه دولة الغرب في طريقها الى التدهور والانهيار أمام جحافل الجرمان البرابرة •

النظرية التاسعة :

فكرة أخرى قال بها بعض المؤرخين بأن سنة ٤١٠ م تعتبر بداية العصور الوسطى ، على أساس أن القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى الاريك Alaric يكتسحون مقدونية وماوراءها من الأراضي اليونانية في سنة ٤٠٠م ؛ الا أن القائد الروماني المدعو ستيليكو Stilicho قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من البرابرة وهزمهم شر هزيمة سنة ٤١٠م • فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن موضع آخر يلتمسون فيه سبل الرزق والاقامة ، فاتجهوا غربا الى ايطاليا • ودخول القوط الغربيين Visigoths ايطاليا له أهميته الكبرى في التاريخ ، بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة في بداية التاريخ الوسيط • ذلك أنه في سنة ٤١٠ م تمكن هؤلاء البرابرة من

اكتساح ايطاليا بما فيها روما نفسها ٠

النظرية العاشرة :

ويرى غالبية المؤرخين أن سنة ٤٧٦ م هى أصلح وأنسب بداية لتاريخ القرون الوسطى : لأن هذه السنة تعتبر آخر العهد بالامبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب ٠ فاستيلاء البرابرة على روما نهائيا ، وقضائهم على شبح الامبراطورية الرومانية الغربية فى شخص آخر أباطرتها الضعاف وهو رومولوس اوجسطولوس Romulus Augustuls فى تلك السنة عندما أرسل ادواكر Odoacer الجرمانى شارات تلك الامبراطورية من روما الى الجالس على عرش القسطنطينية فى الشرق وهو وقتذاك الامبراطور زينو Zeno (٤٧٤ - ٤٩١ م) ، كان يعنى انتهاء الانفصال الظاهرى الذى حدد خطوطه دقلديانوس ومن جاء بعده من الأباطرة ، ثم أكده ثيودوسيوس فأصبح حقيقة واقعة ٠ وهكذا انتقلت حقوق الحاكم الغربى الى الجالس على عرش القسطنطينية فى الشرق ٠ وبذلك تنتهى الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبنهايتها تبدأ العصور الوسطى ٠

ويعارض المؤرخ جون لامونت John La Monte هذه النظرية٠ ويقول فى كتابه « عالم العصور الوسطى » انه عندما خلع ادواكر فى سنة ٤٧٦ الشاب رومولوس اوجستولوس عن العرش ، ووحد رسميا شطرى الامبراطورية الغربى والشرقى ، فقد اتخذ خطوة اعتبرها المؤرخون لأجيال طويلة بمثابة نهاية للامبراطورية الرومانية ٠ ويستطرد بأنه لم يحدث شىء من هذا القبيل ، وان عام ٤٧٦ يمثل تاريخا لايستحق الذكر على الاطلاق ، ذلك لأن مسألة اعادة توحيد شطرى الامبراطورية لم تكن أمرا غير عادى ٠ فمنذ أيام دقلديانوس كان القسمان يتحدان وينفصلان عن بعضهما بصورة تلقائية ، بحيث لم يكن

هناك جديد في الموضـــوع • ويستمر قائلا انه طالما أن الامبراطورية في الشرق قد عاشت في هدوء وطمأنينة لايعكر صفوها شيء الى أن قام شارلمان باحياء الفرع الغـــربي في عام ٨٠٠ ، فانه لا يمكن أن نضفي على العمل الذى قام به ادواكر صفة الدوام والاستمرار •

النظرية الحادية عشر :

ترى مجموعة أخرى من المؤرخـين أن عهد الامبـراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) هو الذى يميز نهاية التاريـخ القديم وبداية العصر الوسيط • ذلك أن حكمه تميز بصفة هامة أضفت عليه طابع الوحدة ، ونعنى بذلك محاولاته لاسترداد أملاكه الضائعة التى استولى عليها الجـرمان فى غرب اوروبـــا وشمال افريقية واعـــادة الامبراطورية الى ماكانت عليه أيام أسلافه الرومـــان القدماء ؛ وبمعنى آخر أكثر وضوحا تعتبر هذه الفئة من المؤرخين أن جستنيان عند تقييم محاولته هذه ، يعتبر آخر أباطرة الرومان وبداية عهد جديد • ويكفى أن المعاصرين له اعتبروا بعد نجاحه فى حملاته فى ايطاليا واسبانيا وشمال افريقية أنه تم احياء الامبراطورية من جديد ، وان أثبت الواقع بعد موته خلاف ذلك •

النظرية الثانية عشر :

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تجعل مدخل التاريخ الوســيط مابعد عهد جستنيان أى مابعد سنة ٥٦٥م • اذ وضح للعيان منذ أواخر ذلك العهد أنه لم يعد هناك أمل على الاطلاق فى احياء الدولة الرومانية التى قضى البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها ، وأنشأوا دولا وممالك جديدة على أنقاضها لها نظم وحضارة جديدة مغايرة • وأثبتت الأحداث أن الأمل تلاشى فى استرجاع ممتلكات تلك الدولة فى الغرب الأوروبى • وأصبح من واجب الدولة الرومانيـــة فى الشرق التحول عن الطـــريق

القديم الى طريق جديدة ترتبط بالوضع الجغـــرافى للجزء المتبقي من الدولة الرومانية ٠ ولم يكن أمامها الا أن تسلك هدا السبيل ؛ بمعنى أنه كان يجب على تلك الدولة أن تتجه اتجاها شرقيا ببزنطيا طبقا لمقتضيات الظروف والأحوال الجديدة ٠ ويكفى للتدليل على وجاهة هذا الرأى أن الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب وممالكه الجرمانية تتكون تكوينا جديدا ، وتنمو على أساس يخالف الأساس الذى قامت عليه دولة الرومان القدماء ٠ وقد حاول الامبراطور جستين Justin الذى خلف جستنيان اعادة الكرة لكنه فشل فشلا ذريعا ، وكانت النتيجة أن فقد عقله ٠

النظرية الثالثة عشر :

ويذهب عدد آخر من الكتاب أن العصور الوسطى تبـدأ فى ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠ م عندما تم تتـــويج شارلمان أو شـــارل العظيم Charles, the Great امبراطـورا على الغرب ، وعندما تـــم احياء الامبراطورية القديمة تحت اسم « الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة » لتتلائم مع مقتضيات الظروف والأوضاع الجديدة المغـايرة ، بعد انتصار الجرمان والمسيحية على الوثنية والدولة الرومانية القديمة ٠

لقد كانت هذه الدولة الجرمانية المسيحية الناشئة فى الغــرب ٠ وسند الفئة التى تأخذ بهذا الرأى أن شارلمان كان فى الواقع آخر أباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم ، وأن فشل مشروعه لاحياء دولة القياصرة القدماء أو استحالة احيائها ، لهو برهان واضح على أن ظروف العـــالم الأوروبى قد تغيرت تغيرا تاما لايمكن العـــودة بها الى الوراء ٠ ويـرى المؤرخ نورمان بينز N. Baynes أن هذه النظرية تشبع فى الواقـــع رغبة مؤرخ النظريات السياسية أو الباحث فى تاريخ أوربا الغربيـة ، الا أن أهميتها تتضاءل بالنسبة للدارس فى مصير الامبراطورية الرومانية الشرقية ٠

الخـــلاصة :

وهنا يجب ألا نغفل أن النظريات السالف الاشارة اليها وان كانت تتعلق ببداية العصر الوسيط فى الغرب الأوروبى ، فانها تصلح أيضـــا كمدخل لتاريخ الامبراطورية الرومانية فى الشرق ونعنى بها الدولـــة البيزنطيـــة ٠

ومهما يكن الاختلاف بين المؤرخين على تحـديد النقطة التى ينتهى فيها التاريخ القديم ويبدأ بها العصر الوسيط ، الا أننا نخلص مما سبق أنه كانت هناك عوامل كثيرة مختلفة متشابكة معقدة هيأت الجو لقيـام العصور الوسطى ٠ ولم تكن مثل هذه العوامل بنت يوم وليلة ، وانمـا استغرقت عشرات الســـنوات قبل أن تبدأ تلك العصور نفســها ٠ ونستنتج أيضا أن أقرب الفروض الى الصحـة والواقع والى الأحـــوال السياسية والاجتمـــاعية والاقتصادية والدينية التى قامت فى أوروبا وقتذاك ، أن العصور الوسطى تبـــدأ بلا نزاع فى القـــرن الخامس ٠ كما أنها انتهت حوالى القرن الخامس عشر لأسباب أخرى مغايرة سنعرض لها فيما بعد ٠ ولذلك تكون تلك العصـــــور قد اقتطعت من تاريـــخ الانسانية عشرة قـــرون تميزت بنوع من المدنية والحضارة الوســيطة المتوسطة الشأن التى قامت كجسر بين المدنية الرومانية الزاهرة وبـين الحضارة التى ترتبط بالتاريخ الحـديث ٠

والأخذ بالرأى القائل بأن العصـــور الوسطى تبدأ فى القـــرن الخامس مبنى فى الواقع على الاتجاهات التاريخية التى نشأت فى أوروبا٠ اذ شاهد الانسان الذى عاش فى القرن الخامس من التغييرات الهـــامة والأحداث الخطيرة فى مجرى التاريخ البشرى مايبين صفة حاسمة تغييرا جذريا فى طبيعة اوروبا يدعو الى الاعتقاد بأن العالم القديم قد انتهى ٠

فقد كانت الدولة الرومانية بحضارتها وقوتها وعظمتها المعروفة تنهار بسرعة مذهلة فى ذلك الوقت • كما بدأت العناصر المتبربرة تتدفق داخل حدودها لتؤسس ممالك لها على أنقاضها لها نظمها وتقاليدها الخاصة بها • بينما أخذت الديانة المسيحية فى الظهور والانتشار والاستقرار فى اوروبا وفى روما نفسها • وهكذا يتداعى النظام القديم من أساسه فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والحرب ، وتقوم على أنقاضه أمم جديدة ذات حكومات مغايرة لما كان معروفا عند الرومان القدماء

ولقد كان لهذه الأمم وحداتها الاجتماعية وحضارتها وأنظمتها الخارجية وتفكيرها الخاص بها ، ومشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية التى تختلف عما كان حادثا عند الرومان • كل هذا يؤيد أن التاريخ القديم قد انتهى ، وحل محله عصر آخر •

ويلاحظ أيضا أن التغييرات التى تكلمنا عنها لم تكن فجائية ، وانما كانت عبارة عن عملية تطور بطىء مستمر فى فترات غير قصيرة ، اذ لا يمكن الأخذ بفكرة تحديد الانتقال بين القديم والوسيط فى سنة معينة أو يوم بذاته يكون ماقبله قديم ومابعده وسيط ، كما لو أن الستار يسدل على الماضى فى ساعة معينة ويرتفع عن الجديد بعدئذ على الطريقة المسرحية • فتحديد السنين والتواريخ - حسبما أسلفنا - مسألة اعتبارية بحته المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه الى الأذهان قدر الاستطاعة •

الموضوع الثانى

نهاية العصور الوسطى الأوروبية

والنظريات التى قامت حولها

تحدد نهاية العصور الوسطى الأوروبية ظروف أخرى تختلف عن تلك التي ذكرناها بخصوص بداية تلك العصور • سبق أن ذكرنا أن العصور الوسطى تنتهي في القرن الخامس عشر • وقد شاهد هذا القرن في الحقيقة أنواعا شتى من الانقلابات التي انتفض لها كيان العالم الوسيط • ففيه حاول رجال الفن التخلص من قيود العصور الوسطى المبكرة التي جعلت هذا الفن فنا مسيحيا خالصا لا يعبر الا عما هو موجود في الأناجيل والكتب المقدسة ، واستمدوا فنهم من الحياة الواقعة التي كانوا يحيونها وقتذاك ، ومن روح الدين المسيحي ، ومن تراث وآثار اليونان والرومان القدماء الذي كانت أساليبه تختلف عن الفن القوطي الذي ساد العصور الوسطى • وكان أن وجد فن انساني رائع في النقش والنحت والصور والتماثيل ، أصبح يصور شتى الموضوعات التي كانت المسيحية وفلسفتها تحرمها تحريما باتا • كما أصبح يمثل تحرك الروح الانسانية من قيود وأوضاع العصور الوسطى المبكرة الى أوضاع جديدة مغايرة •

كذلك خرج رجال الأدب عن التفكير المسيحي الضيق المحدود ، وحاولوا التحرر من تقاليده التي كانت تحد من نشاطهم وانتاجهم الى حد بعيد ، وعادوا الى التراث القديم محاولين احياءه • وكان للعرب فضل كبير في نقل هذا التراث من الشرق الى الغرب • ففي ايطاليا مثلا ، وقد كانت أسبق من غيرها الى عصر النهضة ، وجدنا أديبا مثل دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١ م) يتمسك بعض الشيء بالأفكار الوسيطة ، وان كان قد بذر بذور الفكر الحديث • ويجيء بعده شخص مثل بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤ م) فيحاول كسر قيود العصر الوسيط • ونعرف أنه كان مولعا بجمال الطبيعة ، وهو الأمر الذي حرمته المسيحية التي كانت تدعو الى العالم الآخر والبعد عن ملذات الحياة الدنيا • ثم يجيء أديب

مثل بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) لينتقد رجال الدين نقدا مرا لاذعا . وأخيرا يأتي شخص مثل لورنسو العظيم الذى دعا الى الحرية والتمتع بالحياة فى شتى صورها ومظاهرها . وكانت جهود أمثال أولئك الأدباء والشعراء كفيلة بخلق عصر جديد من عصور الثقافة الأوروبية على حد قول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو سيموندز Symonds

وفى القرن الخامس عشر يحاول رجال الفكر الخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية التى كانت قد تسلطت على عقول الأفراد ومقدراتهم وعلى حياتهم الخاصة والعامة . وأدى هذا الى قيام النهضة العلمية الحديثة التى يرجع فيها الانسان الى الدراسات الكلاسيكية القديمة والى المدنية الرومانية من حيث تحرير الفكر والبحث والتنقيب فى الكتب التى كان قد نبذها العصر الوسيط لما كانت تحويه من عناصر وثنية . ولهذا تميزت القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، بصفة عامة ، بحرية التفكير ، والتأثر فى ذلك بما كان موجودا عند قدماء اليونان والرومان فى ميادين السياسة والدين وغيرهما . وكانت النتيجة هى الخروج على تعاليم العصر الوسيط المبكر وتعاليم الكنيسة اللاتينية نفسها . كذلك بدأت المذاهب الفلسفية القديمة فى الانتشار ، وأخذت الجماعات تتعصب كل جماعة منها لمذهب من هذه المذاهب ، مما أدى الى الصراع الفكرى وتطور عقلية الفرد فى أخريات العصر الوسيط .

وتميزت هذه الفترة أيضا بالتغيير الذى شمل كافة الأسباب السياسية والتاريخية . ويبدو هذا بوضوح فى المبادىء التى نادى بها شخص مثل نيقولا مكيافيللى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧ م) الذى يعتبر كتابه الأمير خلاصة فلسفة الاستبداد وقتذاك والذى قام على مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة كذلك كان للتقدم الذى أحرزه الانسان فى ميدان العلم

والاختراع أثره فى القضاء على الأسس التى قامت عليها العصور الوسطى المبكرة وتهيئة الجو لعصر جديد مغاير · اذ تم اكتشاف الدورة الدموية وتشريح جسم الانسان والحيوان والنبات·كما اخترعت البوصلة التى تم استخدامها فى الملاحة والتلسكوب أيضا·وظهرت النظريات الفلكية مثل نظرية جاليليو الذى أثبت أن الأرض ماهى الا أحد الأجرام السماوية · واخترعت الطباعة والورق وظهرت الكتب تحمل الى النـــاس العلم والمعرفة · كما اخترع المدفع والبارود ، وكان لهما أثرهما فى دك آخر معاقل وحصون رجال الاقطاع فى الغرب ·

ويجب ألا يغرب عن البال أن رجال العلم والاختـراع ، شأنهم شأن رجال الفن والأدب والفكر والسياسة والتاريخ ، لقـوا كثيرا من المضايقات والاضطهاد من المتزمتين من رجـال الدين · ولكن هـذا لم يكن ليوقف عجلة الزمن عن السير فى طريقها ، بعد أن بدأ أفـق الانسان الضيق المحدد يتسع تدريجيا ، وبعد أن انطلق هذا الانسان من الدائرة المغلقة التى وضعته فيها الكنيسة الى مجالات رحبة واسعة ·

وفى نهاية العصور الوسطى تظهر كذلك شخصية الفـرد التى لم يكن لها وجود فى عصر الاقطاع الا فى صلب الطبقات المختلفة التى ينتمى اليها الفرد · وهكذا نجد أن مبدأ الفردية يظهر واضحا فى التاريخ الحديث ، بينما تقول العصور الوسطى ان الفرد اما سيد أو مسـود ، تابع أو متبوع ، له مكانه فى السلم الاقطاعى تبعا لما يرتبط به من سعة الاقطاع ·

كذلك بدأت حركات الاصـلاح الدينى التى أخذت تنادى باصلاح الجهاز الكنسى البابوى بعد أن استشرى فيه الفساد · وأصبح الرجل العادى يجرؤ على مساجلة المذهب الكاثوليكى الذى ساد العصـــور

الوسطى ، والذى كان الخروج عليه يعتبر هرطقة لها آثارها المفجعة من حيث الحكم باعدام المهرطق حرقا بالنار · وكلنا يعرف محاكم التفتيش والدور الخطير الذى قامت به فى أخريات العصر الوسيط بالنسبة لمن تحوم حوله شبهة الهرطقة · وكانت النتيجة هى قيام حركات الاصلاح الدينى مثل حركة يوحنا ويكلف الانجليزى وحركة يوحنا هس البوهيمى فى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر · وكذلك قيام المذاعب المسيحية الحديثة ، وأهمها المذهب البروتستانتى أو المعارض فى القرن السادس عشر ، والذى انتشر منذ قيام مارتين لوثر بحركة فى دول متعددة فى غرب اوروبا · وكانت النتيجة اضمحلال الكنيسة اللاتينية وزوال هيبتها وقدسيتها وانفضاض الناس من حولها·

كذلك شاهد القرن الخامس عشر بالذات من الحوادث السياسية البالغة الأهمية والتى كان لها أثرها فى مجرى التاريخ ، عددا كبيرا · ولعل أهمها أثرا وخطرا دخول الأتراك العثمانيين فى اوروبا كعنصر غريب عليها من حيث الجنس والدين،واستيلائهم على مدينة القسطنطينية بصفة نهائية سنة ١٤٥٣ م · وبسقوط تلك المدينة التى تتمثل فيها تقاليد وفلسفة وأفكار ومثل العصور الوسطى ، يتهدم آخر صرح من مؤسسات التاريخ الوسيط بصفة عامة والدولة البيزنطية بصفة خاصة كذلك تنتهى فى نفس هذا الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، التى تعتبر هى الأخرى من مميزات العصور الوسطى وخصائصها العامة· بمعنى أن هذه الأحداث السياسية كانت تعنى زوال عصر وبداية عصر جديد ·

وفى نفس هذا الوقت نجد أن قيام الممالك الحديثة المستقلة يأخذ اتجاها آخر غير الاتجاه الذى كانت تخضع له تلك الممالك ولو نظرنا فى العصور الوسطى الى سلطان الامبراطور من الناحية الزمنية

والى سلطان البابوية من الناحية الدينية · ولكن هذه الوحدة تضعف فى أخريات العصر الوسيط نتيجة لظروف وعوامل عديدة متعددة · اذ أخذت الشعوب يأتلف كل شعب منها على حدة حول حاكمه مطلقين فى ذلك الاعتبارات العالمية العتيقة التى تتعلق بنظم اوروبا فى العصور الوسطى ، وبمبدأ عالمية الكنيسة اللاتينية · وبدأت الآداب القومية تظهر بلغت تلك الدول الخاصة بدلا من حصرها فى اللاتينية ·

كذلك قامت فى أواخر العصر الوسيط الجامعات التى أصبحت فى عصرنا الحالى أساس التعليم العالى · ومنها تخرج الشباب المثقف المستنير · فقد بزعت شمسها مبكرا فى القرن الثانى عشر ونهضته العلمية المعروفة بالنهضة العلمية الأولى أدت الى احتكاك الفكر الانسانى بين عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين وقتذاك من أمثال الفيلسوف بطرس ابيلارد والقديس برنارد أوف كليرفو · فهذه الجامعات هى التى حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير أذهان الناس وزيادة عدد المثقفين · وخرج من بين جدرانها الكثير من العلماء الذين أخذوا ينادون بالاصلاح الشامل فى النظم والتعاليم الوسيطة ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه من القيود البالية المتزمتة مما هيأ الجو لهذا التغيير الكبير الذى شهدته اوروبا فى أخريات العصر الوسيط ·

كذلك قدمت العصور الوسطى المتأخرة ثمرة كبيرة للتاريخ والانسانية فيما نجده فى انجلترا من نمو وتطور النظم الدستورية بها التى كانت وليدة الكفاح المستمر بين الملك وشعبه · فلقد كان الدستور الانجليزى الذى يعتبر أساس كثير من الدساتير الحديثة ، وليد الكفاح الطويل الذى حدث بين طبقات الأمة والملكية فى انجلترا ، والذى بدأت بذوره تظهر بوضوح خلال القرن الثالث عشر فى وقت بدأت فيه المفاهيم والمعايير القديمة تتخلخل لتحل محلها أفكار ومبادىء جديدة ·

وطبيعى أن قيام الشعوب فى وجه ملوكها الطغاة المستبدين ، ومطالبتها فى اصرار بحقوقها المغتصبة ، كان خطوة هامة فى سبيل هدم الأسس التى قام عليها العصر الوسيط المبكر فى الحكم والسيادة ٠

واستنادا على كل ما سبق ، يمكن تلخيص النظريات التى قامت حول نهاية العصور الوسطى الأوروبية وبداية التاريخ الحديث ، فيما يـــــلى :

النظريـــة الأولى :

تدور هذه النظرية حول الشاعر الايطالى دانتى اليجيرى والكوميديا الالهية ٠ اذ اعتبـر بعض المؤرخين أن حياة دانتى وكتاباتــه باللغــة الايطالية المعاصرة له بدلا من اللاتينية ، والتى لخص فيها أهم ما وصل اليه فى التاريخ الوسيط ، والتى بذر فيها أيضا بذور الفكر الحديث فى القرن الرابع عشر ـ اعتبرها بعض المؤرخـين نهـــاية للعصــر الوسيط وبداية لحركة النهضة العلمية التى استمرت فى القرن الخامس عشر وبلغت ذروتها فى القرن الســادس عشر ٠ وعلى هذا يكـون فى رأيهم أن القرن الرابع عشر هو نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحـــديث ٠

النظريـــة الثانية :

تدور هذه النظرية حول الاصـلاح الدينى الذى بدأ فى القـرن الرابع عشر ٠ اذ قامت كثير من الحركات تنادى بالخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية التى كان قد دب فيها الفساد ، واصلاح الجهـــاز البابوى بعد أن تدهورت البابوية وبعد البابوات بنفسهم عن التعــاليم الأولى للمسيحية ٠ ومن أهم هذه الحركات الحركة اللولاردية الانجليزية التى قامت للاحتجاج على كـل ما أخرجتـه الكنيسة والبابويـة فى العصر الوسيط من نظم وتعاليم ، والتى تزعمها العالم اللاهوتى المعروف يوحنا ويكلف (١٣٢٤ ـ ١٣٨٤ م) ٠ وكذلك حركة زميله يوحنا هس

(١٣٦٩ ـ ١٤١٦ م) فى بوهيميا وشرق اوروبا وقد استمر نشاط الهسيين حتى قيام ثورة مارتن لوثر البرتستانتية فى القرن السادس عشر ، تلك الثورة التى افقدت البابوية سلطتها وهيبتها والكثير من أتباعها فى أجزاء عديدة من اوروبا بعد اعتناق الكثير من الكاثوليك لمبادئها ، وبخاصة فى انجلترا والمانيا ٠

النظريـــة الثالثة :

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن سنة ١٤٥٣ م هى التى تحدد نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة لسببين هامين : اذ انتهت فى تلك السنة حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، تلك الحرب التى امتلأ بها العصر الوسيط واعتبـرت من مظاهره ومميزاتـه الخاصـة كالعدوان الصليبى على العالم العربى ، وغير ذلك من الأنظمة والحركات الاجتماعية والدينية مثل الرهبنة والديرية والاقطاع والفروسية ٠ أما الحدث التانى الذى وقع فى تلك السنة فهو سقوط القسطنطينية فى قبضة الاتراك العثمانيين ، وبسقوطها ينهار آخر صرح من مؤسسات الدولة البيزنطبة التى تمثلت فيها نظم وتقاليد وفلسفة وأفكار العصور الوسطى ٠ وبذلك ينتقل العالم الأوروبى من تقاليـد العصر الوسيط الى أوضاع جديدة ٠

النظرية الرابعـــة :

تدور هذه النظرية حول حركة الاستكشافـات الجغرافيـة فى أخريات القرن الخـامس عشر ٠ وأصحابهـا يرون أن سنـة ١٤٩٢ م تحدد نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث باعتبارها السنة التى اكتشف فيها خريستوف كولومبس أمريكا ٠ وفى نفس هذه السنة يقع حادث هام فى تاريخ الغرب الأوربى ، وهو استيلاء اللاتين الغربيين على مملكة غرناطة من الخلفاء المسلمين وحدث بعد ذلك بست سنوات

أن تمكن فاسودى جاما من اكتشاف طريق رأس الرجاءالصالحوالالتفاف حول طرف افريقية الجنوبى فى طريقه الى الهند·وكان لهذا آثاره الخطيرة فى التاريخ والاقتصاد العالمى · اذ ان اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجارى الجديد من ناحية افريقية ادى الى انزعاج المماليك فى مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة · وقد قاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم·ولكنهم فشلوا فى ذلك اذ كان الزمام قد أفلت من أيديهم بعد أن انتقلت الثروة الى المحيط الغربى وأممه · وكان لهذا أثره الضخم ، فبينما ضعفت دولة المماليك بمصر وجدت الفرصة أمام الأغنياء والتجار من أهل ايطاليا لتشجيع العلوم والآداب والفنون · مثال ذلك شخص مثل لورنسو العظيم الذى كان يقيم المآدب والحفلات الشعبية ويجمع المخطوطات ويشجع العلماء والأدباء والفنانين · كل هذا عجل بزوال العصر الوسيط وبداية عصر النهضة فى الغرب الأوروبى ·

النظرية الخامسة :

هذا ويرى فريق من المؤرخين أن حركة النهضة العلمية التى شملت الغرب فى أخريات العصر الوسيط عندما خرج الناس على تعاليم الكنيسة وأوامرها ، ورجعوا الى التراث اليونانى والرومانى القديم فى الأدب والفن والفكر ، هى التى تحدد نهاية الوسيط وبداية الحديث · وقد قامت هذه النهضة مبكرا منذ القرن الرابع عشر واستمرت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ·

النظرية السادسة :

وأحدث هذه النظريات هى تلك التى نادى بها المؤرخ جوفرى باراكلاف G. Barraclough ، اذ قال ان العصور الوسطى تمتد حتى القرن السابع عشر وبنهايتها يبدأ العصر الحديث · وعلى هذا فليس

هناك ما يسمى بعنصر النهضة الذى يعتبر بمثابة خاتمة الحقبة الوسيطة من التاريخ .

وكيفما كان الأمر ، فان التغييرات الهائلة التى أشرنا اليها والتى أدت الى الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث ، انما كانت مثل التغييرات بين القديم والوسيط ، بمعنى أنها كانت عبارة عن عملية تطور بطيء مستمر لا يشمل حادثة معينة أو واقعة بالذات فحسب ، بل يشمل جميع الحوادث والوقائع التى أسلفنا اليها ، والتى تدور بصفة خاصة حول القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، والتى يبدأ بها عصر جديد له نظمه وحضارته التى تختلف عما كان سائدا من قبل .

ولعلنا نستنتج مما تقدم أنه مهما كان اختلاف المؤرخين حول النقطة التى تبدأ منها العصور الوسطى الاوروبية وتلك التى تنتهى فيها ، الا أنها من الناحية التقليدية الشكلية ، وللاعتبارات التى أسلفنا اليها ، تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر ، وان كانت الأسباب والعوامل التى مهدت لها وتلك التى أدت الى زوالها تسبق فى الواقع قيامها وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة .

الموضـوع الثـالث

أهم المميزات والخصائص العامة للعصور الوسطى الأوروبية

كان كثير من المؤرخين الى عهد قريب يظنون أن العصور الوسطى التى شغلت زهاء عشرة قرون ، والتى تبدأ من القرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر ، هى عصور ظلام وجمود وبرودة وخمول ليس فيها من نور العلم والمعرفة والمدنية والحضارة شيء يذكر ، وليس فيها أى خير للانسانية . ففى نظر هذا الفريق كان انهيار الدولة الرومانية بما كانت تمثله من النظام والحضارة وقيام الدول الجرمانية المتبربرة على أنقاضها ، بمثابة انهيار المدنية وبداية البربرية فى التاريخ الأوروبى . ونرى مؤرخا مثل ادوارد جيبون يقول فى مؤلفه الكبير « تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام والحضارة . ويقصد بذلك تغلب الجرمان والمسيحية على الجهاز الرومانى العتيق فى النظم والحضارة ويأخذ بهذا الرأى المؤرخ و . ب . كير W. P. Ker فى مؤلفه « العصور المظلمة » ، وكثير من الكتاب الغربيين .

ولقد أظهرت أحدث البحوث التاريخية أن العصور الوسطى لم تكن غارقة فى الفوضى والظلام بقدر ماتصور البعض فهى لم تخل من مدنية وسيطة متوسطة الشأن خاصة بها ، لها صفاتها ومميزاتها وشخصيتها ، على الرغم من أنها لم تصل الى مستوى المدنية الرومانية العظيمة فى التاريخ القديم والمدنية الزاهرة المرتبطة بالتاريخ الحديث .

كانت حضارة العصور الوسطى نتيجة طبيعية للظروف التى أحاطت بالانسان فى أوقات الاضطراب والأزمات التى تصحب عادة فترات التغير والانتقال فى المراحل التاريخية الهامة ، وذلك عندما انهارت الدولة الرومانية القديمة أمام سيل البرابرة الجارف المتحدر داخل حدودها بحثا عن مكان أمين يقيمون فيه . ومن الخطأ القول بأن

تلك الأمم المتبربرة لم يكن لها نظم أو تقاليد دستورية قبل استقرارها في الغرب الأوروبى • فقد استندت قواعد العالم الوسيط الى حد بعيد على كثير مما كان قائما بين القبائل الجرمانية ، مع الأخذ بنصيب من حضارة روما القديمة وتكييفها بالشكل الذى يلائم الظروف والأوضاع الجديدة التى ألمت بالغرب فى فترة الانتقال من القديم الى الوسيط •

وتكشف النظريات العديدة التى أثيرت حول بداية العصور الوسطى ، أن تلك العصور ترتكز على دعامتين أساسيتين هما : الدين والحرب • أما الدين فقد أوحت به منذ البداية المسيحية التى اعتبرت الدين الرسمى للدولة فى اوروبا ، والأساس الأول للحياة والفكر خلال قرون عديدة • وغير خاف أن هذا العصر يعتبر فى الغرب اللاتينى عصر تسلط الكنيسة الرومانية اللاتينية على الشعب ومقدراته وعلى ارادته وتفكيره وعلى حياته الخاصة والعامة ، واعتبار كل من يخرج على أوامرها ونواهيها مهرطقاً يوقع عليه أشد العقاب • وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها ضد معارضيها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع • لقد ارتبطت تلك الكنيسة بمصائر الأفراد وبحياتهم ، وصبغت تلك الحياة بصبغة معينة يبدو أثرها بوضوح فى جميع نواحى النظم والحضارة الوسيطة •

هذا عن فكرة الدين . أما فكرة الحرب فلا يمكن فصلها هى الأخرى عن أى حركة من حركات العالم الوسيط • فهى تتعلق أساسا بالجرمان وغزواتهم وبالفروسية والاقطاع الذى يتصل بدوره بالارض اتصالا مباشرا ، وعلى أساسه انقسم المجتمع الغربى الوسيط أفقيا الى مختلف فئاته وطبقاته وطوائفه • ففى أسفل السلم نجد الفلاحين والأقنان وعبيد الأرض يكدحون ولكنهم محرومون من كل شيء ، وفى أعلاه نجد الأشراف والملوك والأباطرة والبابوات وغيرهم من سادة

المجتمع الاقطاعى ينعمون بكل شىء دون جهد أو عناء · والفرد فى ظل هذا النظام الطبقى الاقطاعى اما سيد أو مسود ، تابع أو متبوع ، تنمحى شخصيته تماما لتذوب فى صلب الطبقة التى ينتمى اليها ·

والذى يهمنا أن هاتين الفكرتين لا يمكن فصلهما بحـال عن أى حركة من حركات العالم الوسيط وأنظمته وحضارته ·وقد انتج المزج بينهما عددا من الحركات نذكر منها على سبيل التمثيل الفروسيـة التى كانت عبارة عن نظام دينى وحربى معاً ، وكذلك العدوان الصليبى على العالم العربى الذى كان نتيجة العقلية المتزمتة والتعصب الدينـى الذى تميزت به اوروبا ، والجماعات الرهبانية العسكرية ، كالداوية والاسبتارية والتيوتونية ، التى كانت من نتاج الحـروب الصليبية ، فأوجدت رجالا يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون على ظهور الخيـل فى نفس الوقت ·

واذا كانت العصور الوسطى بأنظمتها وحضارتها قد ارتبطـت بفكرتى الدين والحرب ، فقد ارتبطت أيضا بفكرة أخرى هى أن العالم المسيحى الغربى كان عبـارة عن وحدة كبرى فى مجمـوعه يحكمه الامبراطور من الناحية الزمنية والبابا من الناحية الروحية · وهـذه الوحدة لها كنيسة واحدة متغلغلة فى كيان الأمم والشعوب والطبقات هى كنيسة روما الكاثوليكية ، ولها لغة رسمية واحـدة هى اللغـة اللاتينية ، ولها عاصمة روحية واحدة هى روما · ولها حضارة واحدة هى تلك التى ترتبط باللغة اللاتينية ، وقد مرت جميعها بنفس الظروف والمؤاثرات التاريخية · كل هذا جمع بين تلك الأمم فى وحدة واحدة تشمل اوروبا من أقصاها الى أقصاها أساسها الاقطاع ·

كما أن من أهم مميزات العصور الوسطى الأوروبية هى الديانة المسيحية التى جاءت كرد فعل للتاريخ القـديم وديانته الوثنية التى

كانت تدعو الى الحرية والانطلاق بحكم تعدد الآلهة · اذ كانت تدعو الى التمتع بالحياة في شتى صورها ومظاهرها · وجاءت المسيحية لتقول أن هذه الحياة الدنيا عبارة عن مطية زائلة الى الدار الثانية ، دار الخلد والنعيم المقيم ، وانه يجب على الفرد أن يعيش على الصلاة والتبتل والتقشف وأن يبتعد عن مباهج الحياة وملذاتها ، وعلى هذا نرى أن الديانة المسيحية قد صبغت الحياة والفكر في القرون الوسطى بصبغة خاصة تركت أثرها في مختلف نواحي النظام والحضارة · ذلك أن النظرة المحدودة الضيقة للأمور في نطاق هذا الدين وفلسفته والكنيسة اللاتينية وتعاليمها ، والتي كان الفرد أسيرها مئات السنين ، جعلت الناس يغطون في نوم عميق وجعلتهم لا يفكرون في استنباط قوانين الطبيعة وأماتت فيهم الأصالة وروح الخلق والابداع · ولم يحاولوا نتيجة لذلك التقدم في الآداب والعلوم والفنون واللغة التي أصابها التدهور هي الأخرى ، واستعوزتهم القدرة على استخلاص مافي الطبيعة من ثروات معدنية وزراعية · وحرمت عليهم الاتجار ومايترتب عليه من مكاسب وأرباح تعتبر في نظرها اثما وخطيئة مميتة · وكان أن شغل الناس أغلب حياتهم بالكفاح من أجل كسب القوت اليومي فحسب ، وكفاهم في ذلك الكفاف من العيش ·

لقد وجدت نتيجة لذلك موجة عارمة من الجمود والخمول والاستكانة · ولكن هذا الوضع أوجد مع مرور الزمن شعورا متزايدا بالسخط والتذمر والملل ، وحالة واضحة من الضغط والكبت والحرمان· وهذا أدى بدوره الى الغليان والانفجار ، وهما من أهم عوامل التغيير في الانسان والمجتمع · اذ ظهر الفكر الحر ، ونهضة القرن الثاني عشر المعروفة ، وحركات الاصلاح الكنسي التي نادت باصلاح الجهاز الكنسي البابوي من الفساد الذي استشرى فيه · وكان كل هذا ايذانا بزوال

العصور الوسطى بمثلها وفلسفتها وأفكارها ، وظهور عصر جديد يقوم على أسس ومبادىء جديدة مغايرة ، ونعنى بذلك عصر النهضة الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة ·

وان ماذكرناه لا يعنى أن العصور الوسطى كانت خالية تماما من التجديد والابداع فى كثير من الشئون والفنون والتفكير والأنظمة · مثال ذلك نهضة القرن الثانى عشر ، ونشأة الجامعات ، والدستور الانجليزى ، وما الى ذلك من الأنظمة التى أسلفنا الاشارة اليها · وهناك كذلك الفن القوطى الذى لا زالت آثاره باقية الى اليوم فى كثير من الكنائس الكبرى والحصون والقلاع والأماكن العامة فى معظم مدن اوروبا ، ذلك الفن الذى يعتبر من أروع ما ابتدعه العقل الوسيط ·

وان نسينا فلا ينبغى أن ننسى النشاط الخارجى الذى قام فى الغرب الأوروبى عقب العدوان الصليبى على العالم العربى ، هذا النشاط الذى أدى الى انتعاش التجارة فى الغرب والى الرخاء فى كثير من المدن والدويلات الواقعة بصفة خاصة فى جنوب اوروبا · وقد تبعه الثراء الذى قام على أساسه النشاط الذهنى وتقدم الفكر البشرى ، كنتيجة مباشرة لاحتكاك الغربيين بالحضارة العربية العظيمة فى مصر والشرق والأدنى · وكانوا قد اتصلوا قبل ذلك بالعرب وأفادوا منهم فى المراكز العربية الثلاثة فى الأندلس وجنوب ايطاليا وصقلية · وكانت النتيجة أن تفجرت ينابيع الاصلاح فيما يعرف بالنهضة العلمية، فى الجمهوريات الايطالية مثل جنوه وبيزا والبندقية ، وفى فرنسا وغيرها من دول أوروبا ــ تلك النهضة التى يختتم بها العصر الوسيط ويبدأ العصر الحديث ·

الموضوع الرابع

سقوط الامبراطورية الرومانية وأسبابه

عندما نتحدث عن سقوط الدولة الرومانية ، نقصـــد بطبيعة الحال غزوات الجرمان البرابرة لأنها كانت الســـبب المبـاشر لهذا السقوط • ولا خلاف أنه كانت توجد أسباب أخرى عديدة متشـابكة دعت الى انهيار هذه الامبراطـورية ؛ وبعض هذه الأســـباب داخلية وبعضها أسباب خارجية،كما أن هناك أسباب حقيقية غير مباشرة ترجع الى أقدم الأزمنة،وأخرى مباشرة وهى التى أدت مباشرة الىسقوط الدولة وعلى هذا فعوامل سقوطها متشعبة كثيرة • ولايمكن فى صـدد الحديث عنها القول بأن الدولة الرومانية قد سقطت بسبب تدهورها وانحلالها• فهذا التدهور وذلك الانحلال كلمتان مرنتان لايمكن تحديدهما • ومن هنا جاء الاهتمام بهما عند التحدث عن القرون الوسطى ، باعتبار أنه بسقوط الامبراطورية الرومانية ينتهى التاريخ القـديم ويبدأ العصر الوسيط •

ويمكن تلخيص أهم الأســـباب التى أدت الى هذا التـــدهور والسقوط فى النقاط التالية التى تعتبـــر المدخل الطبيعى للعصـــر الوسيط •

أولا ـ التفكـــك الادارى :

كانت الامبراطورية الرومانية بعد اتساعها تتكون من عدد من المقاطعات تمتعت كل مقاطعة منها بنوع مخالف من الادارة والنظـــم ، وقد أدى هذا الى تفكيكها آخر الأمر • كما أدى نظام الحكم الثنـــائى الذى نادى به الامبراطور اوغسطس والذى اقتسم بمقتضـــاه مجلس السناتو السلطة مع الامبراطور ، الى زيادة الحالة سوءا• وكان هـــذا مما ساعد على التعجيل بزوال الامبراطورية •

ثانيا ـ الفوضى المالية :

كذلك أصاب الخلل الجهاز المـــالى فى تلك الدولة المتـــرامية الأطراف فى أخريات عهدها • فكـانت الضريبة باهظـــة متباينة غير

منظمة • ولم تكن الثروة موزعة توزيعا عادلا ، فوجد الكثير من أصحاب الملايين المتنعمين ، بينما هناك مقاطعات بأكملها غارقة فى الفقر • فضلا عن التدهور التدريجي المستمر فى قيمة العملة المستعملة ، والذى بدا واضحا فى أيام دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث وقد عمل على تثبيت العملة ، ولكن محاولاته لم تصادف النجاح المأمول • وفشل فى ارجاع قيمتها الى ماكانت عليه أيام اوغسطس • كما أدى اسرافه فى محاولاته اصدار عملة خالصة العيار الى ارتفاع الأسعار • ولمواجهة هذا الموقف أصدر عام ٣٠١م قانونه المشهور الذى يحدد ثمن كل سلعة على حدة • ولم يصادف هذا القانون هو الآخر أى نجاح • وترك لخلفه قسطنطين الكبير مهمة وضع العملة الامبراطورية على أساس ثابت • والشيء الهام أن الحالة الاقتصادية المتدهورة كانت لها آثارها فى انهيار الدولة الرومانية وبداية التاريخ الوسيط •

ثالثا — تمركز القوة الحقيقية للدولة فى أيدى العناصر الجرمانية :

لم يكن بوسع روما الاستغناء عن كتائبها من المرتزقة التى استخدمتها لحماية حدودها الطويلة على طول نهرى الدانوب والراين ، والعمل على اخماد الثورات المناوئة للحكم • وكانت هذه الكتائب والحاميات تتألف من الجند الجرمان المرتزقة • وكان من الممكن ألا تثير هذه القوات أية متاعب لو كانت هناك حكومة مركزية قوية وقاعدة ثابتة فى النظام الوراثى للامبراطورية فى فترة تدهورها وانحلالها • لذلك أصبحت هذه القوات مصدر خطر دائم ، وجعلت اتحاد الامبراطورية فى وحدة قوية واحدة كما كان الحال من قبل أمرا غير واقع وغير عملى • وزاد منذ القرن الثالث الميلادى عدد القواد الطموحين المتكالبين على العرش ، وكان معظمهم من العناصر الجرمانية • ووصل الكثيرون منهم الى أرقى المناصب فى الدولة •

رابعا ـ الأخطار التى هددت حدود الامبراطورية :

وتتمثل هذه الأخطار فى الساسان الفرس والبرابرة الجرمان ، الذين أخذ ضغطهم يتزايد على حدود الامبراطورية · ذلك أنه ظهرت فى أوائل القرن الثالث أسرة الساسانيين الوثنيين ، وكانت من ألد أعداء روما طيلة أربعة قرون من الزمان · وألحقت الهزيمة بعدد من أباطرتها على الحدود الآسيوية · ولم تكن الحدود الأوروبية بأحسن حالا بسبب انتشار القبائل الجرمانية فيما وراء الدانوب والراين · وكانت تدفع هذه القبائل عناصر أخرى أشد بربرية منها الى عبور النهر والاستقرار فى جوف الامبراطورية · وقد تزايدت هجمات البرابرة على الحدود الشرقية والشمالية ، وبخاصة فى عهد كل من كلوديوس Claudius وفاليريان Valerian · ولم يعد بوسع روما الواقعة فى منتصف البروز الايطالى نجدة حدودها البعيدة على الدانوب والفرات · وهذا يعنى أنها لم تعد تفى بمقتضيات العصر ومتطلباته ·

خامسا ـ انحطاط الزراعة والتجارة والصناعة :

وصاحب ماتقدم انحطاط الزراعة فى ايطاليا · اذ انصرف الرومان عن زراعة الأرض التى تركوها للرقيق الذين قل عددهم فى أخريات الدولة الرومانية بسبب القسوة فى المعاملة وكثرة الأوبئة والمجاعات وازدياد الضرائب · وكسدت أيضا التجارة والصناعة ، وأهملت الطرق الرومانية الشهيرة ، فعم البؤس فى البلاد ، وتدهورت الحياة الاقتصادية الى حد بعيد · وبات واضحا للعيان أن مصير الرومان وقوتهم ودولتهم الى الزوال ·

سادسا ـ انغماس الرومان فى حياة الترف والملذات :

لقد انغمست الطبقة الحاكمة فى أواخر عهد الرومان فى اللهو والترف ، وأصبحت تهتم بنعيم الحياة ، وتركت مقاليد الأمور فى

البلاد فى أيدى الجرمان الذين تغلغلوا فى أجهزة الدولة حتى وصلوا الى أعلى المناصب فيها ، وأصبحوا قوة لايستهان بها . كما كانوا على معرفة بمواطن الضعف فى البلاد . وتمكنوا فى كثير من الأحيان من قلب الأباطرة ، ووصل بعضهم الى الكرسى الامبراطورى ، وهكذا عندما واتتهم الفرصة لم يتركوها .

سابعا ـ الاختلافات الحضارية واللغوية والمذهبية بين شقى الامبراطورية :

كانت الامبراطورية الرومانية تنقسم الى قسمين متباينين : القسم الغربى وقد سادت فيه اللغة والثقافة اللاتينية ، والقسم الشرقى وكان يتكلم اليونانية بحكم موقعه الجغرافى . وان كان هذا الشقاق ظاهريا فى أول الأمر عندما كانت الحكومة قوية ، الا أنه سرعان ما تفاقم خطره حتى أصبح مع الزمن حقيقة واقعة . فاصطبغت حضارة الشرق بصبغة هللينية بحتة ، بينما انطبعت حضارة الغرب بطابع لاتينى خالص . واختلفت العادات والتقاليد فى القسمين اختلافا واضحا ، ولم يعد كل منهما يفهم الآخر تمام الفهم . والى جانب هذه الحواجز اللغوية والحضارية وجدت أيضا الاختلافات المذهبية التى كان لها أسوأ الأثر على العالم الرومانى ووحدته المعروفة باسم « السلم الرومانى » Pax Romana

ثامنا ـ اقتباس روما والغرب من الديانات الشرقية :

وازاء هذه الأزمات المتتابعة التى ألمت بالعالم الرومانى فى قرونه الأخيرة ، وبخاصة فى الجزء الغربى منه ، فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التجأ الناس الى الناحية الدينية كمهرب من تلك التقلبات ، فى وقت كانت فيه عبادة الامبراطور هى الأخرى آخذه فى التدهور التدريجى فى روما بعد كل ماأصاب الدولة من انهيار

ملموس فى شتى المجالات • وكان الخلاص آتيا من الشرق مهبط الوحى والأديان ومهد الفلسفات واللاهوتيات • فقد انتقلت كثير من الديانات الشرقية مثل عبادة ايزيس وسيرابيس وابولو أو الشمس ومثرى والفلسفات الايرانية الى الغرب منذ اتصال روما بالشرق • وكان أتباعها هناك فى ازدياد • كما أخذت تجتذب اليها المثقفين والمحاربين ورجال الأعمال • لكل هذه الأسباب كان الشرق بحضارته وفلسفته ودياناته وأفكاره يصادف هوى فى نفوس أهل الغرب فى هذه الفترة المضطربة من تاريخهم • كل هذا جعل الناس ينفضون من حول الديانة القديمة ، ونعنى بها عبادة الامبراطور التى كانت تعتبر من أكبر دعائم التاريخ الرومانى • وبتدهورها تسير الامبراطورية هى الأخرى سريعا نحو الضعف والانحلال •

تاسعا ـ اهمال روما فى الفترة الأخيرة من حكم الرومان :

ظلت روما عاصمة العالم الرومانى القديم ورمزا لوحدته فترة طويلة من الزمن • ولكنها أخذت تفقد أهميتها ، وبدأ الأباطرة يهملونها فى الفترة الأخيرة بعد أن أصبحت أسوأ مقر لاقامة الأباطرة • فمنهم من أقام على نهر الراين والدانوب مثل مكسيمينوس الأول Maximinus I أما دقلديانوس فقد اختار نيقوميديا Nicomedia مقرا له ، الى أن جاء قسطنطين وأسس القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع عند التقاء البسفور ببحر مرمرة لتكون مقرا للأباطرة أو تكون بمثابة روما جديدة • والواقع أننا اذا نظرنا الى روما نجد أنها تقع فى منتصف البروز الايطالى • وكانت جبال الألب تفصلها عن بقية أجزاء الامبراطورية ، فضلا عن موانيها الرديئة التى كانت تشل حركتها • ثم أنها أصبحت بعيدة عن المراكز التى كانت تدعو الى وجود الامبراطور فيها ، وأهمها شواطىء الدانوب لحمايتها من المتبربرين أو

الجهات الآسيوية للدفاع عنها ضد اعتداءات الفرس ٠ كل هذا جعل الأباطرة الرومان فى الفترة الأخيرة يقيمون فى مناطق أخرى فى القطاع الشرقى من الامبراطورية ٠

عاشرا ـ ظهور المسيحية واعتناق الرومان لها :

وكانت الديانة المسيحية هى أخطر منافس للعبادات القديمة ٠ وكان أول ظهورها فى الشرق ثم انتقلت الى الغرب الأوروبى ٠ ووجد فيها العالم الرومانى المتعب بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى هدت كيانه ، وجد فيها متنفسا له ، ورسالة أكثر ارضاء من الديانة الوثنية وعبادة الامبراطور اللتين كانا قد دب فيهما الانحلال والفساد ٠ فقد كانت غنية برموزها وطقوسها التى تدعو الى التصوف وتبشر بالأمل ، وكان الغرب أحوج مايكون الى هذه النواحى فى فترة تقلقل واضطراب ٠ وفعلا نجدها تجتذب اليها الطبقات الدنيا التى كانت تئن من الضرائب التى أثقلت كواهلها ٠ اذ نادت بأنه فى نظر الله يستوى السيد والمسود والعبد والامبراطور ٠ لذا كان من الطبيعى أن ترحب بها طبقة العبيد ٠ وقد كان من الممكن أن يترك الأباطرة الرومان الديانة الجديدة وشأنها ، لولا أنها تعرضت لديانة الدولة التى تتمثل فى عبادة الامبراطور ، تلك العبادة التى كانت رمزا لوحدة الامبراطورية الرومانية من ناحية ، ولسيطرة الامبراطور المطلقة من ناحية أخرى ٠ فقد كانت المسيحية تدعو الى وحدانية الله دون الأباطرة ٠ ولهذا اعتبروها دولة داخل الدولة ، وخطرا يهددهم ، وتهديدا مباشرا لوحدة الامبراطورية ٠ وقد حاولوا طمس معالمها واضطهدوا أتباعها وبخاصة فى القرون الأولى للمسيحية أيام نيرون ودقلديانوس ٠ ولكن الأباطرة اضطروا الى الاعتراف بها آخر الأمر ، وذلك بعد صراع عنيف بينها وبين الوثنية القديمة ٠ فكان هذا اعترافا

ضمنيا منهم بزوال السطوة التى كانوا يتمتعون بها فيما مضى ، وتفكك الامبراطورية نفسها . ويفسر ذلك اتجاه الامبراطور قسطنطين الكبير فيما بعد الى الشرق وتأسيسه القسطنطينية واعترافه الرسمى بالمسيحية وكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة والامبراطور نفسه باعتباره الرئيس الدينى الأعلى لها .

حادي عشر ـ استيلاء روما على ثقافات وحضارات أخنى عليها الدهر :

لقد قامت الامبراطورية الرومانية على أساس الاستيلاء على مدنيات وحكومات وبلاد أقدم عهدا وحضارة منها . فأصبحت الامبراطورية ، بالرغم من أن فيها نظاما موحدا مركزيا فى روما ، تتألف من خليط عجيب من الأجناس والثقافات والمدنيات المحلية التى كانت قد تدهورت قبل أن تصل اليها يد الرومان ، مثل مدنيات فينقية وآسيا الصغرى وقرطاجنة والمدنية الهللينية . وهذا يعنى أن التخلخل وعدم التماسك كانا المظهر العام لتلك الامبراطورية ، وبخاصة فى عهدها الأخير بعد أن دب الفساد فى كل ناحية فيها .

ثاني عشر ـ عدم محاولة روما ادخال حضارتها فى البلاد التى غزتها :

وهذه النقطة تتصل بسابقتها ، وخلاصتها أن روما غزت فى الشمال والغرب عددا من البلاد والمقاطعات مثل غالة التى رفعتها الى مستوى حكومى منظم ، أى نظام المدينة الحرة ، بدلا من حكومة القبيلة البدائية التى كانت منتشرة بين أفرادها . ومع ذلك لم تحاول صبغ هذه المناطق بثقافتها الأدبية والاجتماعية ، فأصبحت هناك حالة من عدم التوازن بين المدنية الحكومية والحضارة المادية لتلك البلاد . وكانت على أتم استعداد متى حانت الفرصة المواتية لنسيان الرومان وتعاليمهم . وأوضح مثل لدينا الجزيرة البريطانية التى ظل فيها الرومان أربعة قرون ، ولكنها سرعان ماانسلخت عن الحكم الرومانى

بعد رحيل آخر حامية رومانية عنها • هـــذا ، بينما ظلت البلاد ذات المدنيات القديمة مثل اليونان متمسكة بثقافتهاالأدبية والمادية الأصلية ، ولم تربطها بروما أى رابطة قوية أكثر من رابطة الحكومة المركـزية • ولذلك جاء انفصالها عن الدولة الرومانية والمساهمة فى انهيارها أمرا طبيعيا متوقعا •

ثالث عشر : ـ الجرمان البرابرة وغزواتهم :

تتصل غزوات الجرمان البرابرة اتصالا وثيقا بسقوط الدولـــة الرومانية القديمة فى الغرب ، اذ كانت السبب المباشر لهذا السقوط • وغير خاف أنه كانت توجد عوامل أخرى عديدة متشابكة أدت مجتمعة الى انهيار العالم الرومانى تتلخص فى الأزمات العنيفة التى هدت كيانه وقوضت بنيانه اعتبارا من القرن الثالث الميـــلادى • اذ هدد الفساد شتى النواحى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية والعسكرية والفكرية • بينما عاث الجرمان البرابرة فسـادا على حدود الدانوب والراين ، وكثـرت اغاراتهم على تلك الحـــدود • وأخذوا ينهالون بجحافلهم الجرارة فى جوف الامبراطورية ليقضـــوا عليها ويقيموا على أنقاضها ممالك جديدة لهم فى الغـرب الأوروبى لها مقوماتها ومميزاتها وخصائصها التى تختلف عما كان سائـدا عنـــد الرومان القدماء • وعلى هذا يمكن القول بأن سقوط الدولة الرومانية يعتبر من الظواهر التى ترتبط إرتباطا مباشرا بغزوات المتبربرين لها • فغزوات البرابرة هى الحد الفاصـــل بين التاريخ القديم والتاريـخ الوسيط ، أو بكلمة أخرى بين الامبراطورية الرومانية العالميـة وبين قيام الحكومات المحلية المختلفة التى ظهرت فى غرب اوروبا فى غضون القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وقد ظلت عناصرها قائمة حتى نهاية العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر ، وفى بعض الأحيـان حتى يومنا هذا •

الخلاصـــــة :

هكذا تعرض العالم الرومانى اعتبارا من القرن الثالث لأزمـات عنيفة هدت كيانه وقوضت بنيانه • فهدد الفساد شتى النـواحى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسـياسية والثقـافية والدينيــة والعسكرية والفكرية ، وعاث الجــرمان البرابرة فسادا على حـدود الدانوب والراين ، وكثرت الاغارات على الحدود ، بينما أخذ الفرس الساسان يتقدمون فى الشرق • وفقدت روما معظم قوادها الأكفاء فى المعارك التى خاضتها ، ولم تعد الولايات التابعة لها تعتمد على حمـاية جيوش الامبراطورية لها ، بل على أهلها ، وانتخبت قوادها وحكامهـــا من بين أهلها دفاعا عن نفسها • وهكذا بات المجتمع الرومانى مهــددا بالتفكك والانهيار من الداخل والخارج ، مما كان له أكبر الأثـــر فى التفكير بنقل العاصمة من روما الغرب ، وانشاء عاصمة جـــديدة فى الشرق تكون بمثابة روما ثانية ونعنى بها القســـطنطينية • هــذا ، فى الوقت الذى انهال فيه البرابرة بجحـــافلهم الجرارة فى جـــوف الامبراطورية ، ليقضوا عليها ويقيموا على أنقاضها ممالك جديدة فى الغرب الأوروبى ، لها مقوماتها ومميزاتها وخصائصها التى تختلف عما كان سائدا عند الرومان القدماء •

الموضوع الخامس

الغزوات الجرمانيـــة

التعريف بتلك الغزوات وأسبابها :

أول نقطة هامة في موضوع البرابرة وغزواتهم يجب فهمها تماما ، هي أن اولئك القوم عندما قاموا بغزواتهم المعروفة فى أخريات التاريخ القديم لم يكن لهم سياسة مرسومة أو أغراض معينة وأهداف خاصة يسعون الى تحقيقها ، وذلك عندما تحركوا بجحافلهم الجرارة فيما وراء نهرى الدانوب والراين لهدم الامبراطورية الرومانية وتجزئتها فيما بينهم ، ولم يكونوا فى الواقع يحقدون على روما أو يكرهونها أو يغيرون منها • بمعنى أنه لم يكن للقبائل الجرمانية سياسة معينة عندما انهالت فى جوف الامبراطورية والاستقرار بداخلها • ولم تكن تقصد الاستيلاء على أراض جديدة من الدولة الرومانية ، كما لم تقم بتلك الحركات الأمامية لغرض الاستعمار ، وانما نزحت بكامل عددها وعددها وبرجالها ونسائها وأطفالها ومواشيها وممتلكاتها تنشد وطنا جديدا ، أملا فى التخلص من ذلك الضغط الشديد الذى جاء فى مؤخرتها من قبائل وأجناس أخرى أشد بوبرية منها مثل القبائل السلافية • وهذه القبائل نزحت بدورها من الشرق الى الغرب تحت تأثير ضغط آخر أكبر وأخطر وافد من آسيا • اذ كانت الأجناس المغولية التى ارتحلت من أواسط آسيا والشرق الأقصى تندفع من أوطانها الأصلية بحكم جفاف الأرض التى كانوا يعتمدون عليها فى أرزاقهم ومعاشهم فى الوقت الذى زاد فيه عددهم وكثر تناسلهم •

اذن لو ألقينا نظرة اجمالية عريضة على الموقف فى كل من اوروبا وآسيا وقتذاك ، لوجدنا أن هناك ثلاث حركات رئيسية تتلو الواحدة منها الأخرى • والحركة الأولى من هذه الأجناس المتبربرة هى الحركة الجرمانية التى كانت تتاخم الحدود الرومانية مباشرة ومن بينها القوط

وفيما وراءها كانت توجد حركة أخرى هي الحركة السلافية التى كانت تمتد من روسيا الى البحر الأسود تقريبا ، أى من الشمال الى البحر الأسود . والحركة الثالثة والأخيرة هي حركة المغول أو قبائل الهون التى كانت تسكن أواسط آسيا والشرق الأقصى .

ولم يكن ارتحال تلك الأجناس معناه أنهم زحفوا نحو الغرب والجنوب على غير هدى ، أو أنه لم يكن لهم أى علم بوجود الدولة الرومانية ومافيها من حضارة وتراث عظيم ورخاء هائل . وواقع الأمر أن المتبربرين كانوا على العكس من ذلك ، يعلمون تمام العلم حالة الدولة الرومانية في الفترة الأخيرة عن طريق استخدام أباطرة الرومان عددا كبيرا من الجند المرتزقة من الجرمان الذين كانوا يأتون طالبين العمل والرزق في الدولة الرومانية . وقد وصل بعضهم الى أعلى المراتب الحربية في قيادة الجيوش والكتائب الرومانية . وكان من نتائج مثل هذا الاتصال الوثيق بالدولة الرومانية ، أن فتح أعين القبائل الجرمانية ليس فقط الى ماتحويه الامبراطورية من تراث ورخاء وثروة ومدنية ، وانما هيأ لهم الفرصة لدراسة نقط الضعف والقوة في كيان تلك الامبراطورية . وبذلك عرفوا كيف يستغلون الظروف عندما انهالوا بجحافلهم داخل الحدود لاسيما وأن المدنية الرومانية بهرت أعينهم حتى أننا نجد أن بعض العناصر الجرمانية ، وبخاصة القوط والفرنجة ، عندما دخلت تلك الدولة في بادىء الأمر لاتقصد باى حال من الأحوال هدمها والقضاء عليها ، وانما كانت لديها رغبة حقيقية في أن تجد لها مكانا أمينا بين ظهرانيها لكى تتمتع بما فيها من خيرات ونظام وحضارة في ظل السلام الروماني المعروف باسم Pax Romana ومن أمثلة ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين في ايطاليا ، وكلوفيس أول ملوك الفرنجة في غالة .

وهناك ملاحظة أخرى وهي تعقد تاريخ هذا العصر . ذلــك أن تاريخ غزوات البرابرة يتميز بظاهرة التعقد والاضطراب . فلا يستطيع أى مؤرخ مهما أوتى من القدرة أن يسرد ذلك التاريخ سردا منتظمـــا واضحا دقيقا ليس فيه أى اضطـراب . وكل سرد لهذا التـــاريخ على أساس الانتظام التام يكون غير طبيعى ، لأن العصر داته كان مضطرباً ومعقدا ، بحيث لا يستطيع الكاتب فيه أن يلمس سياسه واضحة ثابتة فضلا عن قلة أصوله ومصادره // فنجد أن القبائل المتبربرة تتحرك من مكان الى آخر وهى تكتسح أمامها المدن والقرى ، ولايكاد يستقر بهـــا المقام فى مكان معين ، حتى أن الرجل الذى عاش فى القـــرن الخامس يصبح وهو لايدرى ماذا يكن له الغد من نكبات أو نقلبات . هـــذا ، بينما نجد أن القائمين على الامبراطورية نفسها لا يستطيعون الدفاع عن الشعوب الخاضعة لهم بعد أن دب الفساد فى جيوشهم ، وبعد انصراف الشعب الرومانى نفسه الى الترف واللهو والملذات . وكان أن تدهورت التعاليم الرومانية القديمة التى كانت مصدر قوة تلك الامبراطورية ، فأصبحوا هدفا سهلا لتلك الأجناس المتبربرة ، وأصبحت أراضيهـــم ومدنهم لقمة سائغة فى أفواه تلك الأجناس وهى تكتسح أمامهـا كل شىء دون أن تجد أى مقاومة تذكر . وثمة ظاهرة أخرى من ظواهـــر التعقيد فى تاريخ هذه الممالك المتبربرة ، وهى التباين فى الفـــروق الاجتماعية والنظم الحكومية لهؤلاء المتبربرين .

الأجناس الأساسية للقبائل الجرمانية المتبربرة :

سنتحدث أولا عن القبـــائل التى غزت اوروبـــا عقب سقوط الامبراطورية الرومانية ، ولم تترك أثرهـــا الدائم على المنـــاطق التى اكتسحتها ونعنى بذلك القوط وهم ينقسمون الى قسمين : القـــوط الشرقيين الذين اتجهوا غربا نحو الأدرياتيك وأسسوا فى القرن الخامس

مملكة لهم فى ايطاليا انهارت فى عهد جستنيان سنة ٥٣٧م ، والقوط الغربيين الذين أسسوا لهم مملكة فى اسبانيا عاشت قرابة ثلاثة قرون من الزمان • وكذلك الوندال الذين دخلوا الامبراطورية متأخرا بعض الشىء ، واستولوا على شمال افريقية سنة ٤٢٩م • ولم يعمر ملكهم طويلا ، اذ انهار على يد جستنيان سنة ٥٣٣م ، وكذلك عنصر الهون الذى لم يترك أى ذكر • ونتناول بعد ذلك العناصر المتأخرة التى أتت فيما بعد وثبتت فى أماكنها الجديدة التى غزتها وتركت طابعها عليها لفترة غير قصيرة ، وأهمها قبائل اللمبارديين فى شمال ايطاليا وقبائل الفرنجة فى فرنسا والمانيا •

أولا : العناصر الجرمانية المبكرة :

القوط Gothe

القوط نوعان : القوط الشرقيون Ostrogoths ، والقوط الغربيون Visigoths ، وهم الذين ينسب اليهم الفن القوطى الهائل • وهم أول الشعوب الجرمانية التى نزلت بالامبراطورية • وكانوا يقيمون فى سهول روسيا الجنوبية الغربية • وقد اضطروا الى النزوح عن مواطنهم الأصلية عندما انهالت عليهم من الوراء جحافل القبائل الآسيوية الآتية من الشرق ، فاتخذ القوط الشرقيون اتجاها غربيا نحو الأدرياتيك ، بينما أخذ القوط الغربيون اتجاها جنوبيا الى الدانوب وشواطىء البحر الأسود •

القوط الغربيون Visigoths فى اسبانيا (٤١٥ — ٧١١ م) :

اتجه هذا العنصر جنوبا الى الدانوب ، وعبر هذا النهر الذى كان يعتبر حدا منيعا بين الأراضى الرومانية الشرقية وماوراءها من المناطق المجهولة التى يسكنها المتبربرون • عبر القوط الغربيون هذا

النهر سنة ٣٧٤م تحت تأثير الضغط الذى حدث على مؤخـــرتهم من الشرق أملا فى أن يجدوا لأنفسهم مكانا حصينـــا يستقرون فيه وراء ذلك الحد المائى المنيع داخل كيان الامبراطورية الرومانية الشرقية ٠ وكان يحكم تلك الامبراطورية فى ذلك الحين الامبراطـور فالنتنيـان الأول Valentinian I (٣٦٤ ـ ٣٧٤م) ، الذى وجـد أنـــه من الأفضل مسالمة تلك القبائل لكثرة عددها ، ولخوفه من الاصطـدام معها فى موقعة قد يخسرها نظرا لاستقتالهم فى البحث عن مكان يقيمون فيه حيث ينعمون بالهدوء والسلامة ٠ وهكذا سمح لهم بالبقاء فى بلاده على ضفة الدانوب الجنوبية ٠ ولكن لم تكد تمضى فترة قصيرة بعد ذلك حتى أخذوا يزحفون جنوبا داخل شبه جزيرة البلقان ويكتســحون منطقة تراقية ٠ وبذلك لا يجد جنود الامبراطورية ، وكان على رأسهـا آنئذ الامبراطور فالنس Valens ، بـدا من الاصطـــدام معهم وتأديبهم ٠ وقد حدث ذلك فى موقعة حاسمة فى التاريخ هى موقعـة أدرنة سنة ٣٧٨ م نسبة الى مدينة أدرنـة التى ألحق فيها القـــوط الغربيون هزيمة ساحقة بالامبراطور فالنس ودولة الروم الشرقيـة ٠

وقد كتب المـؤرخ الرومانى القـــديم أميـانوس مارسللينوس Ammianus Marcellinus عن هذه الموقعة يقول « ولم يضـع حدا لتلك الكارثة المفجعة سوى الليل ، تلك الكارثة التى تركت النتـــائج المترتبة عليها آثارها على مصير الامبراطورية » ٠ وهو يعتبــر تلك المعركة بمثابة نهاية للتاريخ الرومانى القديم ٠ ويأخـــذ بهذا الرأى ادوارد جيبون وكثير من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين يعتبـرون موقعة أدرنة نقطة تحول فى التاريخ ، أو بمثابة حد فاصل بين العالمين القديم والوسيط ٠ فلم يكن من نتائجها أنها كشفت للبرابرة عن ضعف روما فحسب ، وانما شجعتهم أيضا على معاودة الهجوم على تلك الدولة٠ ومنذ الحين لم يتركوا اطـــلاقا الأراضى الرومانية ٠ وفضـــلا عن

ذلك تعتبر تلك المعركة ثورة فى تاريخ فن الحرب والقتال . فلقد أثبتت فرق المشاة التى اعتمدت عليها روما بصفة أساسية لقرون عديدة ، والتى بفضلها أحرزت انتصاراتها المعروفة فى عالم البحر المتوسط ، أثبتت عدم قدرتها وكفاءتها أمام فرق الفرسان القوطية . ومنذ ذلك الحين فصاعدا وخلال أجيال عديدة لاحقة قامت فرق الفرسان - سواء كانت جرمانية أم رومانية بعد أن تلقن الرومان درسا من موقعة أدرنة - بدور رئيسى فى الحرب والقتال .

وكيفما كان الأمر ، عندما تولى الامبراطور ثيودسيوس الكبير Theodesius I, the Great عرش الامبراطورية (٣٧٩ - ٣٩٥م). رأى أنه من الحكمة ألا يواصل القتال مع هذا العنصر الجرمانى الى نهايته ، وحاول اقناعهم بالخلود الى السكينة والهدوء والعمل فى أراضيه الواسعة لاكتساب الرزق فى حدود القانون . وعلى هذا أقطعهم هم والقوط الشرقيين مساحات كبيرة من الأراضى على أن يخدموا كجنود فى صفوف جيشه ، وذلك باعتبارهم حلفاء له يتمتعون بنوع من الحكم الذاتى Feoderati ، وحلفوا له يمين الولاء والاخلاص على ذلك . وأخيرا ظهر من بينهم زعيم قوى يدعى الاريك Alaric لم تقف أطماعه فى حدود اقطاع ثيودوسيوس داخل البلقان ، وانما بدأ ينظر غربا فى محاولة هدفها مد نفوذه بصفة أوسع وأعظم استقلالا على ايطاليا . وكان قد ازداد عدد القوط زيادة كبيرة ولم يكن هناك من يكبح جماحهم . وبدأ باكتساح مقدونية وما وراءها من الأرض اليونانية سنة ٤٠٠ م ، الا أن القائد الرومانى المدعو ستيليكو Stilico ، يقوم بحركة دفاعية ضدهم ويلحق بهم شر هزيمة . فأخذوا يبحثون عن مكان آخر يتلمسون فيه سبل الرزق والاقامة . وعلى هذا اتجهوا غربا الى ايطاليا ، وكانت حالتها وقتئذ فى أشد الارتباك كما غدت الامبراطورية الرومانية الغربية شبحا يحتضر بعد أن كانت

حقيقة ملموسة · ولم يجد الاريك صعوبة في اكتساح ايطاليا ، ووصل الى روما نفسها واستولى عليها سنة ٤١٠م·ولم يكتف الاريك بذلك بل كانت سياسته أن يعبر البحر المتوسط لكى يمد سلطانه على شمال افريقية التى كانت تعتبر منأهم وأخصب المقاطعات الرومانية · ولكنه مات فيالطريق بالحمى وأدى موته الى تثبيط عزائم القوط ووقف تنفيذ سياسته ·

وخلفه على العرش ابنه المسمى اتولفوس Ataulfus وترجع أهمية اعتلائه العرش على عامل شخصى له دلالته ألا وهو عامل القرابة والنسب · اذ كان زوجا لابنه الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس · ويحكم ما كان للامبراطور الرومانى الشرقى _ على الأقل من الوجهة النظرية _ من الهيمنة على اوروبا المسيحية ، فقد وهب اتولفوس هذا باعتباره زوج ابنته لقب الملك ، ومنحه حدودا واسعة تكون مملكة خاصة به وبعشيرته تشمل غالة واسبانيا · وعلى ذلك يقرر اتولفوس التوجه بجحافله غربا الى غالة ، ولكنه لا يستطيع الاستيلاء عليها من القبائل المتبربرة الأخرى التى كانت قد عبرت نهر الراين واستقرت بداخلها·وهكذا يخترق جبال البرانس الى اسبانيا حيث يؤسس بهامملكة القوط الغربيين التى عمرت قرابة ثلاثة قرون سنة ٤١٥ الىسنة٧٠٠م ، الى أن قضى عليها طارق بن زياد الأموى سنة ٧١١ م · ومنذ ذلك التاريخ تتنقل الاندلس الى حكم العرب ويتقلص ظل مملكة القوط الغربيين وينتهى تاريخهم بذلك الحادث ·

القوط الشرقيون Ostrogoths (بايطاليا ٤٩٣ _ ٥٥٣ م) :

نزل القوط الشرقيون فى ايطاليا بادىء الأمر سنة ٤٨٩ م بقيادة ملك من أعظم ملوكهم وهو ثيودوريك العظيم Theodoric الذى اشتهر اسمه فى التاريخ وبقى على صفحاته الى اليوم · وعندما نزل

بايطاليا بعد أن نزح عنها القوط الغربيين وجدها تحت حكم جندى آخر من المتبربرين اسمه ادواكر Odoacer وهو نفس الجندى الـذى كان قد تمكن من القضاء على ظل الامبراطورية الرومانية الغربيـة فى شخص آخر أباطرتها الضعفاء سنة ٤٧٦م وهو رومولوس أوجستولوس وعندما أرسل شعارات هذه الامبراطورية من روما الى بيزنطـة · وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن شخصا كادواكر من أصل متبربر لم يستبح اغتصاب لقب الامبراطورية الذى كان فوق طاقة الجرمان ومخيلتهم وتصورهم · كما أنه يدل ـ من ناحية أخرى ـ على أن نفوذ الامبراطورية الرومانية قد امتد الى الغرب وقتذاك ·

كان ثيودوريك عاقلا حكيما ، فلم يعمد الى قتال ادواكر ، بـــل اقترح عليه عدم استنفاد جهودهما فى قتال لا طائل تحته ، وأن الأصلح لكليهما الاتفاق على حكم ايطاليا حكما ثنائيا فيما بينهمـا · وقد تـم هذا الاتفاق بالفعل · ولكن ثيودوريـك كان قد أخفى فى نفسه الشر والغدر لادواكر لكى يصبح هو حاكم ايطاليا الوحيد المطلق · فعندمـا واتته الفرصة لتحقيق هذه الرغبة قتله فى مؤامرة مدبرة وانفرد بحكم ايطاليا وكان ذلك سنة ٤٩٣ م · وهكذا يستقر القوط الشرقيون فيها ، وتترعرع الآداب والفنون فى عهد ثيودوريك بعض الشيء · فنـــراه يواصل التقاليد الرومانية القديمـة قـدر استطاعتـه ، مع الاحتفاظ بطبيعة الحال بشيء من عنف النظام المتبربر · فقد كان ينظر الى المدنية الرومانية كمثل أعلى يجب أن يحتذى به ، مع تكييفه بالشكل الذى يتلائم والأوضاع الجديدة · فنراه يستوزر شيوخ الرومان ويستخدم كثيرا من الرومانيين فى ادارة دفة الحكومة فى البلاد · ومن أعظم من اعتمـــد عليهم ثيـــودوريك الفيلســـــوف بيوثيوس Boethius والمـؤرخ كاسيودوروس Cassiodorus

لقد تقبل ثيودوريك المثل والتقـاليد الامبراطورية القديمة مع ايمانه بقوة روما وعظمة الامبراطورية الرومانية.ومايقال عن ثيودوريك فى هذا الشأن يقال أيضـا عن كلوفيس ملك الفرنجـة فى غالة . فقد حصل كل منهما على لقب الملك الشرعى على أراضيه من أباطـرة بيزنطة الرومان . وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على أنه بالرغم من اسهام الجرمان فى القضاء على الامبراطورية الرومانية الا أنها مع ذلك لم تنـدثر تمـاما . لقد ظلـت روما هى المدينـة الخالـدة بعد سقوط الامبراطورية القديمة ، ولكن فى قالب مغاير يتلائم والأوضاع الجديدة التى استجدت على مسرح الأحداث فى الغرب وقتذاك .

وبعد موت ثيودوريك سنة ٥٢٦ م اعتلى العرش عدد من الأفـراد الضعاف الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلال تلك المملكـة المتبربرة الناشئة أمام الكتائب الرومانية الشرقية التى وجهها الامبراطور البيزنطى المعروف جستنيان الأول Justinan I فى النصف الأول من القرن السادس ضد هؤلاء المتبربرين فى ايطاليا أمـلا فى استعادة شأن الامبراطورية الرومانية القديمة التى كان قد كرس حياته لتحقيقها من جديد. وكانت تلك الحملات الموجهة الى ايطاليا بقيادة اثنين من أعظـم قواده هما بليزاريوس ونارسيس . وبذلك ينهار ملك القوط الشرقيين وتندمج البقية الباقية من عنصرهم فى صلب الشعب الايطالى ، كما تم أيضا التمازج بين الثقافتين الجرمانية والرومانية المتأخرة .

الوندال Vandals (فى شمال افريقية ٤٢٩ - ٥٣٣ م) :

فى نفس الوقت الذى ظهـر فيه القوط الشرقيون والغربيون ظهر كذلك عنصر الوندال ، وان كان قد دخل الامبراطوريـة متأخرا بعض الشىء عن العناصر المتقدمة . وقد اشتهر هذا الجنس ببطشه وشـدة قسوته فى معاملـة الناس . وقد اتجه عنصر الوندال بادىء الأمر غربا

الى منطقة غالة ، وهى فرنسا الحديثة ، وكان ذلك حوالى بداية القرن الخامس • وبعد أن اكتسحها عبر جبال البرانس ونزل فى اسبانيا وشق طريقه فى مملكة القوط الغربيين وأقام هناك دولة لم تعمر ، اذ سرعان ماقضى عليها القوط سنة ٤١٩ م • ثم عبر البحر الى شمال افريقية ، واستولى سنة ٤٢٩ م على تلك المنطقة الخصبة التى كانت تعتبر من أهم مقاطعات الدولة الرومانية فى التاريخ القديم • وأسس الوندال هناك مملكة جديدة تمتد من المحيط الأطلسى الى حدود مصر تقريبا • وأصبح الوندال القوة المسيطرة فى افريقية فترة من الزمن وانطلقوا الى البحر حيث أغاروا على موانى البحر المتوسط • وأصبحت لهم قوة بحرية ضاربة ، حتى أنهم أغاروا على ايطاليا سنة ٤٥٥م ، وأعملوا السلب والنهب فى روما نفسها • وهكذا ارتبط اسمهم بأعمال النهب والتخريب •

ولكن ممنكة الوندال هذه لم تكد تعمر بعد موت مؤسسها جنسريك Genseric ويرجع ذلك لأسباب عديدة اذ أن اقلاعهم عن الحرب والقتال لعدم وجود ما يدعو اليه ، وانغماسهم فى حياة الترف وعيشة الرخاء فى جو لا يبعث على النشاط وهو الجو الافريقى الحار ، فضلا عن الصراع الذى قام حول الحكم بعد موت جنسريك ، والخلاف بين الوندال وبين أهالى البلاد وهم الأغلبية ، كل ذلك كان مدعاة لأخذهم حياة الكسل والتراخى والرفاهية ، ففسدت أخلاقهم وضعف شأنهم ، وسرعان ماانهارت دولتهم عندما نزل بها جند جستنيان بقيادة بليزاريوس سنة ٥٣٣ م ، ففعلوا بهم كما فعلوا بالقوط الشرقيين فى ايطاليا • وعادت مقاطعة شمال افريقية بما فيها طرابلس وبرقة الى حكم الدولة البيزنطية • واستمرت بأيدى البيزنطين الى أن استولى العرب عليها فى أوائل القرن الثامن •

لقد كان الوندال دائما أقلية صغيرة تحكم أغلبية من الشعب واذا استثنينا الصفة التى اشتهروا بها وهى القسوة وانعدم الرحمة ، نجد أنهم لم يتركوا أثرا يذكر فى التاريخ ٠

ويزودنا سيدنى بينتر S. Painter فى كتابه « تاريخ العصور الوسطى » بصورة مركزة واضحة عن القوط بعنصريهم والوندال ٠ يقول ان الوندال عبروا جبال البرانس لاحتلال شمال اسبانيا ، بينما وصل القوط الغربيون الى غالة عبر ايطاليا ، وأعملوا فى طريقهم النهب والتخريب فى روما ٠ وبعد أن رحل القوط الغربيون عن ايطاليا ، تولى الحكم فيها بعض القادة من البرابرة ٠ ولكن القوط الشرقيين الحقوا بهم الهزيمة ووضعوا أيديهم على ايطاليا ٠ وفى تلك الاثناء ، طرد القوط الغربيون الوندال من اسبانيا ، فاتجه الأخيرون الى شمال افريقية واستولوا عليها ٠ ويستمر بينتر قائلا انه بعام ٤٩٠ كانت ايطاليا فى قبضة القوط الشرقيين ، وجنوب غالة واسبانيا فى قبضة القوط الغربيين والساحل الافريقى فى قبضة الوندال ٠

وبعد أن استعرض بينتر تحركات هذه الشعوب الجرمانية الثلاثة ، أوضح أنها كانت قليلة العدد نسبيا ، وأنه قدر لها الا تترك آثارها على المناطق التى احتلتها ٠ وذكر أن كلا من القوط الغربيين والقوط الشرقيين كان على معرفة جيدة بالحضارة الرومانية قبل نزولهم فى جوف الامبراطورية ٠ وذكر أنه فى الوقت الذى لم يوجهوا فيه ادنى اهتمام لاحتياجات الامبراطورية ومطالبها ، وفى الوقت الذى لم يكن لديهم فيه أى مانع من قتال أى جيش رومانى يعترض طريقهم ، الا أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة حلفاء عسكريين للامبراطورية ، وكانوا عادة ما يتصرفون على هذا الأساس ، أى عسكريين للامبراطورية، وكانوا عادة ما يتصرفون على هذا الأساس ، أى كجند مرتزقة ٠

عنصر الهـون . The Huns .

عنصر الهون من القبائل المغـــولية التى أتت من الشرق الأقصى ومن أواسط آسيا ، وذلك بحكم القحط والجفاف الذى نـــزل بتلك المناطق فى عصر قل فيه سقوط الأمطار · وهم يضمون عناصـــر البلغار والآفار والآلان والسلاف · والواقع أن قيام قبائل الهـــون بالسعى وراء الرزق فى جهة غريبة كان من الأسباب غير المباشرة التى أدت الى انهيار وسقوط الدولة الرومانية القديمة · فهى التى دفعت بالقبائل الجرمانية الأخرى الى الأمـام حتى اضطرت فى النهـــاية الى النزول بالامبراطورية متخذة سياسة الغزو غربا وجنوبا عبر الرايـــن والدانوب الى أن انهارت تلك الامبراطورية ·

لقد كان الهون من راكبى الخيل الرحل الذين لا يستقر بهـــم المطاف فى مكان ما ، نتيجة البيئة التى كانوا يعيشون فيها · وكـانوا قبيحى المنظر متوحشين ، لا يثبتـــون على حال ، وقد أثاروا الرعـب والفزع فى قلوب الرومان والعناصر الجرمانية الأخرى على السواء ·

على أية حال ، وصل الهون أنفسهم الى اوروبا تحت قيادة ملكهم الشهير المسمى اتيلا Attila فى أخريات القـــرن الرابع ، وقد اجتاحوا كل ماكان يعترض طريقهم من انس وحرث وغرس ، كمـــا سحقوا كل مقاومة واجهتهم بقوة هائلة · وقد اكتسحوا المنطقة الواقعة بين ضفاف الفولجا ونهر الراين وهم يخربون المدن ويقتلون الخلـــق بلا رحمة أو هوادة ودون أى اعتبار للسن أو للجنس ، حتى أصبـــح يضرب بقسوتهم المثل فى تاريخ اوروبا الذى لم يعرف مثل ماحدث من تلك القبائل منذ أقدم العصور ·

وفى سنة ٤٥٠ م عبر الهون ضفـاف نهر الراين بقصد غـــزو مقاطعة غالة الشمالية ، ولكن وقعت أحداث هامة كان لها أبعد الأثر ·

اذ كان على رأس تلك المقاطعة قائد رومانى يدعى ايتيوس Aetius ، وقد وقف فى وجه الهون بالقرب من مدينة اورليانز على ضفة نهر اللوار Loire ، وانضم الى حاميته الرومانية جميع العساكر الجرمانية المتبربرة الأخرى التى كانت تفر بسرعة البرق أمام سلطان الهون غربا . وكان من الطبيعى والمنتظر أن يقف الفريقان جنبا الى جنب أمام ذلك الخطر الداهم الذى يهدد كليهما . ويبدو أن الهون كان قد انهكهم التعب من رحلات الغزو الطويلة التى قاموا بها من بلادهم فى الشرق الأقصى الى غرب اوروبا بدون راحة وبلا هوادة .

وهكذا صمد الرومان والجرمان تحت قيادة ايتيوس الرومانى أمام اتيلا وجحافله من الهون . وقد ألحق ايتيوس بأتيلا ورجاله فى موقعة شالون Chalons سنة ٤٥١ م هزيمة ساحقة . وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الفاصلة فى التاريخ الأوروبى ، شأنها شأن موقعة أدرنة التى انتصر فيها القوط الغربيون على الامبراطور البيزنطى فالنس .

بعد ذلك يتجه اتيلا والهون جنوبا الى ايطاليا ؛ ولكن اتيلا يموت سنة ٤٥٤م قتيلا فى ليلة من ليالى زواجه العديدة بيد احدى زوجاته دون أن يخلفه زعيم له قوة شخصيته ، بحيث يمكنه جمع كلمة تلك القبائل فى صعيد واحد . وبذلك يبدأ الهون فى الانسحاب ثانية شرقا الى آسيا وينزاح هذا الكابوس عن اوروبا التى لم تنس اسم اتيلا قرونا طويلة ، حتى لقد وصفه المعاصرون له بأنه غضب الله أو كرباج الله The Scourge of God

ويبلور سولومون كاتز دور الهون فى التاريخ الاوروبى قائلا أنه بينما كان القوط الغربيون والوندال والعناصر الجرمانية الأخرى تؤسس ممالك لها فى الغرب الرومانى ، كان الهون المتوحشون الذين

الجأوا القوط الغربيين للبحث عن مكان امين يقيمون فيه فيما وراء الحدود الرومانية سنة ٣٧٥ ، يحطمون كل مقاومة تعترض طريقهم ويذكر أنه عندما رفض الرومان فى عام ٤٥٠ دفع المزيد من الجزية لهم ، بدأوا فى غزو اوروبا دون رحمة أو هوادة ، وهكذا انتقلوا من أقاصى الدانوب الى منطقة غالة • ويوضح أن قوات الرومان والقوط الغربيين اتحدت فى وقت تقدم الهون ، وتمكنت من الحاق الهزيمة بهم فى سنة ٤٥١ : وبدأوا فى الانسحاب • وبعد ذلك التاريخ بعامين بدأت امبراطوريتهم فى الانهيار بموت قائدهم اتيلا الذى أثار الرعب والهلع فى النفوس ، ولم يعودوا يهددون اوروبا •

ثانيا ـ العناصر الجرمانية المتأخرة :

تلك هى أهم القبائل التى غزت الغرب الأوروبى عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولم تترك أثرها الدائم على المناطق التى اكتسحتها ، ولكن هناك عناصر متأخرة أتت فيما بعد ، وثبتت فى أماكنها الجديدة التى غزتها وتركت طابعها عليها ؛ وأهمها قبائل اللمبارديين فى شمال ايطاليا وقبائل الفرنجة فى فرنسا والمانيا •

اللومبارديون Lombards (فى شمال ايطاليا ٥٦٨ ـ ٧٧٤م)
وهم من الأجناس الجرمانية التى أتت من المناطق الشمالية • وقد نزلوا فى عهد متأخر داخل حدود الدولة الرومانية القديمة •وفى سنة ٥٦٨ قادهم ملكهم المسمى البوين Alboin عبر الألب الى ايطاليا فى السهول الشمالية التى سميت باسمهم الى اليوم •

ويعتبر استيلاء اللمبارديين على ايطاليا فى أواخر القرن السادس من الأحداث الهامة فى التاريخ • وكان هذا العنصر من حلفاء الدولة البيزنطية ، وقد ساعد فى حروب جستنيان المعروفة ضد العناصر الجرمانية الأخرى • وكان اللمبارديون دائما أمة صغيرة ، وكانوا فى

جميع غزواتهم يجدون العون والمساعدة من غيرهم من الشعوب . وهناك أسطورة قديمة تكشف عن سبب تسميتهم باللمباردين . وخلاصتها أن المحاربين من رجالهم كانوا قلة ضئيلة حتى أن النساء كن يجدلن شعورهن أسفل ذقونهن فتوحى من بعد كما لوكانت لحيات أرخاهـا أصحابها ، وبذلك يعتقد الناس أنهن من الرجال المحاربين فيفرون من أمامهم هاربين . ومن هذه اللحيات الطويلة اشتقت الأمة كلها تسميتها فعرفت باسم Lombards أو Longobards ، أى أصحاب الذقون الطويلة . وكانوا يختلفون عن القبائل الجرمانية فى طريقة حياتها . فبينما كانت تلك القبائل تعيش فى القرى الصغيرة والمزارع ، كـان اللمبارديون يفضلون الحياة فى المدن على الاقامة فى السهول المنزرعة، وذلك على غير عادة القوط والجرمان عموما . وبمرور الوقت زال ملكهم ولكنهم لم يرحلوا عن ايطاليا ، بل بقوا فيها واندمجوا فى أهلها . وسهل مهمة الامتزاج بين العنصرين الرومانى والجرمانى اعتناق اللومبارديين المذهب الكاثوليكى . وكان من أثر ذلك أن احتضنتهم الكنيسة الرومانيه والبابوية ، وأخذت فى تعليمهـم أصول الـدين المسيحى على المـذهب الكاثوليكى . وقد تركوا اسمهم على سهول ايطاليا حتى يومنا هذا .

وجدير بالذكر أن غزو اللمبارديين لايطاليا كان غزوا موضعيا اذا استولوا على الأجزاء الداخلية وفى الشمال بالذات دون أن يبسطوا سيطرتهم على الساحل . وكانت روما وانكونا ورافنا ونابولى وأقاصى الجنـوب لاتزال فى قبضة الامبراطورية البيزنطية ، بينمـا لم تكن أى من الأراضى فيما وراء نابولى محتلة سوى احتلالا جزئيا والواقع أن الغزو اللمباردى لم يكن غزو شعب بقدر ماكان غزو عدد من القادة والزعماء المستقلين . وكان ملك اللمبارديين يحكم فى بافيا فى الشمال . وقـد وجد فى آن واحد فى القرن السادس حوالى ٣٦ من الدوقات اللمبارديين

كل منهم يسعى للاستحواذ على السلطة والنفوذ ٠ ومع أن قوة الملوك اللمبارديين قد ازدادت زيادة كبيرة فى القرن السابـع ، الا أن الدوقيات الكبرى فى الجنوب الايطالى لم تخضع لسلطانهم تماما ٠

وكيفما كان الأمر فقد كان اللمبارديون أكثر الشعوب الجرمانية تآلفا مع الشعب الرومانى وبقايا الحضارة الجرمانية القديمة ٠ فسرعان ما أخذوا عن الرومان ألقابهم وأنظمتهم وحكومتهم ، كما سمحوا لمـدن الشمال الايطالى بأن تنمو وتتقدم وأن تنتج حضارة تفوق حضارة معظم جيرانها من المتبربرين ٠ وعلى الرغم من اعتناقهم المسيحية ، فقد تركوا عند البابوات اثرأ سيئا ٠ اذ كانوا يحلمون فى توحيد ايطاليا تحـت سلطاتهم ، مما أثار غضب البابوات الذين كانوا يسـعون هم أيضـا ليكونوا هم أنفسهم حكاما ليس على روما وايطاليـا فحسب وانما على الغرب المسيحى كله ٠ ولو كانوا قد نجحوا فى تحقيق هدفهم لتغير قطعا وجه التاريخ الايطالى ٠ولربما تجنبت ايطاليا الكوارث والويلات التى تعرضت لها فى العصر الوسيط ، نتيجة الكفاح العنيف بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية ٠

ويتحدث المؤرخ جون لامونت عن اللمبارديين وموقفهم من بابوية روما والآثار المترتبة على ذلك ٠ يقول ان اللمبارديين كانوا فى كثير من الوجوه أكثر الشعوب الجرمانية تآلفا مع الشعب الرومانى ، وأنهـم أخذوا بسرعة عن الرومان ألقابهم وحكومتهم وأنظمتهم ٠ ويذكر أنهـم كانوا يدينون فى بادىء الأمر بالأريوسية ، ولكنهم سرعان ما تقبلوا المسيحية على المذهب الرومانى ٠ ويوضح أنهم كانوا فى حروب دائمة مع الامبراطورية الرومانية والبابوات ، فقد تركوا أثرا غير طيب واسما سيئا ٠ فقد كان يروادهم حلم توحيد ايطاليا كلها ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، ولهذا أثاروا غضب البابوات عليهم الذين كانوا يفضلون أن يكونوا

هم أنفسهم حكام روما . ولو كان اللمبارديون قد نجحوا فى مشروعهم لكان قد تغير قطعا وجه التاريخ الايطالى ، ولكانت ايطاليا قد تعرضت لكوارث أقل مما تعرضت له . ويذكر لامونت أن المؤرخين المؤيدين لكل من البابا والامبراطور ، وكذلك مؤرخى الفرنجة ، فى ادانه اللمبارديين كمتوحشين قساة غير متحضرين . ولكن اذا صرفنا النظر عن تلك التهم التى الصقها بهم أعداؤهم ، فليس هناك فى تاريخ اللمبارديين ما يدل على أنه لم يكن بوسعهم تأسيس دولة مماثلة لتلك الدول التى أقامتها الشعوب الجرمانية الاخرى . ويختتم لامونت تقييمه للمبارديين بقوله انهم سمحوا لمدن الشمال الايطالى أن تتطور وأن تنتج حضارة تفوق تلك التىعاش فى ظلها معظم جيرانهم من الجرمان .

الفرنجة The Franks (فى غالة ٤٨٦ - ٧٥١ م) :

الفرنجة من الأجناس التى بقيت فى مكانها من مقاطعات الدولة الرومانية عبر الراين . ولهذا العنصر اهميته التاريخية الفائقة ، لانه على أساس دخوله حظيرة الدول الأوروبيةقامت حكومات جديدة فىاوروبا.
دخوله حظيرة الدول الأوروبية قامت حكومات جديدة فى اوروبا .
وعلى هذا الأساس قامت دولة فرنسا ودولة المانيا ، اللتان كان لهما شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى وفى التاريخ الحديث حتى يومنا هذا .

والفرنجة من الأجناس الجرمانية التى كانت تعيش فى أواسط آسيا . ثم حدث لهم ما حدث لغيرهم من القبائل المتبربرة الأخرى ، اذ اشتد الضغط على قبائلهم من الشرق ، فاضطروا الى النزوح من أوطانهم ولكنهم لم يتجهوا كما اتجه اللمبارديون أو القوط من قبلهم صوب ايطاليا،وانما عبروا نهر الراين واستقرواغربافىغالة،وكانوا أكثر توفيقا من غيرهم من القبائل المتبربرة الأخرى . اذ أفلحوا فى تأسيس ملكية ثابتة الدعائم استقروا فى ظلها . ثم أخذوا بعد ذلك فى مد نفوذهم

شيئا فشيئا حتى أصبحت غالة بأكملها تحت سيطرتهم . وبذلك يكونون قد وضعوا فى غالة دولة فرنسا على ما ذكرنا .

ومن أهم ملوك الفرنجة كلوفيس Clovis (٤٨١ - ٥١١ م) الذى يعتبر من أكبر مؤسسى تلك الدولة . واليه يرجع الفضل فى مد حدود الفرنجة غربا حتى ساحل خليج بسكاى والأطلنطى ، وجنوبا الى أن بلغت تلك الحدود جبال البرانس . وكان كلوفيس هذا ملكا ذا سياسة حكيمة تتصف ببعد النظر . فقد أدرك بثاقب بصيرته أن الاستقرار التام داخل حدود الدولة الرومانية لا يمكن أن يتيسر بالتقرب الدينى بينه وبين البابوية التى أصبحت مركزا هاما للنفوذ الرومانى داخل مدينة روما . فسعى جاهدا للتقرب من الرومان ، باعتناقه الديانه المسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى سنة ٤٩٦ م . ولكنه لم يكتف باعتناق هذه الديانة وحده ، وانما جمع ارستقراطيته وأتباعه والزمهم على الاقتداء به فى هذا السبيل . وكانت النتيجة أن أصبح الفرنجة والرومان المقيمون فى غالة من قديم الزمان تابعين لكنيسة واحدة هى كنيسة روما اللاتينية . وزالت بالتدريج العوائق التى كانت تعوق التقارب والامتزاج بين شقى الشعب الذى كان يدين سياسيا بالطاعة لكلوفيس . وهكذا أصبح الامتزاج بينهما والوحدة الروحية التى تجمعهما ،أساسا ثابت الدعائم لتلك الدولة التى كان يجلس على عرشها كلوفيس .

ولم يكتف كلوفيس بهذه الخطوة ، انما أخذ منذ ذلك الحين فى تشجيع زواج المصاهرة بين الفرنجة والرومان . وهدفه من ذلك أن يخلق من هذين الجنسين المتباينين جنسا واحدا يكون أمه واحدة ، وهذه الامة تكون مملكة واحدة يكون هو على رأسها .

وحدث بعد ذلك حدث آخر هام عزز من سلطان كلوفيس . ذلك أنه فى عام ٥٠٨ م أنعم الامبراطور البيزنطى بلقب (حاكم غالة الرومانية) . وساعد ذلك الى حد بعيد على اعتراف الرومان فى تلك المنطقة بملك كلوفيس عليهم . ولم يعد هناك من يشك فى الأسس التى قامت عليها دولته . وكان الاعتراف به بمثابة اعتراف العالم الخارجى بتأسيس أسرته الجديدة ألا وهى الأسرة الميروفنجية Merovingian Dynasty (٤٨٦ ـ ٧٥١ م) .

وغنى عن البيان أن عملية التوحيد بين مختلف العناصر الجرمانيه والرومانية كانت بطبيعة الحال عملية بطيئة مستمرة تدريجية . واذا درسنا الحدود الجغرافية والفوارق الجنسية واللغوية والحضارية على أساس الحوادث والواقع ، نرى أن الدولة الميروفنجية انقسمت الى قسمين رئيسيين من الناحية الجنسية ، كل قسم له خصائصه التى نجمت عن ذلك الامتزاج الجنسى بين تلك العناصر المذكورة .والقاعدة الأساسية التى يجب أن نذكرها فى هذا الصدد ، انما تتعلق بهجرة الفرنجة من الشرق الى الغرب عبر الراين . فنجد أن جموعهم تبلغ أشدها كثافة فى الشرق على مقربة من أوطانهم الأصلية شرق الراين . ثم تضعف نسبة الفرنج العددية كلما توغلنا غربا فى امارة غالة الرومانية ، حتى أننا نجد فى الجهة الغربية النائية أن العنصر الرومانى يتفوق تفوقا واضحا على الأسر الجرمانية المعدودة التى نزحت الى تلك البقاع .

وعلى هذا فالقسمان الرئيسيان اللذان انقسمت اليهما الدولة على الأساس سالف الذكر هما القسم الشرقى أو استرازيا Austrasia والقسم الغربى وهو نوستريا Naustria وتغلب على القسم الأول الصبغة الجنسية الجرمانية ، بينما على القسم الغربى الطابع الرومانى القديم . وكان يتولى ادارة وحكم كل قسم من هذين القسمين وزير خاص يحمل لقب « أمير القصر » أو « رئيس السراى » Major Domo

ويلاحظ أنه كلما توغلنا فى التـاريخ الميروفنجى ، كلما ازداد ضعف خلفاء كلوفيس بقدر مايشتد ساعد رؤساء القصر أى الوزراء ، كل فى دائرة اختصاصه ٠

وبمرور الوقت نجـد أن هذين الأميرين الخاضعـــين لتاج واحد فى دولة واحدة ، يبلغان درجة من القوة تجعلهما أقرب الى الاستقلال الذاتى ٠وبلغ بهما الامر أنهما كانا يعلنان الحرب على بعضهما أحيانا ، مع أنهما لم يكونا سوى حاكمين فى حدود دولة واحدة لها ملك واحد ٠ وكثيرا ما كان الواحد منهما يغير على زميله أملا فى مد سلطانه على جزء من المناطق الخاضعة له ٠ وكذلك أصبحت الوزراة أو امارة القصر وراثية فى نسلهم ٠ كل هذا يحدث والملوك الميرفنجيون الضعـاف صاغرون لا حول لهم ولا قوة ٠

وأخيرا فى سنـة ٦٨٧ م استولى أحـد هؤلاء الوزراء على وزارة المنطقتين الشرقية والغربية ، وتوحدت الوزارة فى شخص رجل واحد هـو ببين هريســتال Pepin Heristal وكان ذلك بطبيعة الحـال على حساب الملكية الميروفنجية الضعيفة ٠ ولم يصبح هناك مناوىء لببين هذا فى اغتصاب ما يريد اغتصابـه من اختصاص الملوك الميروفنجيين الضعاف ٠

وفى سنة ٧١٤م مات الوزير الميروفنجى ببين هريستال دون أن يترك أبناء شرعيين يخلفونه فى الوزارة ٠ وكان احفاده صغيرى السن بحيث لم يكن من السهل تحملهم أعباء الحكم ٠ وهكذا خلفه ابنه غير الشرعى المسمى شارل مارتل على عرش الوزارة ٠ وهو الشخص الذى ارتبط اسمه بموقعة بواتييه Poitiers سنة ٧٣٢ م بينه وبين العرب ٠ وهى تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، اذ أنهـا أوقفت توغل العرب فى اوروبا الى ما وراء جبال البرانس جنوبا ٠ وقد واجهت

شارل مارتل بعض الصعاب فى سبيل تعزيز سلطته • ووقف من الكنيسة موقفا متشددا • اذ قام بمصادرة الكثير من أراضيها للانفاق على حروبه ضد العرب ، وبهذا جلب عليه نقمة رجال الدين ولكنه كان خلال السنوات الأخيرة من حكمه هو الحاكم الأوحد بلا منازع •

وعند وفاة مارتل قسم أراضيه بين ابنيه كأى ملك ميروفنجى • فأعطى القسم الشرقى الى ابنه ببين القصير ، والقسم الغربى الى ابنه كارلمان • ولكن التنافس بين الأخوين هدد أمن الدولة وفى سنة ٧٤٧م تنازل كارلمان عن صلاحياته لأخيه ببين مؤثراً الحياة داخل الدير • وبذلك أصبح الجو خاليا تماما لببين القصير •

وببين القصير هذا هو آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الاسرة التى خلفت الأسرة الميروفنجية ، وهى الأسرة الكارولنجية • لقد أدرك ببين أن كلمته هى الكلمة العليا فى الحكومة والبلاد ، فى حين أن الملوك الميروفنجيين لم يكونوا سوى ألعوبة لا شأن لهم بأمور الدولة • وبناء على ذلك نراه يقرر فى أواسط القرن الثامن الميلادى الاستيلاء على التاج الميروفنجى بصفة نهائية • ولكنه لا يستخدم القوة فى وضع يده على ذلك التاج ، انما يبرر غايته بطريقة سياسية ماهرة تدل على بعد النظر فنراه يرسل الى بابا روما واسمه وقتذاك البابا زكريا (٧٤١ — ٧٥٢ م) بعثة من قبله لكى يستفتيه عما اذا كان من الأصوب والأصح والأعدل أن يظل التاج الفرنجى على رأس من لاحول ولا قوة فى الدولة وان كان يحمل لقب الملك ، أم على رأس من بيده القوة والنفوذ والادارة وان كان لا يحمل لقب الملك • وكان البابا زكريا هو الآخر رجلا سياسيا حكيما • اذ رأى أنه لا فائدة من التمسك بالملوك الضعاف الذى لا يرجى منهم أى فائدة ، لاسيما أنه أدرك أن ببين كان عازما على الاستيلاء على التاج مهما كان الأمر • فآثر ممالئته والوقوف الى جانبه ، وأجابه على طلبه بأن الاعتبار الثانى هو العدل والصواب •

عند ذلك بادر ببين بنقل التاج من آخر ملوك الميروفنجيين العاطلين وهو حينذاك شيلدريك الثالث Childeric III سنة ٧٥١م ذلك التاريخ الذى يعتبر بداية الدولة الكارولنجية ، وفى سنة ٧٥٤م قدم البابا ستيفن الذى خلف زكريا الى غالة حيث توج ببين ملكا على الفرنجة ٠ وهكذا تم تأسيس البيت الكارولنجى بمساعدة الكنيسة الرومانية ومباركتها ٠ وقد أوصى ببين بعد ذلك بتقسيم مملكته من بعده حسب التقليد الجرمانى القديم الى قسمين بين ابنيه ٠ ولكن أحد الابنين مات سنة ٧٧١م تاركا الآخر على عرش الدولة بأكملها ٠ وهذا الشخص هو شارل العظيم أو شارلمان الذى تنسب اليه الأسرة الكارولنجية بسبب مجهوداته الكبيرة ونشاطه الفائق وفتوحاته الواسعة فى الغرب الأوروبى ٠

هذه كلمة سريعة عن أهم العناصر الجرمانية التى غزت الغرب الأوروبى ، وأقامت لها ممالك على أنقاض الدولة الرومانية القديمة بعضها اندثر وبعضها ترك أثره حتى يومنا هذا ٠ واذا نظرنا نظرة فاحصة مدققة الى تلك الممالك الجرمانية ، نجد أنها كانت تختلف فى شكلها وطابعها اختلافا بينا عن الدولة البيزنطية فى الشرق الأوروبى وعن الدولة الرومانية القديمة نفسها ٠ فقد زالت مع الزمن البيروقراطية الرومانية ومركزية الحكم والادارة التى تميزت بها الامبراطورية الرومانية القديمة ، واندثرت كذلك الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض لتحل محلها طبقة جديدة قوامها الغزاة الجرمان المنتصرين ٠ وأخذ النظام الاقطاعى فى الظهور والنمو وهو نظام عرفه الجرمان فى مواقعهم الأصلية قبل نزولهم واستقرارهم فى جوف الامبراطورية ، وأساسه العلاقة بين السيد والمسود أو التابع والمتبوع وقوامها الأرض وماتغله من خيرات ٠ وساعدت الظروف المرتبطة بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط على نموه وتأصله فى الغرب ٠

وساد تبعا لذلك نظام الاقتصاد الطبيعى بدلا من الاقتصاد النقدى الذى كان طابع الامبراطورية الرومانية القديمة والذى ورثته عنها الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، ونما كذلك الاتجاه نحو المحلية والبعد عن فكرة الحكومة المركزية · وغدا الملك هو « الأول بين أقرانه » فحسب والاقطاعيون هم أيضا ملوك فى دوائر اقطاعاتهم ، حتى لقد اعتبروا الملك ليس فى الواقع الا واحدا منهم قدموه على أنفسهم · واختفى تبعا لذلك نظام الضرائب المباشرة ، وانعدم الجند المرتزقة الذين تدفع لهم الدولة أجورهم ، وبات الجيش اقطاعيا فى تكوينه ، فضلا عن عدم وجود جهاز ادارى متكامل يتولى دفة الحكم فى البلاد والعمل على استتباب الأمن وفرض النظام واقامة العدالة · فقد كان الجهاز الادارى المتشابك والنظام المالى المعقد اللذان عرفهما الرومان القدماء ، وورثهما عنهم البيزنطيون ، فوق طاقة الجرمان وعقليتهم وتصورهم · كما أن الاقطاعية التى تغلغلت فى الغرب كانت تتعارض مع مثل هذه الأوضاع ، واقتصادهم الطبيعى البدائى لم يكن يسمح بوجود موارد مالية دائمة ثابتة تيسر الانفاق على كافة أجهزة الدولة ومرافقها ·

ونتيجة لهذه الظروف أصبحت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية خلال تلك الحقبة من الزمن مستقلة عن الدولة وليست جزءا منها كما كان الحال فى بيزنطة · لقد كانت بمثابة دولة داخل الدولة · فقد كانت هى الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة ، وورثت الأباطرة الأقدمين مركزهم ونفوذهم بعد أن خلا الكرسى الامبراطورى فى الغرب بانتقال الأباطرة الى الشرق · وقامت تلك الكنيسة برعاية أرواح أتباعها فى فترة القلق والاضطراب التى صاحبت غزوات البرابرة على الامبراطورية الرومانية وأعقبتها · وأكسبتها هذه الرعاية الاجتماعية نفوذا كبيرا · وفضلا عن ذلك فقد كان رجال الدين أنفسهم

هم المحتكرون للعلم والتعليم ،وأدت بهم الظروف الى أن أصبحوا من كبار ملاك الأرض • فكانوا يقتنون العبيد والأقنان الذين يعملون فى أراضيهم ، ويتصرفون فيهم بالبيع والشراء ، ويتبادلونهم ، ويقتسمونهم فيما بينهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الحكام العلمانيين • وقد قادها هذا الى الانزلاق الى الاقطاعية ، مما أدى الى احتكارها للشئون الدينية والدنيوية على السواء • وأدى هذا آخر الأمر الى الدخول فى كفاح عنيف مع القوى العلمانية فى الغرب ، وعلى رأسها الامبراطورية . فى سبيل الاستحواذ على السيادة والنفوذ على حساب الحكام والأمراء العلمانيين ، مما ترك أسوأ الأثر على التاريخ الأوروبى بصفة عامة وعلى كل من ايطاليا والمانيا بصفة خاصة •

ويلخص سيدنى بينتر الأوضاع التى سادت الغرب الأوروبى عقب نزول العناصر المتبربرة فى الغرب وقضائها على الدولة الرومانية ، واقامة دول وممالك جديدة على أنقاضها لها مميزاتها وخصائصها التى تختلف عما كان سائدا من قبل • يقول انه يمكن تفهم الفترة الواقعة فيما بين عامى ٥٠٠ و ٩٠٠ فى الغرب تفهما تاما باعتبارها فترة تغير وانتقال من حضارات الرومان والعناصر الجرمانية المبكرة الى حضارة العصر الوسيط بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا المصطلح • ويوضح أن الشعوب الجرمانية استقرت فى الغرب خلال تلك الفتره من الزمن ، ونمت وتطورت أنظمتها ؛ كما غدت التقاليد السياسية والعرف السائد الخاص بتلك القبائل الهائمة على وجهها بمثابة السلطة والقانون لدول منظمة • كذلك تكيفت وسائل الزراعة شبه البدائية التى كانت تستخدمها شعوب من البدو الرحل لتصبح أساليب فعالة مناسبة لاستغلال الأرض الخصبة فى شمال اوروبا • ويذكر ، أيضا ، أن تلك السنوات شاهدت دخول جميع الشعوب الجرمانية فى المسيحية ، فيما

عدا العناصر السكندينافية ، كما اختفت من بين صفوفها العناصر الأريوسية المهرطقة . ويختتم حديثه بقوله انه لم تحل سنة ٨٠٠ حتى كان الغرب الأوروبى قد اصطبغ تماما بالصبغة المسيحية على المذهب الرومانى الكاثوليكى .

الموضوع السادس

النظام الطبقى فى المجتمع الغربى الوسيط

من الملامح المميزة للمجتمع الغربي الوسيط النظـــام الطبقي ، الذى انقسم ذلك المجتمع بموجبه الى طبقات أفقية تتسع تدريجيا كلما نزلنا الى أسفل • وقد أدت الى ظهور هذا النظام عدة عوامل متشابكة معقدة متداخلة فى بعضها ، ترتبط بنهـــاية التاريخ القديم وبدايـــة العصر الوسيط • فقد كانت العناصر الجرمانية ، مثلا ، حسبما يقول أحد المؤرخين المحدثين وهو جورج جوردون كولتون ، تؤمن بوجـــود فوارق طبقية حتى وهى فى مواقعها الأصلية فيما وراء الدانوب والراين قبل استقرارها فى جوف الامبراطورية الرومانية القديمـــة • اذ كانت تحيا حياة قبلية قوامها الصيد والزراعة ورعى الأغنـــام • وهذا يعنى انها كانت معتادة على المعيشة المحلية والالتفاف حول زعيم من زعمائها • كما وجد عند الجرمان نظام أشبه مايكون بالتبعية التى تربط شخصـــا بآخر ، هذا النظام الذى تحول فيما بعد الى نظام السيد والمســـود فى ظل الاقطاع • ووجد عند الرومان أيضا قبل انهيار امبراطوريتهم نظام عرف باسم الحماية يقوم أساسا على تسلط القوى على الضعيف • وهذا معناه أن علاقات التبعية الشخصية كانت لها أصولهـــا القديمة ، التى ترجع الى أيام الرومان القدماء والعناصر الجرمانية المختلفة قبل أن تبدأ العصور الوســـطى • وعندما نزل الجـــرمان بجحافلهم فى جـــوف الامبراطورية ، نراهم يحافظون على هذه الأوضـــاع وينمونها • وقـــد ساعدت حالة الفوضى التى حلت بالغرب بسبب غزوات اولئـك القوم على تأصل تلك العادات ونموها ، فكانت أســـاسا للنظام الطبقى الذى تطور فيما بعد الى ماعرف بنظام الاقطاع •

ومن الكلمات المأثورة التى تلقى ضوءا كافيا على النظام الطبقـــى فى الغرب الأوروبى فى القرون الوسطى ، قول القريد الكبير ملـــك انجلترا الأنجلوسكسونى الذى حكم من سنة ٨٧١ الى سنة ٩٠١م، وهو :

"The house of God is triple, some fight, others pray and others work :"

وترجمة العبارة « بيت الله عبارة عن مثلث : البعض يقاتلون ، والبعض يصلون ، والبعض يعملون » • والمقصود من ذلك أن المجتمع المسيحى الغربى كان يتكون بصفة عامة من ثلاث طبقات رئيسية هى : طبقة المحاربين أو المقاتلين ، وطبقة رجال الدين أو المصلين وطبقة العاملين الكادحين • وفيما يلى نبذة عن كل من هذه الطبقات الثلاث :

(١) طبقة المحاربين :

وهى تتكون من الرجال الأحرار ومن الأشراف والنبلاء الذين اتخذوا من الحرب صناعة لهم • وقد اشتغلوا فى بداية العصور الوسطى فى فرق المشاة In fantry فى جيوش القبائل الجرمانية المتبربرة • وخلال القرن التاسع تحولوا الى القتال على ظهور الخيل وسموا بالفرسان Knights • وأخذت ملابسهم الحربية تتطور بمرور الزمن ، فأصبحت تتألف من الحلل الحديدية والزرد والخوذات الثقيلة وغيرها من الأسلحة مثل الدروع والسيوف والرماح والقسى التى كانوا يستخدمونها فى حروبهم الاقطاعية التى امتلأ بها التاريخ الوسيط ، والتى اعتبرت أمرا عاديا ومألوفا وقتذاك •

واضطر كل فارس منهم الى استخدام تابع له أطلق عليه اسم Squire مهمته معاونة سيده فى ارتداء ملابسه • كما كان يحمل سيفه ودرعه حتى يمتطى صهوة جواده • وقد تطور الأمر بهذا التابع حتى أصبح يتلقن على سيده أصول الفروسية ، حتى اذا بلغ سن الرشد يتم تنصيبه فارسا فى حفل كبير فى كنيسة القرية أو المدينة يشهده أستاذه الفارس وأعيان القرية ورجال الدين فيها • وأشار الى هذا فى شىء من التفصيل كولتون فى مؤلفه « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » • ويبدأ الفارس الجديد فى التدرج فى السلم الاقطاعى بين طبقة الأشراف •

ويجب أن نفهم أن أبناء تلك الطبقة لم يكتسبوا حقوق الوراثة من حيث اللقب والمركز وما يقترن بهما من ملكية الاقطاع والأرض بصفة ثابتة ومنظمة الا فى القرن الحادى عشر حينما أضحت الفروسية لاتعنى صناعة الحرب والقتال فحسب ، وانما اصطبغت بصبغة النبل وشرف الأصل . وأصبح يتوارثها الأبناء عن الآباء ، كما ارتبطت بالاقطاع من الأرض . وهكذا أصبح الفرسان يكونون مع الزمن طبقة شريفة مستقلة عن باقى الطبقات . وازداد نفوذهم واتسعت سلطاتهم ، وزادت مكانتهم فى المجتمع حتى لم يعد الملك نفسه الا واحدا منهم Primus inter Pares ، أى الأول بين أقرانه فحسب . فالفرسان والسادة الاقطاعيون ملوك فى دوائر اقطاعاتهم ، حتى لقد اعتبروا أن الملك ليس فى الواقع الا واحدا منهم قدموه على أنفسهم . وباتت الفروسية مهنة لايمارسها الا النبلاء الذين ينحدرون من السلالات العريقة بحكم الأصل والمولد وشرف الدم .

(٢) طبقة رجال الدين :

وهى تتألف من هرم تتسع درجاته كلما اتجهنا الى أسفل ، وعلى قمته البابا ثم يتلوه الكرادلة فرؤساء الأساقفة فالأساقفة ورؤساء الأديرة فرجال الدين عموما من كبار الكهنة وصغارهم والرهبان وغيرهم . وكان كل هؤلاء لا يخضعون لسلطة زمنية محلية معينة ، وانما كونوا مع الزمن نتيجة للظروف التى أحاطت بنشأتهم ، طبقة مستقلة قائمة بذاتها لا تنتمى لدولة معينة أو جنس بذاته ، وانما استمدت حقوقها من بين جميع الأمم المسيحية الكاثوليكية فى الغرب الأوروبى ولذا كانوا يتبعون الكنيسة اللاتينية باعتبارها هيئة معنوية عالمية على رأسها البابوية . فقد كان المجتمع الغربى الوسيط وحدة واحدة فى مجموعة له كنيسة واحدة هى كنيسة روما الكاثوليكية ، وعلى رأسها عاهل واحد

هو البابا ، ولها لغة رسمية واحدة هى اللغة اللاتينية • وكان لهذه الكنيسة استقلالها التام فى شتى شئون التشريع والادارة والقضاء ، ولها محاكمها ونظاءها وحصانتها الروحية ضد تدخل السلطات العلمانية فى شئونها أو محاولة الافتئات عليها • وكان رجال الدين فى جملتهم ، ورغم اختلاف مولدهم وبيئتهم يتبعون هذه الكنيسة التى أصبحت لها السيادة على الغرب الأوروبى دينيا ودنيويا ، نتيجة الظروف التى ألمت بالغرب عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، حتى لقد ترتب على ذلك قيام الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية ، الذى شغل أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، والذى انتصرت فيه الكنيسة على السلطة الزمنية ، وان كان هذا النصر يحمل بين طياته عوامل ضعفها وتدهورها وانهيارها الذى بدا واضحا فى أخريات العصر الوسيط •

على أية حال ، نجد أن رجال الدين الذين بدأوا حياة بسيطة متواضعة قوامها الصلاة والطهارة ونقاء النفس والضمير والبعد عن الحياة الدنيا وملذاتها ، بدأوا ينغمسون شيئا فشيئا فى الشئون الدنيوية بعد أن تكاثرت عليهم الأوقاف والمنح والهبات من الأرض حتى أصبحوا الى جانب مهمتهم الدينية التى تنحصر فى رعاية أرواح أتباعهم يمتلكون الاقطاعيات الواسعة المترامية الأطراف وأصبحت الأديرة تشرف على المئات من القرى والضياع التى كانت تنهال عليها من الملوك والحكام وكبار رجال الاقطاع • وأصبح لا هم لرجال الدين الا العمل على زيادة الأراضى الموقوفة على هذه الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية ، وبذا غدا الكثير من رجال الدين يحكمون المقاطعات ويتولون الجيوش فى ساحات القتال بصفتهم أمراء اقطاعيين لا رجال دين • وبات الكثير منهم أمراء علمانيين الى جانب سلطانهم الدينى ، وذلك بحكم الاقطاعات

التى أقطعت عليهم ومايتصل بملكية الأرض من نفوذ وسلطان • وكان هذا بداية سلسلة من التطور فقد فيها الفلاحون الأحرار من رجال الطبقة الثالثة حريتهم آخر الأمر بعد أن أصبحوا فى مرتبة العبيد للسادة الجدد من ملاك الأرض من الفرسان ورجال الدين الذين كانوا يمثلون الطبقة الاقطاعية • ويجب أن نفهم جيدا أنه وان كانت طبقة المحاربين الأشراف فى المجتمع الغربى الوسيط ترتبط بنبل الأصل ، فقد كانت طبقة رجال الدين بعكس ذلك اذ يمكن لأى فرد مهما كانت نشأته الانخراط فى سلكها والتدرج فى مراتبها •

(٣) طبقة العاملين فى الأرض :

وكانت تنقسم بدورها الى فئتين : الرجال الأحرار ، وعبيد الأرض •

أما الرجال الأحرار The free men فقد كان غالبيتهم من سكان المدن ، وقد باشروا مهنة التجارة والصناعة • وكان لكل منهم نقابة ينتمى اليها تسمى Guild أو Unit تهيمن على أمورهم وترعى مصالحهم • وكان الرجل الذى يولد فى حرفة من الحرف محكوما عليه بالبقاء فيها ، يتوارثها عن آبائه وأجداده ، ويورثها أبناءه وأحفاده • وكان الطريق الوحيد للخلاص من مثل هذا الارتباط هو الانخراط فى سلك الكهنوت • (أمثلة من النقابات : نقابات التجار والحدادين والدباغين والسروجية ••• الخ) • وسنعرض للحرف والنقابات بشىء من التفصيل عند الحديث عن المدن •

أما الفئة الثانية فهى رقيق الأرض من المزارعين الذين كانوا حتى القرن التاسع الميلادى أحرارا يملكون قطعا صغيرة من الأرض ويعملون فيها لحسابهم الخاص لا لحساب غيرهم من الفرسان ورجال الدين • ولكن كثرة الحروب والمنازعات ، وظهور العناصر النوردية الشمالية ،

وما أحدثته فى اوروبا من الدمار والخراب ، دفعت المزارع الحر الى أن يضع نفسه وأرضه وذويه وكل مايملك تحت رحمة النبيل الاقطاعى حتى يضمن لقمة العيش وحتى يعيش فى أمن وسلام ٠

وعلى هذا اضطرت هذه الطبقة من الأحرار من صغار ملاك الأرض الى الالتجاء الى طبقة الفرسان المحاربين والى طبقة رجال الدين لحمايتهم من عادية المعتدين نظير التنازل لها عن حريتها القديمة وعن حقوقها فى أرضيها ، حتى أصبح رجالها فى نهاية الأمر مجرد اتباع لمتبوعيهم الجدد ٠ وقد عرفوا فيما بعد باسم الأقنان أو العبيد Serfs وكانوا فى أدنى الطبقات فى السلم الاقطاعى ٠

لقد أوجد هذا الوضع حالة أقرب ما تكون الى القنية والاقطاع ، غدا الرجل الحر فيها هو رجل السيد الاقطاعى الجديد ، سواء أكان من رجال الدنيا أو الدين ، يؤدى له خدمات شبيهة بما يؤديه غير الأحرار وبدأت ملامح النظام الجديد فى الوضوح تدريجيا ، بعد أن أدرك كل فرد أنه يجب أن يضع نفسه تحت حماية سلطة أقوى فى مجتمع أصبحت الغلبة فيه للقوى ٠ ولم تتم هذه التغييرات الخطيرة بين يوم وليلة ، وانما استغرقت عدة قرون الى أن استكمل النظام الاقطاعى نموه وتطوره فى أخريات القرن الحادى عشر ، عندما أصبح الفلاحون الذين يعملون فى الأرض يكونون طبقة من العبيد عرفت باسم Villani لهم حقوق وعليهم واجبات ٠ وكانت الاقطاعيات التى يملكها السيد الاقطاعى وهو السيد اللورد Dominus تكون فى مجموعها ما يسمى بالمانور **Manor** أو الدومين نسبة اليه ٠

ويجب أن نفهم أن هذا النظام الذى عرف باسم النظام الاقطاعى لم يظهر طفرة واحدة ، كما أنه لم يظهر من العدم ، انما كان نتيجة عملية تطور بطىء مستمر استغرق فترات طويلة متباعدة من الزمن ٠ فقد كان فى بادىء الأمر عبارة عن مجموعة من العرف والتقاليد الشائعة،

التى تحولت مع الوقت حتى اتخذت صفة القانون وهيبته وقدسيته • ويقوم هذا النظام على فكرة أساسية هى التابع والمتبوع أو السيد والمسود • فقد كان المجتمع الغربى الوسيط مجتمعا هرميا فى تكوينه على قمته عاهلان الامبراطور ويحكم من الناحية الزمنية ويأتى بعده الملوك الذين يدينون له بالطاعة نظير الحقوق التى اكتسبوها نظريا منه على ممالكهم باعتبارها اقطاعات من قبل الامبراطور • وتلى ذلك طبقه الأشراف فالبارونات فصغار النبلاء فالفرسان • والبابا ويحكم من الناحية الروحية،ويأتى بعده الكرادلة فرؤساء الأساقفة فالأساقفة فرؤساءالأديرة وعامة الرهبان •وهكذا كان الهرم المذكور يتكون من طبقات أفقية تتسع دائرتها كلما نزلنا الى أسفل الى أن نصل الى طبقة الأقنان ورقيق الأرض فى أدنى السلم الاقطاعى ، وكان أفرادها يتبعون من فوقهم وليس من متبوعين دونهم • وكان أفراد كل طبقة يدينون لمن فوقهم بواجبات والنزامات معينة ، كما كانت لهم امتيازات وحقوق خاصة على غيرهم ممن هم دونهم حتى اذا أتينا الى قاعدة الهرم العريضة نجد الفلاحين ورقيق الارض يدينون لمن فوقهم بواجبات التبعية التى لم تكن تعرف أى حدود أو قيود • بينما ليس لهم حقوق أو امتيازات على غيرهم ممن هم دونهم •اذ وقع العبء كله عليهم دون أن يجنوا ثمار جهودهم التى كانت تتمتع بها الطبقات العليا الشريفة • ويحدد ذلك كله نظام الاقطاع الذى سنتتبع كيفية تكوينه ونشأته ومراحل نموه وتطوره وعيوبه ومساوئه ثم انهياره وزواله آخر الأمر •

الموضوع السابع

نظام الاقطاع فى غرب اوروبا

مقدمـــة :

مما سبق يتضح أن النظام الاقطاعى بمعناه المعروف فى القـرون الوسطى لا يكون عصرا مستقلا قائما بذاته ، انما هو مرحلة من مراحل التطور والنمو البطىء التى مربها المجتمع الغربى فى الفترة الوسيطة من تاريخه . ومع ذلك يجب أن نفهم أن اصطلاح الاقطاع Feudalism لم يستخدم فى اللغتين الانجليزية والفرنسية أو فى غيرهما من اللغات الأوروبية الحديثة حتى أخريات القرن الثامن عشر بعد أن وجهت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ عناية العلماء والبحاث الى بعض خصائص الأنظمة القديمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمات مثل « الاقطاع » والنظام الاقطاعى والقنية وما شابهها لها مكانها فى المعـــاجم والقـواميس ، وأصبحت تكون جزءا من حصيلة المصطلحات التى يستخدمها المؤرخون المحدثون . ويقول المؤرخ كارل ستيفنسون فى كتابه « الاقطـاع فى العصور الوسطى » اننا نجد مثل هذه التعبيرات مناسبة عندما نتحدث عن تلك العلاقات المتشابكة المعقدة التى قامت بين الأفراد وبعضهم البعض فى القرون الوسطى . ولذلك أصبحت مهمة الباحث هى العمل على ايضاح معالم النظام بقدر ماتسمح به مصادر العصر ووثائقه .

ان الاقطاع من الموضوعات الصعبة المعقدة التى كتب فيها الكتاب والمؤرخون ، والتى تباينت فيها الآراء والأقوال تباينا عجيبا واضحـا . وسنحاول فيما يلى تعريف هذا النظام وتقريبه الى الأفهام قدر الاستطاعة ويلاحظ أنه وجد تقارب عام فى مظاهر هذا النظام الذى ساد المجتمع الغربى الوسيط فى فترة من تاريخه ، الا أنه وجدت خلافات تفصيلية دقيقة فى شكله فى شتى البلاد وفى مختلف العصور . بمعنى أن النظام الذى عرف فى انجلترا مثلا كان يختلف فى بعض دقائقه عن مثيله فى فرنسا أو اسبانيا ، وهكذا .

واذا أردنا تعريف الاقطاع تعريفا مبسطا فيمكن القول انه ذلك النظام الـذى يرتبط بالأرض ارتباطا وثيقـا . وهـذه الأرض كـان الامبراطور يهبها للملوك ، وهؤلاء يمنحونها للأشراف والنبلاء ، وهؤلاء لمن دونهم ، وهكذا الى أن تصل الى رقيـق الأرض فى أسفـل السلم الاقطاعى .ويتوارث حق استعمال هذه الأرض الابن عن أبيه بعد أن يتعهد القيام بواجباته الاقطاعية لسيده المتبوع . وبعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء قائلا : « اننى أصبح تابعـك ياسيدى وانت ولى نعمتى عن اقطاع كذا وكذا . وانى أعدك بحمايتك والدفاع عنك فى الحياة وحتى الموت » . وقد أصبحت روح الاقطاع هذه العصور الوسطى أساسا لجميع الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

أولا ـ الأركان الثلاثة فى بناء المجتمع الاقطاعى (عناصر تكوين الاقطاع):

لرسم صورة واضحة للنظام الاقطاعى كنظام قائم بين الناس فى المجتمع الغربى الوسيط ، يجب أن نتناول بالدراسة الأركان الثلاثة الرئيسية التى يتكون منها هذا النظام ، وبكلمة أخرى عناصر هذا النظام ، وهى : الجماعات القروية ، ونظام الدومين ، وأحوال عصر النمو الاقطاعى . ويعتبر كتاب الاستاذ كوبلاند عن الاقطاع أحسن مـا كتب فى هـذه الناحيـــــة .

الركن الأول : الجماعات القروية :

(الفلاح ـ القرية أو المجتمع القروى ـ نظام فلاحة الأرض) .

كانت الزراعة وفلاحة الأرض هما قوام المجتمع الاقطاعى ، وكيان غالبيته من الفلاحين الذين اعتمد عليهم ذلك المجتمع اعتمادا كليا ويكفى أنه من الفلاح استمد البابوات ورجال الدين والملوك وسائر سادة المجتمع الاقطاعى حاجياتهم ولوازمهم من مأكل وملبس ومشرب . وكانت القرية هى الدائرة التى عاش فيها الفلاح الوسيط ، ونعنى المجتمع القروى الذى

الذى يتألف من فئة من الفلاحين تعمل بالفـلاحة والزراعة فى مساحة معينة من الأرض ٠

وكان التعاون المشترك بين أفراد هذا المجتمع أمرا ضروريا ٠ والسبب فى ذلك أن الجزء الصالح للزراعة من الأرض كان مقسما الى حصص مبعثرة لاتوجد بينها حواجز تفصلها عن بعضها ٠ وكانت هذه الحصص تزرع وفقا لنظام الحقول الثلاثة ، وخلاصته أن الأرض الزراعية كانت تقسم الى ثلاثة أقسام يزرع منها اثنان فى الدورة الواحدة بينما يترك القسم الثالث غير مزروع ، وتدور على كل منها هذه الدائرة والهدف من ذلك هو اراحة الأرض من ناحية ، واستغلالها قدر الامكان من ناحية أخرى ٠ويلاحظ أن أرض الفلاح لم تكن قطعة واحدة مسورة وانما عبارة عن حصص مبعثرة بين أمثالها من الحصص المملوكة لغيره من الفلاحين ٠ ومساحة الحصة الواحدة كانت تتراوح بين فدان ونصف فدان ٠ والهدف من ذلك هو المساواة بين جميع الفلاحين ، فينال كل منهم جزءا من الأرض الخصبة الصالحة للزراعة وجزءا من الأرض الصلبة غير المنتجة والتى هى فى حاجة الى جهد واستصلاح ٠ وكان من أثر ذلك أن استلزم هذا النظام تضامن الجميع وتعاونهم فى حرث الأرض وزرعها مع ملاحظة أن الأرض وما تغله لم تكن مملوكة ملكية مشتركة فيما بينهم ، بل كل حسب مايملكه من الأفدنة ٠

ولم يلبث هذا المجتمع القروى القديم أن تلاشى كما تلاشى معه أيضا نظام الزراعة المشترك فى أزمنة مختلفة باختلاف الأقاليم ٠ وان كان قد تأصلت جذوره فى الأرض ، فعاش الفلاح بعد ذلك طوال عصر الاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط يحرث أرضه ويفلحها على نظام شبيه بنظام الحصص المبعثرة وفقا لنظام الحقول المكشوفة القديم ٠ ونجد فى وثائق العصور الوسطى كدفاتر الضرائب وسجلات أملاك النبلاء

آلاف الأمثلة على الحصص التى يشغلها الأفراد ومساحتها وحدودها من جهاتها الأربع ٠

الركن الثانى : الدومين :

(نظام الدومين - أحوال الأفراد الذين يعيشون فيه)

ومعنى الدومين فى مصطلح العصر الوسيط هو أملاك السيد الاقطاعى من أراض وأبعاديات وغيرها ٠ ويشير الأستاذ كوبلاند G. W. Coopland فى مقالة عن الاقطاع الى وثيقة فرنسية هامة يرجع تاريخها الى أوائل القرن السابع الميلادى ، وهى وصية كتبها برترانوس Bertranus اسقف لمان Le Mans سنة ٦١٥ م أورد فيها صاحبها بيانا بما تحت يده من ممتلكات لاتقل عن ثمانين ضاحية مبعثرة فى انحاء مختلفة من فرنسا ٠ والوثيقة المذكورة تلقى الضوء على العصر الثانى فى تكوين الاقطاع ، لأنها تدل على تملك السيد الواحد لعدد من الضواحى المبعثرة هنا وهناك ، والتى تختلف مساحتها وأحجامها وأماكن وجودها ٠ وكان يوجد الكثير من مثل هذه الوثيقة ، وكلها خاص بالفترة الممتدة خلال القرنين الخامس والسادس ، وهذا يعنى أن عصر الفرنجة فى اوروبا كثر فيه كبار الملاك والممتلكات الواسعة المساحات ٠ ومن هذه الوثائق نعرف أيضا أن القرية فى ذلك العصر كانت بيد مالك Dominus أو سيد Lord ، وان نظام التمليك الذى انتشر وقتذاك جاء فوق أنقاض نظام أقدم عهدا منه ونعنى به نظام المجتمع القروى ٠

وكان نظام الدومين فى العصر الاقطاعى الذى ساد اعتبارا من القرن الخامس فصاعدا ، يتلخص فى أن الأرض الزراعية كانت تنقسم الى قسمين ينتفع السيد المتملك بأحدهما ، ويوزع ثانيهما بين المزارعين حصصا مبعثرة مقابل ما يؤدونه للسيد من أعمال الزرع والحرث

والحصاد فى الأرض الخاصة به . وكانت توجد أرض المالك احيانا فى ناحية وارض الفلاحين فى ناحية أخرى ويجوز أيضا أن تقع أرضه حصصا مبعثرة بين حصص أتباعه من الفلاحين . وتكشف دفاتر العصور الوسطى وسجلاتها عن ذلك .

وكان الأفراد الذين يعيشون فى هذا الدومين فى غرب أوروبا فى العصر الاقطاعى يتبعون السيد اللورد تبعية تامة . ومنهم من كانوا فى طبقة العبيد Serfs ومنهم من كانوا فى حالة قريبة من حال المزارعين الأحرار Freemen وقد ازدادت مع الزمن سلطة هذا السيد حتى انه أصبح حائلا بين أهل الدومين وبين الحكومة المركزية . فكـــان له الحق فى فرض الضرائب ، وبيده القضاء والحكم والادارة المحلية . وهكذا باتت كل وحدة صغيرة تقوم على حاجاتها بنفسها ، مما يدل على أن المجتمع الغربى الوسيط قد أوغل فى أوضاع الاقطاع قبل أن يصبح نظاما مقررا ثابتا بين التابع والمتبوع ، حسبما سيتضح من تطوره فى الركن الثالث والأخير .

الركن الثالث : عصر التمهيد للنظام الاقطاعى ونموه واكتماله :

استغرق النظام الاقطاعى فى طور النمو القرنين التاسع والعاشر ، وكان الغرب الأوربى خلال هذين القـرنين مسرحا لأحداث سياســية واضطرابات اجتماعية كبيرة ،وقد تميزت هذه الفترة بأنها عصر الغموض والظلام ، خاصة وأنه ليس لدنيا من مصادرها كاتب معاصر واحد يمكن أن تستشف من كتاباته شيئا ينير لنا الطريق فى هذا السبيــل المظلم. ولتسهيل فهم هذا الركن يمكن تقسيمـه بدوره الى عصور ثلاثـة هى عصر التمهيد للنظام الاقطاعى ، وعصر نموه ، وعصر نضجه واكتماله .

(١) العصر الأول : عصر التمهيد للنظام الاقطاعى :

لقد مهدت لهذا النظام الذى شغل فى مرحلته التمهيدية هذه مدة القرنين السابع والثامن ، وأخرجته الى حيز الوجود ، عدة مقدمات تتعلق

بأحوال عصر الكارولنجيين فى أوروبا ، ومن أهمها التطور العـــام نحو المحلية ، والبعد عن فكرة الحكومة المركزية نتيجة العوامل التى أشرنا اليها فى العنصر السابق ، ثم ماأنشأه الأباطرة الكارولنجيون من حكومة وسعت نظمها كل ما تأصل بالغرب الأوروبى من تطور نحو المحلية وكان مما سهل السبيل لقيامه تلك السلـــطات الكبيرة التى خولهـــا الامبراطور شارلمان لنوابة الاقليميين ولمرؤوسيهم · هذا ، بالاضـــافة الى ما اعتاده الأباطرة الكارلنجيـــون وملوكهم من تنسـيم ملكهم أنصبة بين أولادهم ، ومن منح صكوك الاعفاء التى جعلت اصحابها سواء أكانوا من رجال الدنيا او الدين بمنأى من تدخل عمال القضاء والضرائب من موظفى الدولة · ولم تكد تمضى فتـــرة قصيرة بعد موت الامبراطـــور شارلمان الذى حاول قدر الاستطاعة اظهار هيمنة السلطة المركزية على جميع شئون الحكم والادارة بكافة الأقاليم الداخلية فى نطاق امبراطوريته المترامية الأطراف حتى بدت الامبراطورية عاجزة عن اتخاذ سياســة موحدة ضد اغارات النورديين الشماليين الذين أخذوا يهددون أطراف الدولة ·فكان زوال شخصية هذا الامبراطور وما تبع ذلك من ضعف فى الادارة المركزية ، ومن تصدع الامبراطورية ، من العـــوامل التى ساعدت على ظهور عصر الاقطاع · يضاف الى مـــا تقدم عامــل خارجى يتلخص فى غزوات الشماليين وفتوحات العرب فى غربى اوروبا (خلال القرنين التاسع والعاشر) ، وهم ممن اعتادوا فى أوطانهم الأولى المعيشة المحلية والالتفاف حول زعيم من زعمائهم ·

٢) العصر الثانى عصر النمو الاقطاعى :

ويشغل كما اسلفنا مدة القرنين التاسع والعاشر ، وهو أكثر هذه العصور تعقيدا وصعوبة على الفهم ، وان كانت أهميته تقل عن العصرين الأول والثالث فيما يتعلق بشرح أسس النظام الاقطاعى وظهوره واكتماله وقد شغل الناس فى عصر النمو هذا بتنظيم أنفسهم جماعات محليــة

مستهدفين فى ذلك الوقاية والأمن والسلامه لهم ولذويهم وعائلاتهم . فكانت العلاقات السائدة بين الأفراد وقتذاك هى نـوع من العلاقـات الشخصية التى تنشـأ بين القـوى والضعيف ، ومصدرهـا الأرض ، بطبيعـة الحـال . ولذلـك لم يكن ظـروف هذا المجتمـع القلق غير المستقر فى مثل ذلك الدور الانتقالى تسمح له بالتفكير فى قوانين يصيغها أو يسير عليها ، اذ جعلته أحواله فى شغل عن ذلك .

٣) العصر الثالث : دور النضج والكمال فى النظام الاقطاعى :

وهو يشغل مدة القرنين الحادى عشر والثانى عشر عندما تلاشت الحكومات المركزية فى الغرب الأوروبى وعندما تحول ولاء الجماعات من تلك الحكومـات الى بعض السـادة المحليين الذين أسسوا أسرات اقطاعية كبيرة ترجع أصولها الى عصر النمو الاقطاعى ، وعندما أصبـح امتلاك الأرض مقترنا بحق الحكم للسيد فيمن يكون بتلك الارض من الناس ، فكان أن نشأت بين السيد والمسود علاقـة قوامهـا جملة من التعهدات والالتزامات المتبادلة بينهما ، تلك العلاقة التى أصبحت القاعدة التى سارت على مقتضاها أمور الحكم والامن التى تتطلبها الحياة فى ذلك المجتمع الجديد . والخـلاصة أن الحكومة المحلية حلت محـل الحكومة الملكية المركزية وأمست الحكومة السائدة فى طول البـلاد وعرضهـا .

وقد وصف أحـد المـؤرخين الفرنسيين المحدثين ويـدعى جـيرار Guerard المجتمـع الاقطاعى فى طور نضجه وتمـامه ، فقال أن الأرض كانت أساس المجتمع ، وان من كان ذا أرض صارت له بالتبعية أحقية فى السلطة .

تلك هى الصورة العامة للعـلاقات الاقطـاعية فى ذروة العصر الاقطاعى ، ومع ذلك يجب ألا نغفل أن علاقات التبعية الشخصية كانت لها أصولها القديمة التى ترجع الى أيام الرومـان والكلت والجـرمان والتى أسهمت بنصيب كبير فى المصطلح الاقطاعى .

وكان هذا المجتمع عندما اكتمل نموه يشبه شكلا هرميا حسبما أسلفنا . وهو يتألف من طبقات أفقية تتسع كلما نزلنا الى أسفل وكان على قمته الامبراطور فالملوك • وتلى ذلك طبقات الدوقات فالكونتات فالبارونات ، ثم الفرسان ثم طبقة المدنيين • وفى أسفل القاع طبقة الأقنان والعبير من العاملين فى الأرض الزراعية • وتربط الجميع علاقة قوامها تبعية الفرد فى طبقة ما لمن فوقه • هذا مع العلم بأن الأقنان والعبيد من العاملين فى الأرض الزراعية • وتربط الجميع وقع العبء كله عليهم • ولم تنشأ هذه الطبقات على مراحل أو فى أزمان مختلفة ، وانما تكونت فى آن واحد تقريبا • ثم صحبتها سلسلة من التطورات البطيئة التى جعلت منها جسما هرميا واحدا •

وعلى هذا يمكننا تفهم عصر الاقطاع على أساس الاركان الرئيسية الثلاثة السالفة الذكر ، وهى بقايا المجتمع القروى.وآثار نظام الدومين، وأحوال عصر النمو الاقطاعى • وكان يربط بين هذا المجتمع الاقطاعى التشابه العام فى مختلف الاقاليم ، مع وجود اختلافات محلية صغيرة من اقليم لآخر وفى مختلف العصور • وبمعنى آخر فقد بدا هذا النظام فى مسوح مختلفة باختلاف البلاد والظروف والأزمان التى ينشأ فيها • أى أن الاقطاعية النموذجية لاوجود لها • واننا فى الواقع لانجد هذا المثال النموذجى للحكم الاقطاعى الا أيام الحركة الصنيبية عندما حمله الفرنج معهم كما عرفوه فى اوروبا الى الاراضى المقدسة التى اغتصبوها من أهلها أثناء العدوان الصليبى وفرضوه هناك على غير أساس فى أرض أجنبية عنهم •

الأشياء التى كان المجتمع الاقطاعى فى حاجة اليها :

واذا أمعنا النظر فى المجتمع الاقطاعى نجد أنه لم توجد فيه دولة ، ولم تكن هناك أمة أو قومية وغيرها من لزوميات الأمم بالمعنى المفهوم كاللغة والآداب والتقاليد والجيش القومى • ولم يكن هناك أيضا

ما يسمى بالثروة العامة أو رؤوس الأموال النامية كما هو الحال فى الدول الحديثة ، لانه كان مجتمعا يعتمد أساسا على الارض وما تغلـه وعلى واجبات التبعية • ولهذا كان المجتمع الاقطـاعى عرضة للتقلبات والويلات والحروب المريرة المستمرة،ونهباً للأمراض والأوبئة والمجاعات التى كانت تحل به بين الحين والحين •

لقد كان المجتمع الاقطاعى مجتمعا قوامه المحلية المتغلغلة فى كيانه، ويقوم على تلك العادات والتقاليد التى اعتادها وألفها واطمأن اليها • ومن الكتب المؤلفة فىالقرن الثالث عشر نعرف أن أنواع النقود والعملات والمكاييل والمقاييس المستعملة قد اختلفت هى الاخرى باختلاف البلاد • فما وجد فى باريس مثلا يختلف عما وجد فى شارتر أو لمان أو اورليانز او ارتوا وغيرها من المدن الفرنسية ، وما وجد فى فرنسا نفسها يختلف عما وجد فى انجلترا أو المانيا أو بلجيكا وهكذا •

لقد كان المجتمع الاقطاعى مجتمعا غريباً فى كل شىء ونلمس ذلك فى حالة وقوع جريمة ما • هنا تثور عدة مسائل معقدة متشابكة • فمن مثلا يكون له الحق فى القبض على المجرم ومحاكمته ، وكيف يكون تنفيذ الحكم • ويتصل ذلك بالأرض ، والمكان الذى وقعت فيـــه الجريمة ، والشخص الذى تدخل هذه الأرض فى سلطته وهل هو رجل علمانى أو هيئة دينية • واذا صدر الحكم بالاعدام شنقا ، كان تعيين مكان المشنقة وصاحب الحق فى متروكات المحكوم عليه اهم من تنفيذ الحكم نفسه ، وما الى ذلك من أمور تبدو اليوم غريبة لنا تماما • وقد أفاض الأستاذ كوبلاند فى الحديث عن هذه الناحية •

حياة البارون فى عصر الاقطاع :

قبل الحديث عن بارون العصر الاقطاعى ، يجب أن نعرف أن هناك فارق كبير بين الأرض التى يرثها البارون عن آبائه وأجداده أو التى

يتملكها عن طريق الهبة أو الشراء ، وبين تلك الأرض التي يمنحها فرد لآخر ليعمل فيها بموجب شروط وخدمات معينة يتم الاتفاق عليها بين الطرفين . وفي الحالة الثانية ، وهي المتعلقة بالاقطاعية ، تظل ملكية الأرض بيده طالما هو على ولائه لسيده اللورد . أما اذا أخل بأحد شروط القسم الاقطاعي ، فانه من حق السيد استرداد أرضه من تابعه . واذا أعقب السيد صاحب الاقطاع ابنا ، يؤدي التابع له تلقائيا واجبات التبعية . واذا مات التابع يخلفه في الآرض ابنه بموجب نفس الشروط والالتزامات ، أي بعد أداء واجبات التبعية للسيد المتبوع ، وهكذا جرت العادة أن يقوم السيد اللورد باعطاء تابعه عصا أو سكينا أو أي شيء رمزي يعني امتلاكه الرسمي لقطعة الأرض .

وعلى أي حال ، فقد كان البارون الاقطاعي يمتلك قطعة من الأرض ، وهي التي يمنحها له السيد اللورد مقابل قسم خاص يؤديه له ، ويتعهد فيه القيام بخدمات حربية معينة كلما طلب منه ذلك ، والمثول أمام محكمة سيده الخاصة بالفصل في قضايا التابعين له . وكان من حق اللورد استرداد أرضه اذا أخل البارون بأحد شروط القسم الاقطاعي ، أو مات دون أن يترك وريثا له . وكانت هناك ضريبة معينة تدفع عندما يتولى على الاقطاع سليل جديد من سلالة البارون .

وكان البارون في الواقع من فئة صغار النبلاء ، كما كان التوزيع الاقطاعي في تغير مستمر ، بمعنى أن القرية كانت تشتمل أحيانا على اقطاعيات عديدة للوردات مختلفين . ومن الجائز أن تشمل أرض البارون الواحد على أجزاء تكون منحا من لوردات مختلفين وبشروط وتعهدات مختلفة أيضا . ونشأ عن ذلك بطبيعة الحال اشتباك الحقوق والمصالح وتضارب السلطات . ونجد في موسوعات العصور الوسطى وفي كتب القوانين الكثير من المسائل المتعلقة بحقوق البارون وواجباته .

وبموجب النظام الاقطاعى كان البارون هو الحاكم فيما يملكه من أراض ومن عليها من السكان · ولكن شئون الحكم لم تكن تشـــغله كثيرا ، بل تركها لوكيل ينوب عنه فيها ، يعرف باسم فيكاريوس ·

وكان من اولى الواجبات الاقطاعية التى وجه لها البارون اهتماما خاصا هى الحرب · وسيان عنده أكان ذلك تحت راية سيده فى حملة صليبية ، أو فى مبارزة لاثبات براءته من تهمة الخيانة الموجهة اليه ، أو المساهمة فى حلف اقطاعى ضد الملك أو الامبراطور ، أو مســاعدة الكنيسة فى اخماد حركة من حركـات الهرطقة التى كثـــر انتشارها وقتذاك ، أو لمجرد اشباع هوايته فى القتــال وسفك الدمـــاء · وقد تحمس البارون لذلك الواجب تحمسا كبيرا · ففى ساحة الوغى يبرز ما تعلمه من فنون الحرب ، ويعـــود الى دياره مكللا بالغـــار فى حالة انتصاره · ومن هنا كانت الفروسية جزءا لا يتجزاء من حياة البارون الاقطاعى ·

وكان لكل بارون قصر يعيش فيه · وقصر البارون العادى هـو حصنه المنيع وملاذه الذى يلجأ اليه اذا دعت الضرورة الى ذلك · وقد أصبح القصر فيما بعد مركزا للسلب والنهب ، ولمقاومة النظام العام ، ووسيلة للاستبداد والطغيان · ولذلك كان القضاء على هذه القصــور فى أواخر العصر الوسيط ايذانا بانهيار عصر الاقطاع وبداية عصـــر جديد فى اوروبا ، أما قصور كبــار البارونات فلها وضـــع آخر ، اذ تعتبر نواة التطورات الدستورية المعروفة ؛ وتستمد كثير من الأنظمة الحديثة كالدواوين الحكومية والادارة وما الى ذلـك أصولهـــا منها · ونضرب مثلا لذلك بكل من البارون الكبير هيوج كابيه الفرنسى الذى بسط نفوذه على فرنسا كلها ، والبارون وليم النورمانى الذى جعل من انجلترا دولة واحدة موحدة والذى نشأت فى بلاطه الأنظمة النيــابية التى نمت وتطورت وتوارثتها كثير من دول العالم ·

هذا ، ولما كان البارون جنديا فى الأصل ، وصناعته هى الحرب والقتال ، فقد كانت الحاجة اليه شديدة أيام الحروب والاضطرابات ، ولكن لما قلت هذه الحروب وخفت حدتها قلت بالتبعية الحاجة للبارون وبات عالة على المجتمع الذى عاش فيه ·

الحروب الاقطاعية :

واستطرادا للحديث عن الحرب والفروسية باعتبارهما من أولى واجبات البارون الاقطاعى ، نقول انه بالرغم من أن الجيش الاقطاعى كان يشمل أحيانا فرقا من رماة السهام والمشاة ، الا أنه كان فى معظمه يتألف من الفرسان وهم من المقاتلين الذين ينحدرون من أصل عريق ويحاربون من فوق ظهور الخيل · وكانت شجاعة الفارس نوعا من المغامرة الهوجاء ،وولائه هو ولاء التابع للسيد اللورد · وكانت مصالحه الخاصة لها اعتبارها ، لاسيما اذا تعلق الأمر بالغنائم والأسلاب والحصول على فدية عن الأسرى · ومن ثم اذا تقابل جيشان اقطاعيان ، كان بوسع كل فارس التصرف حسبما يحلو له · أما النتيجة النهائية فتعتمد على سلسلة من المبارزات التى يحددها عامل الشجاعة الفردية · وكانت الحروب بمعناها الواسع المألوف نادرة الوقوع فى اوروبا الاقطاعية · كما تميز القتال فى ذلك العصر بشن الغارات على أراضى العدو بقصد السلب والنهب ، أو قيام المناوشات بين جماعات قليلة العدد من الفرسان ، أو المنازلات والمباريات الفردية ، أو المعارك المتعلقة بحصار المعاقل والحصون ·

الحصون والقلاع فى العصور الوسطى :

وما دمنا نتحدث عن البارون وقصره باعتباره الملاذ الذى يحتمى به ، فيجب أن نشير الى حصون وقلاع العصر الوسيط ، وأهميتها فى القاء الضوء على النظام الاقطاعى ·

ان كلمة Castle الانجليزيـة ومرادفتها Chateau الفرنسية و Burg الألمانية ، مستقاة من المصطلح الفرنسى القديم Castel ومن اللاتينية Castellum ، أى قلعة أو حصـن ، وهى تصغير لفظ Castra وتعنى الكلمة الأخيرة « معسكر » • وكانت القلعة الكبيرة فى أخريات عهد الامبراطوزية الرومانية ، عبارة عن معسكر مبنى بالحجارة تقيم فيه الحامية الرومانيـة ، ومساحته حوالى ٥٠ فدانا • فى حين أن القلعة الصغيرة كانت تبلغ مسـاحتها حوالى خمس مساحة المعسكر أى حوالى عشرة أفدنة • وكان الغـزاة الجرمان المتبربرون يطلقون هذه التسميات اللاتينية على أى موقـع حصين حتى ولو كان مدينة مسورة •

وقد ظل استخدام هذه المصطلحات فى العصور التالية عنـدما أقام الحكام المحليون فى بداية العصر الوسيط المعاقل والاستحكامات الجديدة • ويوجد منها نوعان متميزان : قـلاع بدائية عثر عليها فى انجلترا وفى القارة الأوروبية أيضا فى فترة العصور الوسطى المبكرة ، وهى تقليد جاف للقلاع الرومانية القديمة • وكانت القلعة عادة عبارة عن قطعة من الأرض مساحتها حوالى ٣٠ فدانا ، يحيط بها خنـدق ومجموعة من المتاريس وسور من أوتاد خشبية • وبالرغم من أن مثـل هذا البناء كان يصلح كمركز لاقامة السيد النبيل (أى الأمير) ، فقد صمم بطريقة تجعل منه ملاذا يلوذ به عند الضرورة • وكان سـكان الجهات المحيطة بهذا البناء يحتمون به هربا من اغـارات الفيكنـج والهنغار على البلاد • أما النوع الآخر فهو تلك القلاع التى طـورتها فرنسا بما أدخلته عليها من تحسينات فى القرن العاشر • وكانت صغيرة نسبيا ، وتشغل مساحة تقل عن ستة أفدنة ، وتنقسم من الداخل الى قسمين أحدهما مرتفع والآخر منخفض • والقسم المرتفع عبارة عن تـل محاط بأوتاد خشبية تحميه من غائلة المعتدين ويتوسـطه برج خشبى كبير ويطلق على هذا التل اسم Motte • أما القسم الآخر فهـو

عبارة عن مساحة فسيحة منخفضة تحيط بها الخنادق المملوءة بالماء ، وجسر يمكن فتحه وغلقه حسب الحاجة والضرورة ، وسور من الأوتاد يحيط بثكنات العسكر واصطبلات الخيل ومخازن الحبوب ، ويطلق على هذا القسم لفظ Bailey . وكان يستخدم أثناء القتال باعتباره خط الدفاع الأول عن القلعة ، ويمكن عند الضرورة انسحاب المدافعين منه الى الرابية بخطوط دفاعها العديدة وتحصيناتها القوية وبرجها الذى يتوسطها . وبالرغم من أن الهدف الرئيسى للقلعة هو خدمة الأغراض العسكرية ، فقد كانت الى جانب ذلك المقر الدائم للبارون أو السيد اللورد . فكان يقيم هو وعائلته فى الطبقات العليا منه . وكان مسكن السيد مقسما بحيث يشتمل على قاعة فسيحة وكنيسة صغيرة وعدد من الحجرات الصغيرة . وفى أعلى القلعة يوجد مكان صمم خصيصا لرمى القذائف على العدو . أما مخازن السلاح فتوجد بالطابق الأول ، وكذلك القوات التى تتولى حراسة المدخل . وفى الطابق الأرضى أو البدرون يوجد بئر وغرف لحفظ المأكولات .

واهمية هذه القلاع التى لاتزال آثار بعضها باقية الى اليوم ، تنحصر فى أنها تلقى الضوء على الاقطاع والاقطاعية فى القرون الوسطى ، وبالرغم من انه يمكن أن تختبىء بداخلها أعداد غفيرة من الناس فى أوقات الحروب والاضطرابات ، فقد روعى فى تصميمها ان يقيم فيها السيد الاقطاعى وحامية من أتباعه بصفة دائمة ، بمعنى ان تشغلها جماعة من المحاربين المحترفين . وان مثل هذه النماذج من وسائل الدفاع كانت تعتبر من لوازم النظام الاقطاعى ، حتى أنه يمكن تتبع نمو هذا النظام واتساع دائرته واكتماله ثم انهياره فيما بعد ، من بقايا تلك القلاع الوسيطة التى لاتزال ماثلة حتى يومنا هذا . وقد صاحب تقدم النورمان فى الجزيرة البريطانية فى أواسط القرن الحادى عشر اقامة مالايقل عن خمسمائة قلعة من النوع السالف الذكر . مع ملاحظة أنه وجدت اختلافات طفيفة فى النمط والأسلوب باختلاف

الأماكن والأزمان مع وجود تشابه عام في مظهر تلك القلاع في مختلف البلدات الاقطاعية في المجتمع الغربي الوسيط · وقد بقى أسلوب البنا ءكما هو دون تغيير حتى بعد أن حل الحجر محل الخشب في عملية البناء · وكانت أول قلعة حجرية تبنى فى الغرب فى القرون الوسطى عبارة عن صورة طبق الأصل أو نسخة مكررة من القلاع الخشبية القديمة ، ولها أبراج قائمة الزوايا مقامة بعيدا عن الأسوار المحيطة بالقلعة نفسها · ولاشك أن القلاع المستديرة الشكل والحصون التى توجد الأبراج فى جوانبها تنسب الى الفترة الواقعة بعد عام ١٢٠٠ م ·

وسائل اللهو والتسلية التى مارسها البارون فى اقطاعه :

كان كل بارون أو نبيل اقطاعى يمتلك قلعة خاصة به · بينما أقام الفرسان العاديون وأتباعهم الذين يوجدون فى أسفل السلم الاقطاعى ، فى مساكن عادية محاطة بأوتاد وهى من أملاك البارون · وقد أمضى كبار رجال الاقطاع الشطر الأكبر من العام داخل اقطاعياتهم ، وليس فى قلاعهم التى يفصل بينها وبين أملاكهم مسافات بعيدة شاسعة · ويمكن القول ان السبب فى ذلك لم يكن بقصد الاشراف عليها وتولى ادارتها ، ولكن لأن معظم ايراداتهم كانت تتألف من الأرض وماتغله · وكان أهون عليهم اتلافها عن نقلها الى قلاعهم النائية بسبب صعوبة الطرق والمواصلات وبعد المسافة · وطبقا للنظرية الاقتصادية التى سادت فى العصور الوسطى المبكرة ، كانت الزراعة وفلاحة الأرض وسيلة هامة من وسائل العيش وكسب الرزق ، ولم يكن يعادلها فى ذلك أى عمل آخر · وخلاف ذلك ، فقد كانت حرفة السيد الاقطاعى الحقيقية هى القتال ، تلك الحرفة التى ورثها عن أجداده البرابرة الجرمان ·

ولكن الحرب وشئون الحكم والادارة لم تكن لتشغل البارون عن ملاهيه الخاصة ، وكان من أهمها الصيد ، واقامة الولائم وتعاطى الشراب ، ولعب الميسر والشطرنج ، والاستماع الى الرواة والقصاصين ، والى الأغانى ، ومشاهدة التمثيليات الدينية ·

ولكن بمرور الزمن وبعد أن قلت الحروب الاقطاعية التى كانت اوروبا مسرحا لها فى العصور الوسطى المبكرة ، بدأ البارون يمل حياة الدعة والهدوء التى لم يتعود عليها من قبل · فلم يكن أمامه أفضل من ألعاب الفروسية والنزال والمبارزات الفردية ليستعيض بها عن تلك الحروب التى ألفها وتعود عليها ·

لقد كانت الرياضة المفضلة عند البارون وغيره من أفراد الطبقة الأرستقراطية هى القتال بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى · مع ملاحظة أنن هذا القتال كان يعلن عنه جهارا جريا على العادة المتبعة · وهناك تقاليد مرعية يجب اتباعها بدقة · كما كانت هناك اجراءات وشروط معينة يتفق عليها مقدما بين الفريقين قبل المباراة · فيتم تحديد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان فى أغلب الأحيان ضاحيتين متخاصمتين ، ويكون الحكم أحد السادة النوردات من الفرسان · وينتظم المتبارون بملابس الحرب صفوفا وهم على ظهور خيولهم على طول جانبى ساحة المعركة · وعند اعطاء اشارة معينة يبدأ العراك عن بعد · واذا انكسرت السهام والرماح ، يواصلون المعركة وجها لوجه بسيوفهم الى أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه · ولا داعى للقول ان هذه الهواية كانت لعبة خطرة تراق فيها الدماء وتزهق الأرواح · ومع ذلك فقد كان المنتصر ينال شرفا كبيرا ، فضلا عن الأسلاب والغنيمة · اذ كان من حق الغالب الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه ، مالم يستردهم الأخير مقابل مبلغ معلوم من المال · والخلاصة ان رجال العصر الاقطاعى ، وعلى

رآسهم السادة اللوردات والبارونات ، حاربوا بقصد اشباع رغبتهم في القتال ، وليس بأسلحة مثلومة لينة من أجل النساء حسبما يقــول المؤرخ كارل ستيفنسون في كتابه عن الاقطاعية في العصور الوسطى ٠

القن والقنية ووسائل الخلاص منها أو رقيق الأرض ووسائل الخلاص من عبودية الاقطـــــاع :

كانت طبقة السادة الاقطاعيين من رجال الدنيا والدين تكــون نسبة ضئيلة من المجتمع الاقطاعى الذى انحدر معظم أهله من طبقـات الأتباع ٠ وقد حدث كثير من الانخفاض والارتفاع بين تلك الطبقـــات خلال مرحلة النمو الاقطاعى الذى أشرنا اليه من قبل ، حتى أصبـــح معظم أهل الريف الذين عاشوا فى مدة تمامه واكتماله فى حال أقرب الى العبودية منها الى الحرية ٠ وبات الفلاح الحر عبدا نتيجة للظـروف التى ألمت بالقرية خلال القرنين التاسع والعاشر ٠ هذا ، مع مراعـــاة الاختلافات وتطور الأحوال بمختلف الأزمنة والأمكنة ٠

فالقن هو فلاح يعيش على قطعة من الأرض يمنحها اياه ســيده اللورد أو البارون صاحب الدومين ٠ وهو مربوط بهذه الأرض ارتباطا مباشرا وثيقا بموجب واجبات التبعية التى لاتعرف حدا ٠ اذ جـــرت العادة أن يقدم التابع بين يدى السيد المتبوع يمين الطـــاعة والتبعية Homo, homagium ، ثم يؤدى بعد ذلك يمين الولاء والاخـلاص ويسمى Fidelitas ٠ ويبدأ ذلك بأن يركع التابع أمام ســيده واضعا يده فى يده ، معتبرا نفسه رجله ، مدافعـــا عنه ضد الجميع ، فى الحياة وحتى الموت ٠ ثم يقول السيد اللورد انه قبل فلانا تابعـا له ٠ ويأخذه من يده حتى يقف ويقبله وفقا للعادة المتبعة ٠ وبعد هذه الاجراءات يؤدى التابع يمين الولاء والاخـلاص فيحلف على الكتـــب المقدسة والآثار الدينية بما يؤكد الوعد الذى قطعه على نفســه ٠ ولم تكن هناك بطبيعة الحال صيغة معينة لهذا القسم ، وان كان لا يخــرج

فى جملته ومضمونه عما ذكرناه · والمهم أن الاجراءات المتعلقة بالتبعية ظلت كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغيير · وكانت مثل هذه المراسيم تسبق دائما أداء يمين الولاء ·

وجدير بالذكر أن الاجراءات المشار اليها كانت تتم فى احتفال واحد ذى شقين ، وليس فى احتفالين مستقلين عن بعضهما · وكـــان يمين الاخلاص يضفى على اجراءات التبعية صيغة الالزام ، لأن الشخص لايمكن أن يصبح تابعا ما لم يعد بأن يكون مخلصا لسيده · ولدينـــا أمثلة ترجع الى القرن الثامن تثبت أن اجراءات التبعية كانت معــروفة عند الفرنجة ، ولعلها كانت أقدم من ذلك · ويبدو أن الاحتفـــال كان فى جوهره خاضعا للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التى تقضى بدخول الفــرد تحت رئاسة زعيـــم القبيلة أو العشيرة · أما يمين الولاء فقد استحدث نتيجة لتأثير الدين المسيحى · ومع ذلك فلم يكن كافيا وحده لايجاد رابطة التبعية · وكان يطلب من الرعايا الأحرار أيام الكارولنجين ، كما كان الحال فى عصر متـأخر ، أداء يمين الولاء للحاكم ولو لم يكونوا أتباعا له · ونخلص من هذا أن يمين الولاء لا يعنى التبعية ، فى حين أن المبايعة والتبعية كانتا تدلان ضمنيا على الولاء والاخلاص للسيد المتبوع ·

والمهم أن يمين التبعية والولاء التى كان الفلاح القن يؤديهـــا للسيد اللورد لا تعرف حدا · فلا يجوز له مثلا التزوج من جهة خارج الدومين التابع له الا بموافقة سيده · وعليه أيضا الخدمة فى أرض متبوعة عن طريق السخرة ، أما الجزء الباقى من مزرعة السيد اللورد فكان يوزعه عليهم قطعا صغيرة مبعثرة يزرعونها مقابل شروط فى منتهى الشدة والقسوة ، منها أنهم يقـــومون بدفع الضرائب الباهظـة التى يفرضها عليهم سواء نقدا أو عينا ، ويطحنون غلالهم فى طاحونتـــه الخاصة ، ويخبزون عيشهم فى أفرانه ، ويعصرون نبيذهم فى معاصره ،

ويبيعون محاصيلهم بمقتضى موازينه ومكاييله ، ويدفعون الأجـور التى كان للسيد وحده مطلق الحق فى تحديدها حسب رغبته وميوله وأهوائه ٠

ثم كان على الأقنان بعد كل هذا دفع الأجور وليس لهم حق مناقضتها ٠ فضلا عن ضرورة التقاضى فى محكمة النبيل بالأجور التى يقرزها هو ، ودفع الغرامات المالية التى يفرضها عليهم ٠ وفوق هذا وذاك ، فقد كان على التابع القيام بدفع مبالغ معينة لمتبوعه اللورد فى حالة الزواج أو اذا جاءه مولود أو مات له أحد ، وذلك رمزا لتبعيته الشخصية له ٠ كما لم يكن للأقنان حق تزويج أبنائهم وبناتهم بدون اذن سيدهم ٠ ثم أنه من حق صاحب الدومين التصرف فى تابعه بالبيع أو الشراء أو استبداله بآخر اذا شاء ذلك ولم يكن يسمح للقن بترك الأرض الا بمشيئة السيد المتبوع ، ولو أن القن لم يفكر يوما فى تركها لأنها المورد الوحيد له ولعائلته وذويه ، وبالرغم من الالتزامات التى كانت تثقل كاهله والتى عانى منها الكثير ٠ وحتى اذا ترك الأرض فسوف يقع فريسة لسيد اقطاعى آخر لا يقل عن الأول قسوة وضراوة ٠ وبالمثل لم يفكر صاحب الدومين فى طرده من الأرض لأنه يعتمد عليه كلية فى حرثها وفلاحتها ، ولولاه لأصبحت بورا قاحلة ٠ هذا ، فضلا عن مختلف الخدمات التى يؤديها الأقنان فى أرض السيد الخاصة ٠ لذلك لم يكن من مصلحته التفكير فى طردهم منها ٠ وعلى هذا ظل الأقنان فى أراضيهم خلفا عن سلف ، وأصبح النبيل حرا فى استنزاف جهودهم واستغلالهم والاستبداد بهم الى اقصى حد ممكن ٠

وكانت وسيلة القن الوحيدة لكى يدفع عنه هذا الظلم والعدوان هى مطالبته بأن يطبق ماجرى به العرف والعادة والتقاليد فى تلك العصور ، والتى كان لها قوة القانون واعتباره ٠ ويمكن القول أن

حقوق رقيق الأرض كانت محـدودة جدا ، ولعل من أهمهـــا هو أن الاقطاعى لم يكن له أن يقتل تابعه كما كان الحال فى التاريخ القديـم مثلا عندما كان للسيد الحر الحق المطلق فى التصرف فى عبيده وفى أملاكهم وأسرهم وكل مايتعلق بهم ·

ويقول الاستاذ كوبلاند فى كتابه عن الاقطاع ان علاقة القـــن بسيده كانت علاقة ذات شقين ، فهى تبعية اقتصادية وعبودية شخصية فى ذات الوقت · فهو لم يكن سيدا له فحسب بل مالكا لأرضـه أيضا· وبمرور الزمن وتطور الأحوال أخذت هاتان الصفتان فى الانفصـــال احداهما عن الأخرى ، بحيث أصبحت القنية وحيازة الأرض مسألتين منفصلتين تماما · وعلى ذلك يصبح القن هو الشخص الذى يسجل بين أمثاله من الأقنان فى دفتر أحد البارونات دون أن يكون بيده قـيراط واحد من الأرض من هذا البارون ، وهو مع ذلك يقوم بتأدية واجبات معينة ودفع اتاوات معلومة لهذا البارون المتبوع مقابل كونه قنـا من أقنانه فحسب · وجدير بالذكر أن هذه كانت حال القن سواء أكـان سيده الاقطاعى من المدنيين أم من رجال الدين والكنيسة · فهو يؤدى نفس الواجبات والخدمات ، أما المعاملة فيبدو أنها كانت أقل استبدادا وتعسفا ، لسبب بسيط وهو أن الكنائس كانت أكثر ضبطا لدفاترها وسجلاتها من البارونات ، مما ســـهل تدبير شئون العبيد وتنظيـــم حقوقهم · ومع ذلك ،فيجب أن نعرف جيدا أنهم كانوا عبيدا ســواء أكان أسيادهم من رجال الدين أو من العلمانيين ·

وكيفما كان الأمر ، فلم يكن السيد اللـورد صاحب الاقطـاع يؤدى يمين الولاء ، بينما كـان التابع ملزما بالمحـــــافظة على قسمه والاخلاص لسيده المتبوع · وطبقا لمرسوم أصدره الامبراطور شارلمان كان من حق التابع ترك سيده لأحد الأسباب التالية : اذا عمل السيد

للورد على انزاله الى مرتبة القنية ، أو تآمر على حياته ، أو اقترف جريمة الزنا مع زوجته ،أو هاجمه بسيفه . أو تخاذل عن حمايته عمدا بينما كان بوسعه القيام بذلك ٠

وقد أكد هذا المبدأ بعد ذلك بقرنين أحد أساقفة مدينة شارتر ويدعى فلبرت Fulbert في خطاب بعث به الى دوق اكويتانيا Aquitaine ٠ ويذكر فلبرت أنه يجب على الفرد الذى يحلف يمين التبعية بين يدى سيده اللورد ، أن يمد له مخلصا يد العون والمشورة بما يكفل حماية السيد والمحافظة على ممتلكاته وحقوقه ٠ وفى مقابل ذلك كان من واجب السيد المتبوع حماية تابعه ٠ واذا قصر أى منهما فى حقوق الآخر اعتبر خائنا ناكثا للعهد ٠

ويوضح الكاتب جاستون باريس فى مؤلفه « الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى » كيف أن الأدب الشعبى فى فرنسا وقتذاك وبخاصة الشعر يبين الى أى حد ظلت هذه الأفكار المتعلقة بالتبعية والاخلاص سائدة بين أفراد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الغربى الوسيط ٠ ففى أغنية رولان مثلا ، وهى أقدم الملاحم الغربية المعروفة لنا ، ومن أهم الأناشيد فى الأدب الشعبى فى العصور الوسطى الأوروبية التى خلد فيها الشعراء حيلة شارلمان تجاه الأندلس عام ٧٧٨ ، فى هذه الأغنية كانت مؤخرة جيش شارلمان معرضة لهجمات العرب فى اسبانيا بسبب خيانة أحد رجال شارلمان ويدعى جانيلون Ganelon ٠ وكان فى هذه المؤخرة البطل رولان وصديقه اوليفييه ، ورولان هو رمز الشجاعة والاخلاص فى تلك الملحمة ٠ فقد رفض طلب المساعدة من سيده بالنفخ فى نفيره حسب العادة المتبعة ، وأخذ يحث الفرسان الفرنسيين على مواصلة القتال فى اسبانيا ٠ وأعلن لصديقه اوليفييه أنه ليس هناك سوى طريق واحد وهو القتال الى النهاية وحتى الموت فى سبيل سيدهم الامبراطور ٠

يقول جاستون باربيس : « ····· يجب أن يتحمل الفرد المخاطر والأهوال من أجل سيده ، وأن يقاسى من شدة الحر وقسوة البرد ، بل وأن يضحى بحياته · فلتطعن برمحك وسأوجه ضرباتى بسيفى الحاد المسمى دورندال الذى أعطانى الملك اياه · واذا عاجلتنى منيتى فسوف يقول من يستحوذ على هذا السيف انه كان ملكاً لأحد الأبطال الشرفاء » ·

وعلى هذا ، يمكن القول ان قصيدة رولان تدور حول فكرة التبعية والاخلاص والرباط الوثيق بين التابع والمتبوع فضلا عن أنها تلقى ضوءا كافيا على نظام الفروسية والاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط ·

وكيفا كان الأمر ، فقد ظل القن على هذه الحال من العبودية حتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر · ولكن نتيجة لتغير الظروف فى أخريات القرون الوسطى ، أصبح بوسع القن تخليص نفسه مقابل مبلغ معين من المال يدفعه لسيده · وكان بوسع هذا السيد أيضا اعتناقه مرضاة لوجه الله · ثم أن اقامة الأقنان مدة معينة باحدى المدن الممتازة كباريس أو لندن يتيح لهم الهجرة والتحرر · كذلك كانت الأحوال الشخصية فى بعض الجهات بغرب اوروبا تتبع الأم ، بمعنى أن أبناء القن المتزوج من امرأة حرة يكونون هم أيضا أحرارا · يضاف الى ذلك أنه وجدت وسائل ساعدت على تحرير الأقنان من قيودهم ، منها تلك المميزات الاجتماعية والاقتصادية التى منحها البارونات لأتباعهم الراغبين فى استصلاح أراض جديدة كالغابات أو البرك والمستنقعات والعمل على فلاحتها · كل هذا أدى الى تحسين أحوالهم وتفكك تلك التبعية الجامدة التى ربطتهم بالأرض ·

وبالاضافة الى ماتقدم ، يجب ألا نغفل أن الثورة حسبما ذكر كولتون فى مؤلفه « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » ، كانت الطريق الأخير الذى لجأ اليه الفلاحون والأقنان للحصول على

حريتهم عندما سدت أمامهم السبل • فقد كان الفلاحون والأقنان دائمى الثورة على سادتهم الاقطاعيين • وزادت هذه الثورات حدة وعنفا فى أواخر القرون الوسطى ، فى وقت كان فيه النظام الاقطاعى فى المجتمع الغربى يلفظ آخر أنفاسه أمام التغييرات الكبيرة التى طرأت على العالم وقتذاك •

القـرية الاقطاعية والفـلاح :

كانت القرية فى العصور الوسطى تشبه الدومين • بمعنى أنهـا كانت تنقسم الى حصتين زراعيتين احداهما خاصة بالسيد المتبـوع ، والأخرى توزع حصصا بين الأقنان التابعين ، وان كان هذا لا يمنـع من القول بانها احتفظت بمظهرها القديم وهو المجتمع القـروى الذى يتميز بنظام الحقول الثلاثة والأرض المكشوفة والحصص المبعثـرة • ولم تغير الاقطاعية من نظام القـرية الاقتصادى اللهـم الا الأرض الزراعية التى زادت مساحتها بينما تضاءلت مساحه الأرض البـور ، نتيجة الجهد الكبير الذى بذله الأقنان فى سبيل استصلاحها لمواجهـة مطالب الحياة والزيادة فى عدد السكان • وواقع الأمر أن قريـة العصور الوسطى فى الغرب لا تختلف عن مثيلتها فى العصور الحديثة • فالأرض الزراعية بقيت كما هى ، وكانت تحيط بها الكنيسة وقصـر السيد الاقطاعى ودكاكين أرباب الحرف وشون المحاصيل وبيـوت الفلاحين • وأما باقى أرض القرية فهو الخـلاء المشاع لرعى الماشية والغابة المجاورة له والمروج التى تنبت الحشائش لعلف المـاشية • وكانت الغابات والمروج فى أغلب الأحيان فى حوزة البارون صاحب الاقطاع • واعتبر الفلاح الذى يخدم فى تلك القرية من طبقة صغـار المزارعين وكان يعيش فى بيـت حقير • وكانت حصتـه من الأرض الزراعية عبارة عن قطع مبعثرة مختلفة المساحات فى أرض القرية بين قطع غيره من الفلاحين • وقد ترتب على ذلك تنظيم عملية الحـرث

والحصاد بحيث تتم فى وقت واحـــــد بجميع أرض القرية • ولهذا لم يفكـــر الفلاح فى ادخال أى تحسين فى أرضه ، بل تركها على ماهى عليه •

أما طرق الزراعة فقد ظلت طيلة العصور الوسطى دون أن يطرأ عليها أى تغيير • فكانوا يستخدمون نوعا معينا من التراب الحـرارى لاصلاح الأرض ، والمحراث لتقليب التربة • وبعد انتهاء موسم الحصاد كانوا يطلقون مواشيهم للرعى • وكانت المحاصيل التى انتجتها هـذه المزارع تكفى حاجة البلاد وقتذاك ، ومن أهمها الغلال والبسلة والفول، وان كانوا لم ينتجوا المحاصيل ذات الجذور مثل اللفت لتغدية المواشى فى موسم الشتاء • أما الأغنام والمواشى والأبقار فكانت تطلق للرعى فى الخلاء المشاع تحت حراسة راعى القـرية ، فاذا انتهى موســـم الحصاد أرسلت فى الحقول • ولم تكن توجه العناية الكافية والوسائل الحديثة التى تساعد على تحسين انتاجها •

وكان يلحق بكل قرية غابة كثيفة بأشجارها كانت فى العــادة من مخصصات السيد اللورد • ويلاحظ أنه لم يحرم أتباعه من الفلاحين من دخولها ، بل أذن لهم بذلك للحصول على الأخشاب اللازمة للوقود والتدفئة والبناء • وكان فى بعض الأحيان يتنازل عن جزء من الغابة لأهل القرية ويحتفظ بالباقى لنفسه ولهوه • وفى هذه الحـالة لم يكن يسمح لهم بدخول الجزء الخاص به • ولم يختلف طعام الفـلاح فى العصور الوسطى عن طعام أهل الريف فى المجتمع الغربى اليـــوم • فكان غذاؤه الأساسى الخبز والفول ولحم الخنزير وقليل من السمك والطيور •

وتنظم شئون الفلاح اليومية مجموعة من العادات والتقاليـــد المحلية والعرف السائد كانت بمثابة القانون فى نظر الفلاح • فقـــد عينت له وقت الحرث والزرع والحصاد ، وعدد الماشية التى يمكنـــه

اطلاقها فى المراعى . كما حددت مدى استغلاله للغابات ، وملكيتـــه لأسراب النحل ، ونصيبه من تشييد الحواجز وعمل المصـــارف التى تلزم لاصلاح الأرض وما الى ذلـــك . وكان يشرف على تنفيذ تلـــك الالتزامات المحاكم المحلية فى القرية برئاسة وكيل السيد اللـــورد . فمن اختصاصاتها الفصل فيما يقع من خـلافات من أهـــل القرية أو مخالفات للعادات المرعية . وقد كفى الفلاح أن يفكر فى شئونه الخاصة وكسب قوت يومه فحسب . ولم يبعد تفكيره حدود القرية التى كان يعيش فيها ، والتى كان يعرف أفرادها فرداً فرداً ، ويراهم كل يـــوم تقريبا . فكانت هى كل شىء عنده لارتباط مصيرها بمصيره . وله فى ذلك عذره ، فقد كانت الأوضاع الجامدة ، والكنيسة التى تقبض بيد من حديد على مصائر الناس ومقدراتهم ، لا تسمح له اطلاقا بالتفكـــير أو محاولة الخروج من هذه الدائرة المغلقة الضيقة التى كـــان يعيش فيها .

الوضع الاقتصـــادى للفلاح :

(المؤجرات النقدية ــ السخرة ــ العشر أو المكوس ــ الاحتكارات ــ رسم الولاية) .

كانت هناك التزامات واجبة على الفلاح للهيئات المختلفة ، وهى تلقى ضوءا على الوضع الاقتصادى للفلاح وعلى النظام الريفى الشائـع فى غرب اوروبا فى العصور الوسطى ؛ ومن أهمها مايلى :

(١) الأجـــور Rents

وهى تتضمن جميع ما على الفـــلاح من حقوق تتصـــل بالأرض اتصالا مباشرا . فاذا انتقلت هذه الأرض الى أيد جديدة ، انتقلت معها تلك الحقوق ، بمعنى أنها تتصل بالأرض لا بمن يعمل فيها . ويلاحظ بصفة عامة تنوع وتباين هذه الحقوق المقررة على الأرض . وتكشـــف

وثائق العصور الوسطى وسجلاتها عن ذلك · فهناك مثلا فــدان عليه مبلغ سنوى معين ، وفدان آخر عليه كمية معينة من الغلة وثالث عليه ما يلزم من المصاريف لترميم دير معين ، وفدان رابع عليه أن يقــوم صاحبه بخدمة خاصة للسيد المتبوع ، وهكذا · وهذا يعنى أن بعض هذه الحقوق كان يؤدى نقدا ، وبعضها يؤدى عينا ، وبعضها يـؤدى خدمات ·

(٢) السخرة :

ومن الحقوق المفروضة على الفلاح السخرة ، وهى الخدمة التى كان التابع يؤديها فى الارض السيد اللورد منذ أوائل أيـام الدومين · ولكنها زالت من كثير من الأقاليم فى القرن الثالث عشر مقابل مبلـغ نقدى يدفعه الفلاح للاعفاء منها · بينما ظلت فى بعض الأقاليم عبئـا ثقيلا على كاهل الفلاح · وكان بعض السادة الاقطاعيين فى العصــور التى قلت فيها الأيدى العاملة ، وخصوصا فى عصور الاوبئة والطواعين والحروب ، يعدلون عن نظام المؤاجرة الى نظام السخرة لاجبار الفلاحين للعمل فى أراضيهم ، مما أدى الى ثورة هذه الطبقة فى كثير من البلاد · وكان هذا من ضمن الأسباب التى مهدت لزوال عصر الاقطاع وبزوغ عهــد جديــد ·

(٣) العشور :

ويلى نظام الأجر النقدى ونظام السخرة ما يعرف باسم العشور tithes وهى الضــرائب والمكـــوس Taxes المقــررة على ما تخرجه الأرض من الماشية والمحاصيل الزراعية · وكانت شائعة فى المجتمع الغربى الوسيط ، ولم تتنازل عنها الكنيسة أو الجهات المدنية · واستلزم الأمر وجود سجلات مضبوطة لتنظيم عملية حســاب هذه المكوس المقررة على الفلاحين · وكانت « عربة العشور »

tithe- car من الأشياء المألوفة وقتذاك وهى تشق طريقها بين الحقول وقت الحصاد ، والعشارون وهم يقومون بتحصيل نصيب السيد اللورد. وبالنسبة لعشر الماشية فقد حرص العشارون على انتقاء الدواب السليمة الممتلئة. وحتى الجهات الواقعة على شواطىء البحار والانهار لم تسلم هى الأخرى من ضريبة العشر على ما تأتى به السفن من الاسماك ، وهـذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لمناجم الفحم أيضا ، وخلاصة القول انه لـم يعف شىء من هذه الضريبة .

لقد كانت هذه الضرائب والمكوس ثمنا يدفعه الفرد لخدمات معينة، تماما مثل الصلوات التى قامت بها الكنائس لخلاص نفوس اولئـك الذين دفعوا العشور راضين . ولكن الطريقة التى اتبعت لجمـــع هذه العشور هى التى أثارت السخط والاستياء .

ويقول الاستاذ كوبلاند فى كتابه « القنية والاقطاع فى العصـــور الوسطى » ، انه توجد شكايات من فلان أنه أرسل ثلاث مرات الى الدير صاحب الاقطاعية يخبره أن المحصول أصبح معدا لدفع العشور الخاصة به ، ولم يحضر أحد وقد أتلفته الأمطار .

(٤) الاحتكـــارات :

وبالاضافة الى الواجبات التى أسلفنا اليها ، وجدت عدة احتكارات Monopolies الزم الفـــلاح بقبولهـــا . منها أن يطحن غلته بطاحونة السيد اللورد التابع له . وكانت الطواحين الوحيدة المعروفة بالغرب الأوروبى حتى القرن الثالث عشر هى الطواحين المائية . وكان الطحان يستأجر الطاحونة من صاحبها مقابل مبلـغ معين من المـال أو مقدار من الغلة الموازية له ، وكان يسىء معاملة الفلاحين ويستبد بهم ممـا جعله مكروها منهم . وعلى أى حال كان الأجر الذى يدفعه الفلاح هـو جزء من الغلة المقدمة للطحين . وفضلا عن ذلك فقد كان الفلاح ملزما

بطحن غلته فى طاحونة معينة حتى ولو كانت هذه الطاحونة تبعد عن حقله بمسافة طويلة ، وبصرف النظر عن وجود طواحين أقرب مسافة اليه من تلك التابع لها · ثم ما يتكبده من بعد المسافـة وصعوبة الطريق وطول الانتظار الى أن يحل دوره للطحين · وقد يفقد دوره بعد كل هذا العناء بوصول خادم من قبل أحد الأعيان لطحن غلته · ويذكر جورج جوردون كولتون فى كتابة « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة» أن المستأجرين فى بريطانيا كانوا ملزمين بطحن غلاتهم فى طاحونـه السيد اللورد التابعين له ، ان وجدت طاحونة على بعد ٤٨٠٠ ياردة · أما اذا كانت الطاحونة مائية فعليهم الانتظار عند الضرورة لمدة ثلاثـة أيام كاملة ، بينما يمكنهم البقاء لمدة يوم وليلة اذا كانت الطاحونـة هوائية · كل هذا زاد من متاعب الفلاح ، وأثار الكثير من الشكوى التى حفظتها لنا وثائق العصور الوسطى ، والتى نجد أمثلة عديدة عليهـا فى كتاب القنية والاقطاع للاستاذ كوبلاند · وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة للجهات التى يشتغل أهلها بزراعة العنب وعصر النبيذ · اذ فرض على الفلاح استعمال معصرة الدومين Wine- ban دون غيرها · كما فرضت عليه أفران الخبز التى يخبز فيها عيشه · وكانت آجرة الخباز عادة رغيفا عن كل عدد معلوم من الأرغفة · وخلاصة القول ان هذه الاحتكارات أجبرت الفلاح على طحن غلته فى مطحن السيد المتبوع، وعصر نبيذه فى معصرته وخبز عيشه فى فرنه · ويدفع مقابل ذلك نصيبا معلوما من الغلة أو النبيذ أو الخبز · وقد سبب معاملة الطحان والخباز وصاحب المعصرة للفلاحين الكثير من المضايقات · وكانت المكوس والحقوق والاحتكارات المفروضة على الفلاح تجمع منه فى أوقات منظمة حتى بات فى استطاعته أن يحسب حسابها فى ميزانيته ·

(٥) رسم الولايـــة :

وكان من أمقت الاشياء الى الفلاح رسم الولاية tallage وكان في الأصل عبارة عن ضريبة شخصية تفرض على الفلاح رمـزا لتبعيته للسيد اللورد . ثم تطـور هذا الرسم حتى بات يفـرض على الأرض نفسها بصرف النظر عن الفلاح الذى يعمل فيها . وكان من حق البارون فرض هذا الرسم على أتباعه متى شاء ، الأمر الذى لم يسمح لهم بتقدير حسابه وضبط مواعيده . وكان اللورد المتبوع هو الـــذى يحدد قيمة الرسم المذكور ووقت أدائــه . ومع مـرور الزمن تحددت قيمة ومواعيد تحصيله من الفلاحين . ومع ذلك فقد ظل الاقطاعيون فى كثير من البلاد يتحكمون فى هذا الرسم ، مما أدى الى سخط أتباعهم وثورتهم عليهم.وقد ساعد هذا الأمر فيما بعد على انهيار نظام الاقطاع. والى جانب تلك الالتزامات المفروضة على الفـلاح ، فقد كانت هنـاك واجبات أخرى أساسية يجب على المقطع أدؤها لمقطعه وهى تتلخص فيما يـــــلى :

أ ـ الطاعة العمياء والولاء التام ، بمعنى أن التابع لايهاجم متبوعه أو أى فرد من أسرته أو ذويه .

ب ـ الخدمة العسكرية ومساعدة التابع لسيده بالقتال فى صفوفه اذا شبت حرب بينه وبين غيره من الأمراء . وتقديم الاعانات الماليــة له اذا استلزم الأمر ذلك . وكانت جيوش أمراء الاقطاع تتكون بهذه الوسيلـــة .

ج ـ واجب الشورى ، بمعنى أن يجتمع التابع بسيده بين وقت وآخر للنظر فى كل مايهم النبيل أمره من الشئون العامة مثل اعلان الحرب أو عقد المعاهدات وما الى ذلك .

حالة الفلاح في العصور الوسطى :

لقد تباينت آراء المؤرخين الغربيين الحديثين فى وصـــف حالة الفلاح في غرب اوروبا في العصور الوسطي تباينا عجيبا . وهناك رأيان

على طرفى نقيض : الرأى الأول يقول ان الفلاح عاش عيشة طيبة فى تلك القرون العشرة التى تمثل المرحلة الوسيطة من تاريخ الانسانية ٠ أما الرأي المخالف فيرى عكس ذلك على طـــول الخط ٠ ولذلـــك يتعين على الباحث مقارنة مختلف الأصول ببعضها للوصول الى أسلم النتائج قدر الاستطاعة : لقد وجد الفريق الأول من المؤرخين أن مجمل ما أداه الفلاح من الحقوق والوجبات والمقررات المفروضة عليه مختلف الجهات لم يكن مضنيا ، وأنه لم يطالب بما فوق طاقته من المكوس والضرائب ، وأن حالته الاقتصادية لم تكن مرهقة فى تلك العصور ٠ وعلل أنصار هذا الفريق بأن الفلاح تملك أرضا طبقا لنظام التبعية الاقطاعية لم يكن من السهل انتزاعها منه أو طرده منها ٠ كما استطاع أن يعيش على محصول هذه الأرض ٠ ولكن هذا الفريق نسى أن الفلاح لم يكن أمامه ســوى أن يرضى بهذا الوضع الذى فرض عليه والذى يكن له يد فيه ، فى عصر كانت فيه الاقطاعية متغلغلة فى كل شىء ٠ وأن هذه القطع الصغيرة المبعثرة التي عمل فيها كانت عبارة عن اقطاع من سيده التابع نظير واجبات التبعية التى أثقلت كاهله والتى لم تكن تعرف أي حدود أو قيود٠ ويجب ألا ننسى أن مستوى ذلك الفلاح ومستوى الأرض التي كان يعمل فيها كانا أقل بكثير جدا من مستوي معيشة الفلاح فى العصور الحديثة٠

على أى حال ، لقد ظل فلاح القرون الوسطى راضيا بدون رغبــة منه ، بحكم السيد اللورد ٠ ولم يكن أمامة سوى أن يتقبل السلطات والاحتكارات المقررة عليه ، والتى لم يشترك فى فرضها أو اختيارها٠ وعلى هذا يرى فريق آخر من المؤرخين أن فلاح العصور الوسطى عاش أسوأ أيامه ، وأنه كان يئن تحت عبء الواجبــات والالتزامات التى ألزم بأدائها لسيده اللورد٠وأنه عانى الكثير من القسوة والظلم والجور والاستبداد والطغيان ، مع ما فى ذلك من اتجاهات واضحة نحو ايذاء الفلاح ومضايقته وتوقيع العقوبات عليــه ، أكثر مما فيــه لحمايته أو

الدفاع عنه وعن مصالحه • ففى ظل هذه الظروف القاسية عاش الفلاح داخل حدود قريته هو ودابته سواء بسواء لا يعرف شيئا عما يجرى حوله • لقد عاش من المهـد الى اللحد داخل هذه الدائرة المغلقة وكفاه فى ذلك الكفاف من العيش •

لقد عانى الفلاح الوسيط الكثير من المتاعب ، وكان هذا نتيجة لبقايا المجتمع القروى القديم ولنظام الدومين أو النظـــام الاقطاعى • فضلا عما فى هذا المجتمع من نقص وقصور بسبب قلة الأمن وانعدام القوة التنفيذية القادرة على تنفيذ القوانين واحترام العـادات المرعية ، يضاف الى ذلك الكوارث التى حلت بالفلاح أيام المجاعات والطواعين والحروب المتوسطة التى كانت تأتى على الاخضر واليابس ، معا دفعه الى الهجرة من قريته الى المدن والغابات ، ولم يكن الفلاح بمنجى من هذه النكبات التى لم يكن له يد فيها • كما لم يكن له حيلة من التخلص من آثارها وعواقبها الوخيمة ، وخاصـــة فى ذروة العصر الاقطـاعى • وقصارى القول ان فلاح القرون الوسطى عاش عيشة لايحسد عليهـا وكانت هذه القيود والاغلال التى كبلته بها الأنظمة الاقطاعية من أهـم الأسباب التى أدت الى ثورته على تلك الأنظمـة وتكسير تلك القيـود والأغلال فى أخريات العصر الوسيط •

الاقطاع فى أخريات العصور الوسطى ـ انهيار عصر الاقطاع وأسبابه :

ولكن هذه الحال لم تستمر طويلا ،وخاصة بعد أن زادت سلطة الحاكم فى اوروبا فى أخريات العصور الوسطى ، وعندما حلت الحكومة المركزية محل الاقطاع والحكومات المحلية والجيش النظامى الثـابت القائم محل الجيوش الاقطاعية المعروفة • وهكذا أصبح الفلاح يتمتع بحماية الدولة له وأخذت مع الزمن تنقطع علاقته بالأرض التى يزرعها والسيد اللورد الذى كان يتحكم فيه وفى أسرته وذويه • كما أخذت القيمة الفعلية للواجبات المفروضة عليه تفقد هيبتها وفاعليتهـــا فى

أخريات العصور الوسطى ، حتى باتت مجرد تقليد شكلى يسعى اليه الشخص بحكم القوانين المتحجرة التى اعتنقها وآمن بها العقل الوسيط نتيجة لظروف خارجية ألمت به . وهكذا بدأ الفلاح يخرج من تلك الدائرة الضيقة المغلقة التى كان يعيش فيها الى أفق رحب وحياة أوسع مما قبلئذ ، فى وقت كان فيه كل شىء فى تغير دائم مستمر .

لقد بلغ العصر الاقطاعى ذروته فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ؛ ولكنه أصبح عبئا ثقيلا فى أواخر القرون الوسطى . حقيقة أن هذا النظام قد استحدث فى ظل ظروف معينة تعرضت لها اوروبا خلال تلك القرون التى لم تكن فيها الحياة مستقرة آمنة ، والتى حلت فيها المسيحية محل الوثنية ، والقبائل الجرمانية محل الدولة الرومانية القديمة وحضارتها . فكان لزاما على الناس أن يبذلوا جهدا كبيرا لحماية أرواحهم من ذلك الدمار الشامل الذى صاحب غزوات الجرمان المتبربرين ، بالاحتماء فى كنف سلطات أقوى منهم وبوسعها حمايتهم هم وذويهم من تلك الفوضى الضاربة أطنابها فى كل شىء ، وضمان لقمة العيش لهم مقابل التزامات معينة يقومون بأدائها للسادة الجدد .

ولكن فى أخريات العصور الوسطى حدث عكس ذلك . فقد تحجرهذا النظام وأصابه العفن ، حتى باتت كل دولة تنقسم الى مئات المقاطعات يحكم كل منها أمير مطلق السلطات يقيم فى حصن شامخ منيع يشن منه الغارات تباعا على جيرانه من الأمراء - وتطورت حال أتباعه من الفلاحين والرقيق الذين أصبحوا يئنون من ظلمه وتعسفه وطغيانه دون أن يجدوا من يدافع عنهم أومن يدفع عنهم هذا الظلم . وهكذا نشأت فى القرون الأخيرة من العصر الوسيط حالة تختلف اختلافا بينا عما كان مألوفا عن الاقطاع فى بدايته ، فكان هذا ايذانا بانهياره وزواله شأنه شأن أى ظاهرة أخرى فى التاريخ البشرى منذ أقدم عصوره حتى يومنا هذا . والخلاصة أن هذا النظام بدأ نتيجة لظروف معينة ثم تطور

ونضج ووصل الى ذروة كماله ، ولكنه نتيجة لظروف أخرى مغايرة وبمرور الزمن لم يلبث أن تقلص واندثر ٠

وقد ساعدت عدة عوامل متشابكة متنوعة متداخلة فى بعضهـــا على انهيار عصر الاقطاع وزواله فى مختلف بلدان الغـــرب الأوروبى فى أخريات القرون الوسطى ، بعضها خارجية وبعضها داخلية ، وبعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ، والبعض جوهرى والبعض ثانوى ، نوجزها فيما يلى :

(١) تدهور نفوذ رجال الاقطاع فى أخريات القرون الوسطى :

غير خاف أنه طبقا للنظام الاقطاعى ، كان بوسع الحاكم فى العصور الوسطى المبكرة جمع قوات كافية من الفرسان المحترفين ، وشغـــل حصونه بالحاميات وادارة الاقطاعيات التابعة له دون أن ينفق درهما واحدا ٠ وقد سيطرت على هذا النظام سيطرة تامة طبقة كبار رجـال الاقطاع التى تتألف من السادة اللوردات الذين احتكروا الثروة لأنفسهم دون غيرهم ٠ ولكن عندما تيسر تحطيم هذا الاحتكار لأسباب سنذكرها فيما بعد ، لم تعد هناك حاجة الى تلك النظم العتيقة البالية المتعلقـــة بالاقطاع ٠ فعندما ازدادت الثروات فى أيدى الامراء ، والتى كانت ترد اليهم من مصادر وجهات أخرى غير الأرض التى كان يعمـل فيها الفلاحون والأقنان ، كانوا يفضلون استئجار قوات مرتزقـة واستخدام موظفين بأجر ، وهدفهم من ذلك هو بسط هيمنتهم على الجيش والادارة المدنية ٠ وقد وجدت الأرستقراطية الاقطاعية نفسها عاجزة تماما أمام هذا التغيير الكبير الذى طرأ على العالم الوسيط فى أخريات أيامـه ، بالرغم من الجهد الذى بذلته لوقفه أو اعاقته ٠ وبات واضحا أنها سوف تفقد سيطرتها السياسية والفكرية ان عاجـــلا او آجلا بل كانت هذه السيطرة التى تتمتع بها فى ذروة العصر الاقطاعى فى طريقها فعـلا الى التدهور والزوال ٠

(٢) انتعاش التجارة والنتائج المترتبة عليها :

وعلى هذا يمكن تفهم نظام الاقطاع فى طور احتضاره باعتبـــاره مرحلة من مراحل الثورة الاقتصادية التى مر بها الغرب الأوروبى فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر • ففى الفترة المبكرة من تاريخ العصور الوسطى كانت حركة التجارة محدودة ضيقـة غير نشطـــة لاتتعدى تبادل السلع الزائدة عن الحاجة وفى أضيق الحدود • ولكنها فى أواخر تلك العصور أنتعشت لأسباب عديدة ، ليس هنـا مجـال ذكرها ، منها الاحتكاك بين اوروبا والشرق الأقصى وبين اوروبا والمشرق والمغرب الاسلاميين وخاصة أيام الحروب الصليبية ، ووجود نشـاط واحتياج متبادل • فاحتاج الغرب الى البهارات والتوابل والملح التى لها أهميتها فى حفظ اللحوم المجففة والأسماك • كذلك احتاج الغرب لبعض المواد والمنسوجات مثل الحرير • واحتاج الشرق بدوره للخشب وبعض الصناعات المعدنية التى لم تتوفر عنده • والخلاصة انه نتـج عن الاتصال بين الشرق والغرب نشاط التجارة فى اوروبا وازدياد حركة النقل وبخاصة فى الجمهوريات الايطالية التجارية مثل جنـــوه وبيزة والبندقية وفلورنسا التى أصبحت طريقا هاما لهذه التجـــارة العالمية ، والتى لعبت دورا معروفا فى انعاش التجارة الأوروبيـة • وكيفما كان الأمر،فقد صاحب هذا الرواج التجارى زيادة ملحوظةفىعدد السكان • وبانتعاش التجارة وزيادة السكان،أخذت المدن تنمو بسرعة عجيبة،بينما فقدت القرى الكثير من أهميتها بعد أن هجرها الفلاحون وقد تم ذلك خلال القرن الثانى عشر • وتمتعت الطبقة البرجوازيـة من سكان هذه المدن النامية بتحررها من ربقة القيود والواجبات الاقطاعية والالتزامات المرتبطة بالأرض كما تميزت بالثروة التى انهالت عليها عن طريق التجارة • وسرعان مـا سـرى هذا التغيير سريان النار فى الهشيم فى ظل قطاع من قطاعات الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط • وكان من أثر ذلك أن الأسلوب الروتينى القديم فى الزراعة وفى حيـاة

المجتمع القروى لم يبق على حاله · وقد تأثر السيد اللورد بطبيعة الحال تأثرا بالغا بهذه التغييرات المنوه عنها·فبدأ يفقد نفوذه الذى كان يتمتع به قبلا ، فى حين ازدادت سلطة الطبقة المتوسطة · وقد عاشت هذه الطبقة المتوسطة فى أول الأمر فى كنف طبقة الأمراء الاقطاعيين وتحت حمايتها ولكنها ما لبثت ، بعد ازداد نفوذها نتيجة الثروة التى انهالت عليها ، أن تفوقت عليها وأصبحت تكون طبقة مستقلة قائمة بذاتها لها نفوذها وسلطاتها · والخلاصة أن قيام هذه الطبقة والتفافها حول السلطة الحاكمة أدى فى نهاية الأمر الى القضاء على جانب كبير من نفوذ الأشراف والسادة الاقطاعيين ، كما أدى نمو المدن واتساعها وتضاؤل القرى وانكماشها · وكان لهذا أثره فى انقلاب ميزان القوى بين الطبقات وفى تدهور عصر الاقطاع ·

(٣) تدهور سلطان الطبقة الأرستقراطية فى انجلترا :

لقد استفادت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من نمو التجارة فى اقطاعتها وأراضيها ، فنمت ثرواتها الأمر الذى شجعها على فرض قوانين عديدة وجد فيها أتباعها من الفلاحين خطرا جديدا يتهددهم · فكانوا يتحينون الفرصة للثورة على سادتهم وانتهز ملوك الغرب الفرصة لسلب الاقطاعيين سلطانهم · ففى انجلترا بذل هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩) نشاطا فائقا وجهدا كبيرا فى سبيل تقوية نفوذ الملكية على حساب سلطة بارونات الاقطاع · وعمل على زيادة ايراداته من الضرائب التى فرضها على المدن ، ومن المبالغ التى حصل عليها من رعاياه مقابل تحريرهم واعتقاقهم · اذ أقنع أتباعه من المزارعين على التحلل من الخدمات التى كانوا يؤدونها فى أرضه مقابل مبالغ معينة يدفعونها له · وأصبح بوسعه استخدام قوات من الجند المرتزقة بما تجمع لديه من مال · وأدخل الكثير من الاصلاحات المتعلقة بشئون التقاضى حتى يجتذب الناس الى محاكمه الخاصة للبت فى منازعاتهم وقضاياهم ، وهدفه من ذلك هو صرفهم تدريجيا عن محاكم باروناته الاقطاعيين ·

وأحل الموظفين الاداريين فى حكومته المركزية محل الأتباع الاقطاعيين وكان بعضهم من أفراد الطبقة البرجوازية المتوسطة · كما أقصى الأشراف Sheriffs عن حكم الولايـات ، وأحـل محلهم آخـرين من قبله وهكذا مارس الملك سلطاته السياسية فى كافة أنحاء البلاد سـواء على حساب سلطة الأشراف أو كبار رجال الاقطاع · وقد أدى هذا بطبيعة الحال الى تقلص نفوذ رجال الاقطاع أمام سلطة الحكومة المركزية التى بدأت فى الظهور فى أخـريات العصور الوسطى ،وأخذ ملوك انجلترا المتعاقبين يسلبون بارونات الاقطاع سلطاتهم تدريجيا ·

ولكن مسلك الملك يوحنا الاستبدادى أدى الى ثورة النبـلاء ضده سنة ١٢١٥ ، والحصول على وثيقة العهد الأعظم Magna Carta ولكن هذه الوثيقة ، والمحاولات المستميتة التى بذلتها طبقة البارونات الأرستقراطية لاستعادة مكانتها وسلطانها ، لم تكن لتوقف عجلـة التاريخ عن السير فى طريقها المرسوم · ولم يكن الدستور الانجليزى الذى صدر فى عهد أسرة ادوارد (١٢٧٢ ـ ١٣٧٧) الا نتيجة طبيعية وحتمية لتطور نظم الاقطاع ، وذلك بالرغم من احتفاظه ببعض العناصر الاقطاعية القديمة · وقد ساد قانون الحكومة المركزية فى المجتمع الغربى الوسيط خلال القرن الرابع عشر على كل القوانين السابقة له التى كان معمولا بها فى محاكم البارونات وكبار رجال الاقطاع · ولم يعد الجيش الانجليزى ـ على الرغم من وجود عدد كبير من الفرسان فيه ـ جيشا اقطاعيا كما كان فيما مضى ، بل أصبح فرقا من المرتزقـة تتألف من الفرسان النبلاء ومن السهام الذين كانوا يعملون فى خدمة الملك ، وكان هو يتولى الانفاق عليهم ودفع أجورهم · ولم تعد الايرادات التى تدخل خزينة الملك مرتبطة بالأرض والخدمة فيها كما كان الحال فيما مضى · وانما أصبحت الضريبة العادية فرضا واجبا على الجميع ، بعد أن كانت قاصرة فى الماضى على ما يؤديه التابع لسيده المتبوع طبقا للنظم الاقطاعية

التى كان معمولا بها من قبل • وكانت أية ضرائب جديدة تعرض للاقتراع عليها فى مجلس البرلمان بواسطة النواب الذين يمثلون مختلف الطبقات فى البرلمان الانجليزى . وهو عبارة عن مجلس ملكى على نطاق واسع فى تمثيله لطبقات الشعب • فكان السادة البارونات يؤلفون أحد قسميه ، بينما يشكل العمال وباقى طبقات الشعب القسم الثانى • وقد عرف القسم الاول باسم مجلس اللوردات ، ولم يكن يسمح بالجلوس فيه الا لكبار البارونات ، بينما عرف القسم الثانى باسم مجلس العموم حسبما يتضح من تكوينه • وعلى هذا فان طبقة اللوردات فى انجلترا هى طبقة أصحاب الأملاك التى تمتاز بشرف الاصل ، وهى التى حافظت على بقايا التقاليد الاقطاعية القديمة الموروثة حتى اليوم •

(٤) زوال الاقطاع فى فرنسا وباقى أجزاء القارة الأوروبية :

هذا فى انجلترا ، أما فى فرنسا ، فلم تهيىء لها الظروف فرصة تكوين مجلس نيابى مثل البرلمان الانجليزى الذى اكتسب دستوره مع الزمن صفة الثبات والاستقرار • وقد احتفظت الأرستقراطية الاقطاعية هناك بصفة عامة بأوضاعها ومكانتها التى كانت تتمتع بها فى ذروة العصر الاقطاعى حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ • ولكن يجب أن نفهم أن طبقة الأشراف القديمة هذه قد سلبت سلطاتها السياسية تدريجيا ، وأصبح يشرف على شئون الحكومة الملكية فى عهد فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) عدد من المحامين والمحاسبين الذين كانوا ينتمون الى تلك الطبقة التى أمدت ملوك فرنسا المتعاقبين بالمال اللازم ، وخاصة فى عهد لويس الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) • وكان لهذا بطبيعة الحال أثره فى التخلص من آخر آثار وبقايا النظام الاقطاعى • وبنهاية العصور الوسطى كانت فرنسا قد أصبحت ملكية مستبدة ، بعد صراع طويل عنيف بين ملوكها المتعاقبين وبين

السادة الاقطاعيين ، وبعد حرب المائة عام المعروفة بينها وبين انجلترا . وسرعان مانهج نهجها حكام الجهات والمناطق المجاورة لها فى القارة الأوروبية . هذا ، مع ملاحظة أن النظم الاقطاعية التى ظهرت متأخرا نسبيا فى شرق اوروبا قد بلغت ذروة نضجها واكتمالها ، فى الوقت الذى كانت قد انهارت وزالت فيه تماما من الغرب .

(٥) التغييرات التى طرأت على أساليب الحرب والقتال فى نهاية العصور الوسطى :

والى جانب انهيار سلطة الطبقة الأرستقراطية الاقطاعية فى انجلترا والقارة ، وظهور الملكيات المستبدة والحكومات المركزية التى حلت محل سلطة البارونات الاقطاعيين وحكوماتها المحلية ـ يلاحظ أن التغييرات التى استحدثت على وسائل الحرب والقتال قد عجلت بزوال عصر الاقطاع . ذلك أن الجيش الاقطاعى الذى اعتمد عليه أمراء اوروبا وكبار رجال الاقطاع فيها منذ العصر الكارولنجى ، كان يتألف فى معظمه من الفرسان ، وكانت الحاجة اليهم وقتذاك ماسة وضرورية ، بل وأشد من الحاجة الى المشاة . ولذلك كان الفرسان يتمتعون بمنزلة كبيرة . ولكن الظروف تغيرت تغيرا كبيرا فى نهاية القرن الثالث عشر بتغير المثل والمبادىء والتقاليد التى قامت عليها العصور الوسطى المبكرة وظهور أوضاع جديدة مغايرة . فأصبح بوسع الحكام دفع أجور القوات التى تعمل فى خدمتهم من الموارد المالية التى تدفقت عليهم عن طريق التجارة والضرائب المنتظمة . وقد ساعدهم ذلك على ادخال الكثير من التحسينات المتعلقة بشئون الحرب والقتال . وبرهن المشاة فى هذه الجيوش المرتزقة الدائمة المدربة أحسن تدريب والمعدة أحسن اعداد أن لهم فائدة كبرى لا يمكن بحال التقليل من أهميتها . اذ اتضح أنه بوسع رماة الرماح فى معظم المعارك التى

اشتركوا فيها مقاومة فرق الخيالة وصد هجماتها ، بل وادخال الخبل والاضطراب فى صفوفها • كما اتضح أنه من الممكن استخدام الأقواس الكبيرة فى حالات الدفاع والهجوم ، والسهام والنبال التى كانت تنفذ بسهولة فى الزرد والدروع الثقيلة التى يلبسها الفرسان • وهكذا لم يعد للفارس الاقطاعى مكان أمام هذه الأساليب المستحدثة فى فن الحرب والقتال • حقيقة أن الفارس كان يحتمى من سهام العدو ونباله داخل ملابسه الحديدية المصفحة • ولكن هذه الدروع لم تعد تصمد أمام الأسلحة النارية الجديدة التى ظهرت فى أخريات العصور الوسطى كالبارود والمدفع • ثم أن الفرسان بملابسهم الثقيلة لم يكن بوسعهم التنقل بسرعة وسهولة من مكان الى آخر ، بعكس المشاة الذين تميزوا بخفة الحركة وسرعة التنقل ومباغتة العدو •

وكيفا كانت الآراء فيما يتعلق بالبارود ، لا أنه يبدو أن المدفع كان اختراعا اوروبيا • وترجع أول اشارة اليه الى القرن الرابع عشر باعتباره ماسورة معدنية ثقيلة تندفع منها كرة حجرية بواسطة قوة دافعة • وكانت الفائدة المرجوة من سلاح من هذا القبيل تكاد لاتذكر عند استخدامه فى ساحة المعركة ، حتى بعد التحسينات العديدة التى أدخلت عليه • وقد انقضى بعد اختراع هذا المدفع البدائى حوالى مائة عام قبل أن تصبح البندقية وسيلة فعالة فى القتال • وفى تلك الأثناء أصبح للمدفع أهمية كبرى باعتباره عاملا له أثره فى فن الحصار • وكان هذا الفن متأخرا وقتذاك ، ولاسيما حصار الاستحكامات والتحصينات والقلاع • وبنهاية القرن الثالث عشر لم تعد القلعة مجرد برج منعزل يحيط به سور كبير كما كانت فيما قبل ، وانما أصبحت بناء متكاملا مزودا بالطوابق والأبراج بحيث يمكن الدفاع عنها من كل ناحية منها • وأصبحت تنقسم الى وحدات

يمكن الدفاع عن كل وحدة منها على حدة • وكانت الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على مثل هذه القلاع هو ضرب الحصار حولها ومنع المؤونة من الوصول اليها . وبتجويعها حتى تضطر الى الاستسلام • وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة المتبعة حتى القرن الخامس عشر عندما أصبحت تلك القلاع والخنادق التى تحيط بها عديمة الجدوى أمام سلاح المدفعية الجديد • اذ تمكنت الحكومات المركزية من توجيه الضربات القوية القاصمة الى الفروسية والى السادة الأشراف وحصونهم • ومنذ ذلك الحين أصبحت القلعة الاقطاعية مجرد قصر للاقامة أكثر منها معقلا تتحصن بداخله القوات المدافعة •

(٦) زوال عصر الفروسية :

ولقد أثرت هذه التغييرات التى طرأت على أساليب الحرب والقتال تأثيرا بالغا على تلك المكانة الاجتماعية التى كان يتمتع بها الفارس الاقطاعى ، فبدأ يفقد مكانته الاجتماعية وسطوته العسكرية والسياسية • ومع ذلك فقد أخذت الطبقة الأرستقراطية الاقطاعية على الرغم من وزال نفوذها تتباهى بتقاليدها وأصولها القديمة التى استمدتها من شرف انتمائها الى طبقة الفوارس • حقيقة ان المباريات التى شهدها الاقطاع فى عصر نموه وكماله كانت لاتزال قائمة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولكن الفروسية بمعناها الدقيق قد أهمل أمرها ، مثلها مثل القلاع والدروع المصفحة •

(٧) حرب المائة عام :

كذلك كانت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا من العوامل التى أدت الى تكوين جيش مركزى قوى فى فرنسا استخدمه الملوك فى مقاومة أمراء الاقطاع ودك معاقلهم وحصونهم التى كانوا يحتمون بداخلها • فأسهمت بدورها فى القضاء على سلطان رجال الاقطاع وتدعيم نفوذ الملكية فى فرنسا على حساب النظم الاقطاعية البالية ،

فضلا عن الأعداد الكبيرة من الأرستقراطية الاقطاعية التى ذهبت ضحية هذه الحرب .

(٨) الحروب الصليبية :

وقد أسهمت الحروب الصليبية ، هى الأخرى ، بدور كبير فى القضاء على هذا النظام . اذ تكالب الفرسان والسادة الاقطاعيون على الاشتراك فيها أملا فى توسيع دائرة نفوذهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم فى الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم ؛ وحبا منهم فى المغامرة ورؤية بلاد وأصقاع جديدة ، والاشتراك فى حرب يبرزون فيها ماتعلموه من فنون القتال . وكانت النتيجة المباشرة أن قتل عدد كبير من النبلاء وكبار رجال الاقطاع والفرسان . وترتب على ذلك عودة اقطاعياتهم الى سيدهم الأعلى الذى كان قد أقطعها لهم على الأقل من الناحية النظرية . فانكمشت وتضاءلت اقطاعيات النبلاء فى الوقت الذى اتسعت فيه دائرة الاقطاعيات الملكية .

ثم أن الحروب الصليبية كانت فرصة ذهبية اغتنمها الفلاحون والأقنان الذين كانوا يعملون فى أرض السادة الاقطاعيين . فبادروا بالانخراط فى سلك هذه الحروب التى وجدوا فيها منقذا محققا للتحرر والخلاص من عبودية الاقطاع وقيوده والتزاماته التى أثقلت كواهلهم . وكانت النتيجة الطبيعية أن قلت الأيدى العاملة التى كانت تعمل فى الأرض لحساب كبار رجال الاقطاع . وتحللت بالتبعية تلك الرابطة القوية التى كانت تربط بين العبد التابع والسيد المتبوع ، والتى كانت الأرض قوامها . ويجب ألا ننسى أن الاحتكاك بين الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية التى اشتركت فيها الجاليات الايطالية التجارية ، أدى الى انتعاش حركة التجارة فى اوروبا وظهور الطبقة المتوسطة وازدياد ثرواتها ونمو المدن واتساعها وازدياد سكانها .

كل هذا كان من العوامل التى ساعدت على انهيار النظام الاقطاعى من أساسه ، وقيام حضارة مدنية قوامها الصناعة والتجارة ٠

(٩) الحروب المستمرة بين رجال الاقطاع :

ولا يجب أن نغفل أن النزاع الدائم والحروب المستمرة بين الأمراء الاقطاعيين أنفسهم وتفرق كلمتهم ، كانت من الأسباب التى أضعفت من شأنهم وقللت من هيبتهم السابقة التى كانوا يتمتعون بها أمام ذلك التطور الكبير الذى طرأ على المجتمع الوسيط فى قرونه الأخيرة ٠

خاتمة :

وفى أواخر القرون الوسطى أصبحت الحاجة ملحة الى الطعام والمواد الخام نظرا لنمو الطبقة المشتغلة بالتجارة داخل المدن ٠ وقد أدى هذا بالتالى الى ادخال تحسينات سريعة تتعلق بتسهيل عملية بيع المحصول الذى تغله الأرض ، وأصبحت الزراعة عملا مربحا ٠ وتغير وضع القرى ، فأصبحت تمنح ميزات مغرية للمقيمين فيها ٠ وترتب على نجاح هذه الخطوات أن السادة ملاك الأرض أخذوا يعيدون تنظيم مجتمعاتهم القروية القديمة ، وذلك بمجازاة الفلاح على كل الخدمات التى يؤديها بأجر نقدى ، بدلا من نظام الخدمات والتعهدات المتبادلة بين السيد والمسود فى العصر الاقطاعى ٠ وكانت النتيجة الطبيعية هى زوال عصر الاقطاع ومايتبعه من نظم تتعلق بالقنية من انجلترا ومعظم المقاطعات الفرنسية فى نهاية القرن السادس عشر ٠ لقد لفظ الاقطاع آخر أنفاسه فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر ، عندما حرم على الطبقة الأرستقراطية الاشتغال بالتجارة ، ولم يكن أمامها الا أحد طريقتين : اما الفقر المدقع أو الاعتماد على احسان الملك وكرمه ، وفى ذلك تبعية مخففة ٠ وكانت هذه الفئة هى آخر بقايا عصر الاقطاع فى الغرب ٠ وقد قضى عليها مجلس التشريع الفرنسى فى أكتوبر سنة ١٧٨٩ ٠

وهكذا تهدم آخر صرح من صروح عصر الاقطاع فى الغرب الاوروبى ، وزالت دولة الاقطاعيين وذهب معها نفوذهم وسلطانهم ٠

وان المهتمين بدراسة بقايا عصر الاقطاع ومخلفاته فى فرنسا اليوم سوف تصيبهم خيبة الأمل نظرا لعدم وجود أى أثر من آثاره هناك ، باستثناء بعض القاب الشرف التى تجاهلها القانون تجاهلا تاما ٠ واذا انتقل الباحث الى باقى دول القارة الأوروبية فسيجد أن الثورات التى قامت فيها بشكل أو بآخر قد قلبت تقاليد القرون الوسطى رأسا على عقب ، ولم تبق على آثار واضحة يمكن أن يستشف منها شكل هذا النظام وملامحه ٠ أما فى انجلترا فيجد المتصدى لهذه الناحية ما يشفى غليله ٠ فهناك مثلا مجلس اللوردات سليل برلمان طبقة الأشراف فى القرن الثالث عشر ٠ هذا بالرغم من أن جميع أعضاء المجلس الحالى لا ينحدرون من تلك الأسر النبيلة التى كانت قائمة قبيل حكم أسرة تيودور ، أى قبل سنة ١٤٨٥ ٠ اذ ترجع أصول غالبيتهم الى القرنين الماضيين فحسب ٠ وسوف يدهش الباحث عندما يشاهد الكثير من مظاهر العظمة والأبهة والبذخ فى البلاط الملكى البريطانى ببهائه وورنقه وفرسانه وملابسهم التقليدية والفئة الأرستقراطية من السيدات والسادة اللوردات ، وكذلك الخدم والحشم والأتباع ٠ واذا أسعده الحظ وشاهد احدى حفلات التتويج ، فسيجد الكثير من التقاليد والعادات القديمة المتوارثة ، وهى عبارة عن آثار متبقية من عصر الاقطاع ٠ هذا فضلا عن بعض ألقاب الشرف التى احتفظ بها السادة اللوردات مثل لقب لورد ولقب حامل الدرع Esquire ، وهو أصلا التابع الذى كان يحمل للفارس درعه وسلاحه وينسب الى أسر النبلاء ٠

ويصف المؤرخ كارل ستيفنسون حامل الدروع قائلا : « حامل الدرع ٠٠ شاب من أصل كريم ، ينتمى الى طبقة الفرسان ٠ وهو يقوم

على خدمة الفارس ويحمل درعه ... وهذا اللقب يمنح مجاملة لأولئك الذين يعتبرون من فئة السادة والأشراف » .

ان الاقطاع ظاهرة مر بها المجتمع الغربى الوسيط ، شأنه شأن غيره من ظواهر العصور الوسطى وخصائصها المميزة كالفروسية والحروب الصليبية والرهبنة والديرية والكنيسة والبابوية . وقد ظهر نتيجة أسباب معينة ألمت بالغرب فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ثم تطور ونما واكتمل فى عملية تماذج وتفاعل بطىء ولكن ما لبث أن تقلص وانهار واندثر آخر الأمر نتيجة لعوامل أخرى ترتبط بنهاية القرون الوسطى وبداية عصر النهضة والتاريخ الحديث .

الموضوع الثامن

شارلمـــان

واحياء الامبراطورية الرومانية فى عهده

مقدمة عن شارلمان وأهمية حكمه ومميزات عصره :

كانت أوروبا قبـــل عصر شارلمان مسرحا عجيبا للفـــوضى والاضطرابات فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة سنة ٤٧٦ أثر هجمات البرابرة عليها ، أسست هذه العناصر دويلات جرمانيـــة على أنقاض الامبراطورية المنهـــارة ٠ فاستقر الانجلـــوسكسون فى انجلترا ، والقوط الشرقيون فى ايطاليـــا ، والقوط الغـــربيون فى أسبانيا ، والوندال فى الشمال الافريقى ٠ بينما أسس الفرنجة مملكة لهم شملت مساحات عظيمة من أوروبا من بينها فرنسا وأجزاء واسعة من المانيا التى تعتبر موطن الفرنجة الأصلى ٠ وقد آلت هذه المملكة فى أخريات القرن الثامن الى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان أو شارل العظيم ٠

ويعتبر حكمه الذى امتد من سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة فى التاريخ الغربى الوسيط ٠ فمن أهم مميزات عصره المزج التدريجى البطىء الذى تم بين التراث الرومـــانى القديم وبين حضارة الجرمان المتبربرين لانتاج مدنية جديدة لها طابعها الخـــاص بها ٠ كذلك تميز عهده بانتشار الروح المسيحية فى الغرب نتيجـــة لجهود الكنيسة الرومانية ونشاط البابوات وكافة رجال الدين الذين توجهوا الى كثير من الاقطار الوثنية المجاورة حيث بشروا فيها بالديانة الجديدة وصادفوا فى ذلك نجاحا كبيرا ٠ هذا فضلا عما يرتبط بحكمه من احياء الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة ، وما صاحبها من تقدم الحضارة وازدهار العلوم والآداب والفنـــون ٠ وكان لشخصية شارلمان أكبر الأثر فيما حققه من نجاح فى شتى النواحى والمجالات اذ كان يتميز بشخصية عظيمة فذة تتجلى فى اتساع رقعة امبراطوريتـــه فى الغرب من ناحية ، وفى القضاء على نفوذ بيزنطة وممثلها فى الغرب

من ناحية أخرى وفى اقامة نظام حكومى جديد يتفق وحاجات امبراطوريته الشاسعة من ناحية ثالثة ٠

حروب شارلمان وامبراطوريته :

ويمكن تتبع تاريخ شارلمان فى خطوتين رئيسيتين : أولاهمـــا حروبه الواسعة التى شملت الكثير من الاقطار والبلدان فى الغـــرب ، وكان من نتيجتها اتساع رقعة دولته واستتبع ذلك الخطوة الثانيـــة وهى تأسيس الامبراطورية نفسها ٠

الخطوة الاولى : حروب شارلمـــان :

كان شارلمان يســـتهدف أن يمد سلطانه ونفوذه على الغـــرب الاوروبى كله ، وقد أحرز فى ذلك نجاحا كبيرا ٠ فنراه يمد نفـــوذه غربا على فرنسا بأكملها ، وشرقا على أواسط أوروبا ٠ كما أمتـــــد نفوذه الادبى فى جنوب ايطـــاليا ، هذا بالاضافة الى حروبـــه ضد العرب فى أسبانيا ٠

وليس من السهل تتبع تاريخ حروب شارلمان بالتفصيل لأن هذا أمر يطول شرحه ٠ ولكن اذا استعرضنا جانبا منها بايجاز ، فســـنجد أن من أهمها الحملة التى قام بها سنة ٧٧٣ تلبية لاستغاثـــة البـــابا الرومانى ادريان الاول ضد آخر ملوك اللمبارديين المسمى دزيدريوس Desiderius الذى كان قد استولى على بعض المـــدن الواقعة فى وسط ايطاليا ، والتى كانت تخضع للبابوية منذ أيام ببن القصـــير أبو شارلمان الذى كان قد منح البابوات مساحات واسعة فى أواســط ايطاليا ليحكموها من الناحيتين الدينية والدنيوية على السواء وقـــد سارع شارلمان لاغاثة البابا ادريان ٠ فاجتاز جبال الألب ونزل بسهول لمبارديا وشتت شمل القوات اللمباردية ٠ وانتهى الأمر بعزل ملـــك اللمباردين نفسه ٠ ونقل ملكية أجزاء واســـعة من سهول لمبـــارديا التى كانت تخضع للملك المعزول الى حكمه ، كما أعطى البابا جـــزءا

من تلك البلاد عندما قام بزيارته فى روما • وتعتبر حملة شارلمان هذه على ايطاليا من أهم الحملات التى قام بها فى تاريخه السياسى والحربى ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بموضوع احياء الامبراطورية . اذ جعلت له قدما فى ايطاليا وهو أمر كان يسعى حثيثا لتحقيقه •

وحدث فى تلك الاثناء أن تخلص البابا الرومانى أدريان الاول من تدخل بيزنطة فى ايطاليا عندما أعلن طاعة روما ولو من الناحية الشكلية النظرية لشارلمان وذلك بدلا من ممثل الامبراطور البيزنطى • واقتصر حكم بيزنطة فى الغرب على الطرفين الجنوبيين من ايطاليا وهما ابوليا **Apulia** وكالابريا Calabria بالاضافة الى صقلية •

والى جانب ماتقدم فقد كان لشارلمان حروب هامة مع العناصر الجرمانية الوثنية التى كانت تتاخم حدوده السياسية كالسكسون وقبائل البافار والآفار والسلاف • وقد اتخذت حروبه مع هذه العناصر طابعا مخالفا عن حروبه السابقة ، ونعنى بذلك الطابع الدينى ضد هذه العناصر الجرمانية الوثنية وقد حقق فيها نجاحا كبيرا وامتدت هذه الحروب من سنة ٧٧٢ الى سنة ٧٩٦ •

وهناك ناحية أخرى طرقها شارلمان وان لم يصادف فيها نفس النجاح ، وذلك عندما واصل جهود سلفه شارل مارتل فى محاولة يائسة هدفها القضاء على حكم العرب فى غرب أوروبا • وأخذ يتحين الفرصة لتحقيق حلمه هذا • وقد واتته الفرصة عندما دعاه الامراء العرب المرابطين شمال نهر الابرو لمساعدتهم فى حروبهم الداخلية ضد خليفة قرطبة • وكان من أثر ذلك قيامه بحملتين تجاه الاندلس فى عامى ٧٧٧ ، ٧٧٨ • والحملة الثانية هى التى خلدها الشعراء فى الانشودة المعروفة بأسم « أنشودة رولان » • ومع ذلك لم يكن لهاتين الحملتين نتائج عملية تطاول شهرة الانشودة نفسها • اذ تشتت شمل جنود شارلمان وقفل عائدا الى بلاده دون أى نصر حاسم يمكنه من بسط نفوذه على شبه الجزيرة الايبيرية •

الخطوة الثانية : تأسيس الامبراطورية :

بعد نجاح شارلمان فى حروبه واتساع رقعة أسـلاكه ، كان من الطبيعى أن يفكر فى أنشاء الامبراطورية الرومانية المقدسـة فى غرب أوروبا . وقد سنحت له فرصة ذهبية عندما دعاه البابا اليو الثالث الى روما فى أواخر سنة ٨٠٠ ليفصل بينه وبين منافسيه حول المساحات التى كانت تخضع للبابوية دينيا ودنيويا . وسارع باجابة البابا الى طلبه ، والحكم فى صالحه ضد جميع خصومه ، كما سارع من قبل فى تلبية دعوة البابا ادريان الاول ضد ملك اللمبارديين . واعترافا من البابا بجميل شارلمان عليه ، فقد ألبسه التاج فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة . وهكذا تم احياء الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة ، وأصبح شارلمان بموافقة البـابا خليفة القياصرة الأقدمـين ، وأول امبراطور لهذه الدولة الجديدة .

واذا نظرنا الى الامور نظرة أعمق من ذلك ، فسـوف نجد أن تتويج شارلمان أنما يرجع الى ظروف عديدة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر فمن الاسباب المباشرة توسعه فى أوروبا ، وتأسيسه امبراطورية عظيمة لم يكن يحمل صاحبها لقب الامبراطور فيها . وكذلك تدخله فى شئون ايطاليا ومساندته البابا ضد منافسيه . أما عن الاسـباب غير المباشرة فتـرجع الى الامتـزاج التـدريجى البطىء بين العنصر الرومانى القديم وبين العنصر التيوتونى الجديد ، ذلك الامتزاج الذى نتج عنه تلك الامبراطورية التى كانت رومانيـة وجرمانية فى نفس الوقـت .

وجدير بالذكر أنه نشأت حول تأسيس امبراطورية شارلمـان نظريات عديدة معقدة منها تلك التى تقول بأن شارلمان كسـب تاجه بالانتصارات الحربية التى أحرزها فى الغرب . ومصدر هذه النظـرية هو الحزب الامبراطورى . وهنـاك نظرية أخرى تقول بأن البـابا

الرومانى بوصفه خليفة القديس بطرس فى شـــئون الدين والدنيا . فقد مارس حقه فى عزل ممثل الامبراطور البيزنطى فى الغـــرب وفى منح تاج الامبراطورية الغربية الى شارلمان • ويقول فريق ثـالث بأن شعب رومـــا هو الذى أستعمل حقه القـــديم فى انتخاب شارلمـــان امبراطورا • ولعل أقرب هذه النظريات الى الصحة والصـــواب هى النظرية الاولى القائلة بأن شارلمان كسب تاجه بسيفه • وهذا صحيح • اذ تمكن من نشر نفوذه على المقاطعات الرومانية القديمة من بحر الشمال الى البحر المتوسط ، ومن حدود المتبربرين فى شرق أوروبا الى المحيط الأطلسى فى الغرب •

وعلى هذا فأن اعتلاء شارلمان عرش الامبراطورية وتتويجه فى ٢٥ ديسمبر من سنة ٨٠٠ هو خاتمة طبيعيـــة لنشاطـه الفائـق وجهوده العظيمة وفتوحاته الواسعة • وكان تدخل البابا وقتذاك تدخلا روحيا فحسب ، وذلك حتى يضفى على حكم شارلمان الدنيوى صبغة شرعيـة دينيـــــة •

الادارة والتشريع والحضارة فى عهد شارلمان :

بعد أن تم احياء الامبراطورية كان من الطبيعى أن يهتم شارلمان بادخال التنظيمات فيها فى نواحى الادارة والقضاء والتشريع فضــلا عن النهوض بأسباب العلم والتعليم • أما عن الادارة فقد كانت ادارة مركزية محلية • اذ كانت الحكومة فى عهـده تتكـون من الامبراطور باعتباره الحاكم المركزى المطلق • والى جانبه كانت توجد الجمعيـات الاهلية الجرمانية الاصل والتى كان الامبراطور يدعوها ليستطلع منها الراى العام فى الاقاليم التى كانت الامبراطورية تنقسم اليها وكذلك فى السياسة العليا للدولة ، هذا مع العلم بأن رأى تلك الجمعيات كان استشاريا فقط • وكذلك يوجد عمال الامبراطور بالاقاليم التى كانوا يتمتعون فيها بسلطة مطلقـة • وانتخب لحكم مناطق الحـدود بعض

أفراد حاشيته المشتغلين بالحرب للدفاع عنها ضد اغارات المتبربرين وأخيرا هناك أيضا الرسل الامبراطوريون Missi Dominici الذين كانواحلقة الوصل بين حكام الاقاليم والحكومة المركزية ومهمتهم التفتيش على الحكومات المحلية وعلى أعمال الحكام بها ورفع تقارير بذلك الى الامبراطور ٠

هـــذا عن الادارة ونظـــام الحكم ، أما من ناحيـــة القضاء والتشريع فقد حاول شارلمان التشبه بالامبراطور البيزنطى جستنيان بتسجيل القوانين والعادات المتوارثة فى شكل مجموعة قانونية تضمنت بعض القواعد العامة الاخلاقية والسياسيـــة والدينية والجنائيـــة كى يسترشد بها الحكام فى اصدار أحكامهم بين مختلف القبائل ٠ ولكن هذه المجموعة لم ترق بحال الى مستوى مجموعة جستينان القانونية ٠ فقد كانت مواد مجموعة شارلمان مختلطة ببعضها دون نظام ودون ترتيب قـــانونى ٠

ولقد كان من أثر ذلك أن ساد الامن والاستقرار فترة حكمه وازداد الرخاء ونظمت الثروة وانتعشت الفنون والآداب والعلوم ٠ لقد ازدهرت الفنون فى عهده ازدهارا كبيرا ، وبخاصة فى العمائـر الدينية التى بدىء فى تشييدها ومن أهمها الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى التى بناهاشارل العظيم فى عاصمة امبراطوريته وهى مدينة آخن (آاس لاشابل) والتى يبدو فيها تأثير الاساليب القديمة والبيزنطية معا ٠ وكانت النتيجـة فنا جديدا لا هو بالرومانى القديم ولا هو بالبيزنطى ، وهو الفن الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالفن الرومانى الحديث Romacesque الذى يرجع الى القرن التاسع الميلادى وقد تطور مع الزمن حتى انتهى به الامر الى أسلوب آخر من أساليب المعمار والفن وهو الاسلوب الوسيط البحث ، الا وهو الفن القوطى gothic Art الذى تظهر فيه بجلاء التأثيرات الجرمانية وروح الذوق الوسيط ٠

كذلك وجه شارلمان عناية كبيرة الى أمور العلم والتعليم ليس فقط في عاصمة ملكه ولكن فى شتى أرجاء الامبراطورية ، على الرغم من أنه لم يكن عالما أو متعلما بالمعنى المفهوم واهتم أيضا بجمع الكتب القديمة واستدعى الى بلاده فى آخن العلماء والفلاسفة واللاهوتين من انجلترا والغرب • وكان رأس هؤلاء الكوين Alcuin الانجليزى الذى عينه رئيسا لمدرسة البلاط التى أسسها فى قصره لتعليم أبنائه وأبناء كبار حاشيته • ومن أهم كتب التاريخ ترجع الى هذا العهد الكتاب الذى ألفه باللاتينية اينهارد Einhard تحت اسم حياة شارلمان Vita Karoli ويعتبر هذا المؤلف المصدر الادبى الاساسى فى هذا الموضوع • ووضع كاتب عن ادلهارد Adelhard مؤلفا باللاتينية عن النظام فى البلاط الامبراطورى De Ordine Palati وقد فقد هذا الكتاب الهام ولكن احتفظ بمادته الاساسية أحد رؤساء أساقفة ريمز فى القرن التاسع وهو هنكمار الريمى

خاتمة :

وأخيرا فى سنة ٨١٤ مات شارلمان بعد حكم طويل حافل بالاعمال الهامة الكبيرة التى تركت أبلغ الاثر فى التاريخ الاوروبى الوسيط • ففيه بعث الفكرة الامبراطورية من جديد ، ولكن على أساس يتفق وروح العصر الوسيط • وتبدأ كذلك نواة الدول الحديثة فى التكوين داخل نطاق الامبراطورية نفسها • وانتعشت الكنيسة الرومانية وانفصلت بابوية روما نهائيا عن القسطنطينية وأصبحت قوة لها مكانتها وهيبتها • كما بذرت ، بذور النظام الاقطاعى فى عهد شارلمان ، وأخذت بعد ذلك فى النمو الى أن أصبح الاقطاع أساسا لنظام الحكم والحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الغرب الاوروبى كله لقرون عديدة لاحقة •

الموضوع التــــاسع

اوتو الكبـــير

وأعادة تأسيس الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة

بعد موت شارلمان سنة٨١٤ أخذت امبراطوريته في التصدع نتيجة العودة الى التقاليد الجرمانية القديمة الخاصة بتقسيم الملك بين أبناء الملك باعتبارة ملكا شخصيا له يوزع على ورثته من بعده ، فضلا عن سيادة الاقتصاد الطبيعي في الغرب وقتذاك ، الذى بموجبه قامت الدولة على أساس زراعي ريفي بحت . وقد خلف شارلمان ابنه لويس الصالح (٨١٤ ـ ٨٤٠) الذى كان سيء التصرف . فقد قام بتقسيم دولته عام ٨١٧ بين أبنائه الثلاثة . وكثيرا ما كان يحابى ابنه الأصغر على حساب أخويه الكبيرين ، حتى أنه بعد موته نشبت حرب دامية بين الأخوة الثلاثة انتهت بمعاهدة فردان Verdun سنة ٨٤٣ انقسمت الامبراطورية بمقتضاها الى ثلاثة أقسام ، القسم الغربي ويشمل فرنسا، والشرقى ويشمل المانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال الى البحر المتوسط . وقد حمل المتولى على هذا القسم الأخير وهو « لوثير » لقب الامبراطور ولكن أسرة لوثير هذه انقرضت بسرعة وذهبت أملاكها الى ممثلي الأسرتين الباقيتين .

وقد ظلت الامور مستقرةفترةمن الوقت الى أن قامت أسرة كابت Capet بفرنسا (٨٨٨ ـ ١١٣٧) وأسرة السكسون بالمانيا (٩١٩ ـ ١٠٥٦). وبقيامها بعثت الفكرة الامبراطورية من جديد . وكان أول ملوك هذه الأسرة هو هنرى الأول المشهور بأسم هنرى الصياد (٩١٩ ـ ٩٣٦) . ولتاريخه أهمية خاصة ، لأنه هو الذى وضع أسس السياسة الألمانية التي سار عليها ابناؤه من بعده ، وأهم هؤلاء الأبناء هو أوتو الأول .وقد ظل هنرى ملكا وليس امبراطورا ، وكانت سياسته فى الميدان الداخلي تهدف الى تعزيز حكم أسرته والحد من استقلال أمراء الدوقيات على حساب السلطة المركزية باللين تارة وبالقوة تارة أخرى. وفى الخارج عمل على تقوية جيشه لصد هجمات المغيرين من البرابرة وغيرهم . وأما عن سياسته الحربية التى كانت ترتبط بسياسته فى

الميدان الخارجي ، فنجد أنه أدخل على الجيش الكثير من الاصلاح والتجديد ، وأنشأ سلسلة من الحصون عرفت باسم قلاع الحدود · وكانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة استتباب الأمن والسلم بالمانيا طيلة حكمه ، مما هيأ الظروف لابنه اوتو الاول فى تجديد امبراطورية شارلمان ·

اوتو الاول (٩٣٦ - ٩٧٣) وتجديد الامبراطورية :

لقد جنى أوتو ثمار جهود أبيه ، وتابع سياسته فى النواحى الثلاث الداخلية والخارجية والعسكرية التى أشرنا اليها ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا · ولكن أهم حدث فى تاريخه هو تجديده للامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة التى أسسها شارلمان وقد تم ذلك - كما تم فى عهد شارلمان - عن طريق التدخل فى الشئون الايطالية ·

ولتفسير ذلك نقول ان أدليد Adelaide وارثة عرش برجنديا السفلى ولمبارديا بايطاليا طلبت من الملك الالمانى أوتو مساعدتها ضد عدوها برنجار Berengar مركيز فريولى · وكانت هذه فرصة طيبة أتيحت له · اذ نزل وراء جبال الالب جنوبا وقضى على سلطان برنجار وألحق به هزيمة ساحقة · ثم تزوج من أدليد وبذلك ضم أملاكها فى ايطاليا الى أملاكه الألمانية ، وأصبحت له قدم فى ايطاليا الشمالية ·

وكانت المناسبة الثانية عندما طلب منه البابا يوحنا الثانى عشر ورجال الدين التدخل بينهم وبين برنجار الذى أخذ فى مناوئتهم ومضايقة رجال الكنيسة · ولبى أوتو الدعوة ، كما لبى شارلمان دعوة البابوية من قبل · وتوجه أوتو الى روما التى دخلها ظافرا سنة ٩٦٢ · وكانت مكافأته أن توجه اليه البابا يوحنا الثانى عشر شاكرا مهنئا عارضا عليه تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة التى أسسها شارلمان وقبل أوتو التاج شاكرا · وهكذا تجددت الامبراطورية الرومانية المقدسة الغربية المجددة ·

وكما ثارت النظريات حول امبراطورية شارلمان ، كذلك قامت نظريات عديدة مماثلة حول امبراطورية أوتو المجددة · وغير خاف أن تجديد الامبراطورية كان نتيجة لنشاط أوتو الكبير ، وتدخله فى ايطاليا لصالح البابوية · وكان منح البابا التاج له مجرد اجراء شكلى بحت قصد به اضفاء صبغة دينية على حكمه العلمانى ·

خاتمـــــــة :

ولعل من أهم آثار تجديد هذه الامبراطورية فى القرن العاشر هو دخول ايطاليا من الناحية السياسية فى نطاق النفوذ الامبراطـورى ، واهتمام السياسة الألمانية - تبعا لذلك - بالشئون الايطالية ومحاولة تدعيم سلطانها على ايطاليا · فكـان أن اصطدمت ، مصـالح المانيـــا بمصالح الكنيسة والبابوية فى ايطاليا - ذلك الصدام الذى يميز بداية الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية فى سبيل السيادة العلمانية ، والذى يشغل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسـيط ، وهى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ·

الموضوع العـــاشر

الرهبنة والديرية

نشأة الرهبنة وانتشارهـــا :

كان أول نشأة الرهبنة فى مصر على هيئة حركة توحدية قام بهـا كثير من المتوحدين الذين عاشوا فى الصحراء الشرقية . ومن هؤلاء القديس بولس المتوفى حوالى سنة ٢٧٠ ، والقديس انطونيوس المتوفى سنة ٣٥٦ . ثم انتقل نظام الرهبنة بعد ذلك الى ما يعرف بحركة الحياة الاجتماعية أو الحياة الاشتراكية . وكان ذلك على يد عدد من آباء الكنيسة الأول ،نذكر منهم انبا باخوميوس Pachomius وأنبـا شنـوده Schenudi وانبا مقاريوس Macarius فى وادى النطـــرون فأصبح الرهبان يعيشون داخل حيطان دير واحد ، وان كان كـل منهم له قـلايته Cell الخاصة وكانوا يأكلون معا ويصلون معا ويدرسون معا ويشتغلون لكسب الرزق . ومن أهم مبادئهم أن يعيشـوا فقراء متبتلين يكرسون حياتهم فى خدمة الله وطاعة رؤسائهم .

وساعد على سرعة انتشار الرهبنة أمور عديدة . منها الحمـاس الدينى الذى صاحب أنتشار المسيحية فى أخريات التـاريخ القديـم واعتناق الناس لها . وكذلك حالة الفوضى والاضطراب التى سـادت العالم بسبب غزوات البرابرة مما أدى الى هروب الناس الى الوديان والقفار . وكذلك قيام الحروب المستمرة ، وخاصة فى الغرب ، عندما أنهال الجرمان فى جوف الامبراطورية الرومانية ، وأخذوا يعلمون القتل والذبح والنهب والتخريب ، حتى أصبح الفرد لايطمئن على مصيره . كذلك صاحب ظهور المسيحية حركة اضطهادات عنيفة فى أخـريات التاريخ الرومانى ، بسبب ما كانت تدعو اليه من وحدانية الله ونبـذ عبادة الامبراطور . وقد بلغت هذه الاضطهادات أشدها فى عهـد كل من نيرون ودقلديانوس فاضطر الناس الى الفرار الى الصحارى والقفار والجبال هربا من موجات الاضطهادات التى كانت تلحق بهم بين حين وآخـــر .

والخلاصة أن الظروف التى ألمت بالعالم فى فترة الانتقال بين التاريخ القديم والعصر الوسيط هى التى ساعدت على دفع الكثيرين من معتنقى الدين الجديد الى الهرب الى قمم الجبال وجوف الصحارى ، للتوحد والتعبد والتقشف والتأمل فى ذات الله العلية ، آملا فى تخليص نفوسهم من أدران الآثام وأرواحهم من شرور الدنيا ، واعداد عدتهم للحياة الثانية ونعيمها المقيم ٠

انتقال الرهبنة من مصر الى أوروبا :

كان انتقال تعاليم الرهبنة من مصر الى أوروبا على يد القديس اثناسيوس Athanasius الذى كان بطريقا بالاسكندرية ، ثم نفى من كرسيه ورحل الى روما سنة ٣٤٠ ٠ وساعد على سرعة انتشارها كتيبات عدد من القديسين ، وبخاصة القديس أوجسطين أوف هيبو Augsustine of Hippo مؤلف كتاب « المدينة السماوية » De Civitate Dei ، والقديس جيروم Jerome الذى ترجم حياة الرهبان المصريين وأنظمتهم الى اللاتينية ، وكتاب بالاديوس Palladius المعروف بأسم « بستان الرهبان » عن حياة رهبان مصر ، وأخيرا كتاب كاسيان Cassien الفرنسى عن حياة الرهبان المصريين وأحاديثهم ٠

كل هذه الكتابات ساعدت على انتشار الرهبنة من مصر الى أوروبا ٠ وكان أن بدأت الحركة الديرية عندما كثر عدد الرهبان فى القفار ٠ فأخذوا يتقربون من بعضهم لتسهيل قضاء حاجياتهم الدينية تحت رعاية واحد منهم يتم انتخابه لسعة علمه وكبر سنه وقدسيته ٠ وكان ذلك على يد القديس بازيل st: Basil فى القرن الرابع فى الدولة البيزنطية ٠ هذا ، مع ملاحظة أن الحياة الديرية المنظمة للرهبان لم يكن لها وجود فى الغرب فى القرون الخمسة الأولى ،

عندما لم تكن هناك علاقات منظمة بين الرهبان وبعضهم من ناحيـــة وبينهم وبين الكنيســة من ناحية أخـــرى • ولكن فى أواخر القـــرن الخامس وبداية القرن الســـادس بدأت فى الغرب حركـــة تغلغل الرهبانية فى كيان الكنيســـة . عندما فتـــح الأساقفة كنائســـهم ووضعوها تحت تصرف الرهبان ، ومن هؤلاء الأســـقف ايوسبيوس Eusebius فى ايطاليا •

الديرية البندكتية (القرن السادس) :

لم تتحقق الفكرة الديرية فى أوروبا على الوجه الأكمـــل الا فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس على يد القديس بندكت st. Benedict of Nursia الـــذى أدخـــل نظـــام الديريـــة على أساس الحياة الاجتماعية للرهبان فى أديرة لها قوانينها وتقاليدها وأنظمتها •

بدأ بندكت حياته راهبا متزهدا متقشفا منفردا فى أحد كهـــوف منطقة تقع فى أواسط آسيا • وأدرك ماكان يعانيه الرهبان المتوحدون من صعاب • ولما كان بندكت من أسرة عريقة ويمتلـــك ثروة كبيرة ، فقد قام بتشييد ديره المعروف فى مونت كاسينو Monte Cassino والتف حوله عدد كبـــير من الرهبان • فوضع لهم قانـــونه الذى كان أساسه إنسانى وروحى فى آن واحد ، بعكس الحال فيما مضى • اذ كانت الفكرة القديمة روحية بحتة لا تهتم براحة الجسد ومطالبه • بل كان كل مايهم المتوحدون الأقدمون هو تعذيب أبدانهم وتعريض حياتهم الدنيوية للأخطار • ولكن بندكت اهتم بحاجات الراهب البشرية الى جانب التزاماته الروحية • ويقوم نظامه على أربعة اعتبارات ، رئيسية هى : التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء •

والى جانب هذه القواعد الرئيسية الأربع ، فقد نظر بندكت الى الراهب كمخلوق بشرى . فأوصى بالاعتدال فى التقشف ، وجعل حياة أتباعه فى أديرته حياة اجتماعية . كما أدخل على حياتهم نظام العمل اليدوى والذهنى فى نشاطهم اليومى . فخصص بعض الرهبان لفلاحة الأرض ، والبعض لرعاية الماشية ، والبعض لاعداد الملبس والمأكل والمشرب ، بحيث يصبح الدير البندكتى وحدة مستقلة لا تحتاج للعالم الخارجى فى شىء .

وفضلا عن ذلك فقد أوجد فى كل دير نواة مكتبة ومكان لنسخ الكتب Scriptorium ،لكى يواصل كل من يلمس فى نفسه نزعة أدبية نشاطه العلمى والأدبى هناك . وقد حفظت هذه الأديرة الكثير من التراث الكلاسيكى والكتب القديمة التى كانت فى خطر الزوال أثناء غزوات البرابرة . وداخل هذه المكاتب واصل النساخ والمؤلفون تحرير الكتب التاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التى لايزال الكثير منها متداولا حتى اليوم . والغريب أن هذه النزعة الأدبية العلمية أخذت تنمو وتتسع فى الأديرة البندكتية فى وقت كان الناس يغطون فى جهل عميق . وبمرور الزمن تأسست بعض المدارس فى تلك الأديرة كانت تستهدف تعليم الأطفال الذين أعدوا لكى ينخرطوا فى سلك الكهنوت فيما بعد . وعلى هذا كانت أديرة بندكت منبعا للعلم والعرفان ، كما أنها أدت أكبر خدمة للحضارة الفكرية فى غرب اوروبا فى العصور الوسطى .

وعندما ظهرت للناس فضائل هذا النظام الجديد ، أخذ الكثيرون منهم يلتحقون بالأديرة البندكتية وانتقلت تلك الحركة الجديدة من ايطاليا الى غرب أوروبا ، وحلت نهائيا محل حركة التوحد والعزلة والتقشف .

ولكن ديرية بندكت ، كان شأنها شأن جميع الحركات والظـواهر الهامة فى التاريخ ، لم تبق على نشاطها وتقدمها الى الأبد . اذ أخذت تسير نحو التدهور عندما أزدادت ثرواتها بفضـل اجتهاد الرهبـان أنفسهم فى الاهتمام بأمور الحرث والغرس ورعاية الماشية على أساس انكار الذات . فكان أن تكاثرت الثروات ، ورأى الرهبان أن الفائـض منها يغنيهم عن العمل . فأخذوا فى التكاسل لذى اعقبه الفسـاد والتدهور . وتركوا أمور الحرث والغرس لعامة الناس يقومون بهـا تحت اشرافهم . وهكذا أصبح الراهب يجنى خيرات الأرض دون أن يتعب فيها . وترتب على ذلك أن دب الفساد فى الأديرة البندكتيه . ولم يأت القرن التاسع حتى أخذ الناس يدعون لاصلاحها بكل الطرق والوسـائل .

الاصلاح الكلونى فى أوائل القرن العاشر :

كان من أثر الموقف السىء فى أديرة بندكت أن ظهرت فى أوائل القرن العاشر جماعة جديدة دعت الى الاصلاح الشامل . تلك هى جماعة ديركلونى الواقع بالقرب من الحدود الفرنسية الالمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون Mâcon

ركز رهبان كلونى جهودهم بادىء الأمر على اصلاح أحـوالهم الداخلية بين جدران أديرتهم . وبعد ذلك أخذوا ينشرون اصلاحاتهم بين الجماعات الأخرى المجاورة لهم . ثم مالبثت أن انضمت اليهـم بعض البيوتات القديمة . كما أسسوا هم أيضا من أموالهم أديـرة كلونية جديدة . وسرعان ما أصبحت الحركة الكلونية فى القـرن العاشر نموذجا يحتذى من نماذج الاصلاح .

ويقوم نظام كلونى على أساس الاتصـال المباشر بالبـابوية والاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية المحلية ، والاتحـاد

التام بين جميع الأديرة · وقد ظلت الجماعات الكلونية على اتصـــال ببعضها عن طريق خضوع جميع البيوتات الجديدة لدير كلونى الأصلى · وكذلك عن طريق عقد اجتماعات دورية بين رؤساء الأديرة فى كلونى لتداول الرأى فى كل ما يتعلق بشئون الاصلاح والتشاور فى سياسة مختلف الأديرة ·

وفضلا عما تقدم فقد عنى رهبان كلونى أيضا بالزراعة والعلوم والاعمال الأدبية ،فأصبحت بيوتهم مراكز للعلم والعرفان ·

لقد بدت آثار النهضة الكلونية واضحة فى أوروبا فى القـرنين العاشر والحادى عشر · ذلك أنها لم تقتصر على الدعوة للاصـــلاح فى حدود الديرية ، أنما دعت الى اصـــلاح الجهاز الكنسى البابوى كله من الفساد الذى تغلغل فى كيانه وقتذاك ، ومن ذلك زواج القسيس ، والرشوة التى تعرف أيضا بالسيمونية ، وبيع صكوك الغفران والوظائف الكنسية لمن يدفع الثمن الأكثـــر ·

وهكذا أصبحت حركة الاصلاح الكلونى حركة قوية بانتشارهـــا خارج منطقة كلونى وخارج فرنسا بحيث أصبحت حركة دولية تشمل معظم أجزاء الغرب الأوروبى ·

الجماعات الرهبانية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر :

من النتائج التى ترتبت على الاصلاح الكلونى أن الديرية أصبحت لها مكانة بارزة فى المجتمع الغربى الوسيط وفى الكنيسة اللاتينية · وأقبل الناس على أعتناق مبادئها فى أعداد كبيرة · ولما كانت أديرة كلونى لا تتسع لهذا السيل الجارف من الناس الذين اعتنقوا الرهبانية، فقد فكر الكثيرون فى انشاء جماعات جديدة لتحتضن الفائض من الناس ولتعمل فى ذات الوقت على استكمال مشروعـات كلـونى ، والقيـام باصلاحات جديدة · ومن أهم الجماعات الجديدة ما يلى :

(١) اخوان جراندمونت Order of Grandmont

تأسست هذه الجماعة ما بين عامى ١٠٧٣ ، ١٠٧٦ ، وهى تشبه الى حد ما جماعة كلونى ، وان كانت تختلف عنها فى تحريم ملكية الأرض والكنائس الدواب على رجالها،وفى العيش على التسول والاحسان مع التزام حياة الفقر المدقع ٠

(٢) جماعة الاخوان الكارثوذيان Carthusian Order

وقد أسسها القديس برونو Bruno الألمانى الاصل فى مقاطعة دوفينية Dauphiné فى الجنوب الغربى من فرنسا على الحدود الألمانية ٠ وكان رهبانها ينزعون الى التوحد كل فى صومعته، وان كانوا يعيشون داخل دير واحد ٠ وهدفهم التزام الهدوء والسكون والتأمل فى ذات الله العلية ٠

(٣) جماعة الاخوان السترشيان Cistercian Order

أسسها راهب فرنسى يسمى روبرت سنة ١٠٩٨ ، وكان نظامه ينطوى على العودة الى التعاليم البندكتية مع ادخال شىء من التصوف عليها ، وتجنب الملبس الفاخر ، والتمسك بالبساطة فى كل شىء ٠ وقد انقطع هؤلاء الرهبان عن العالم الى الجهات المقفرة واختصوا برعاية الأغنام حتى زادت أديرتهم زيادة هائلة فى وقت قصير ٠ ومن بين جدرانها تخرج كثير من فلاسفة العصر ونوابغه أمثال القديس برنارد أوف كليرفو الذى أسس ديره الشهير فى كليرفو سنة ١١١٥ ٠

(٤) جماعة الاخوان الفرنسسكان Franciscan Order

مؤسسها هو القديس فرنسيس الأسيزى st. Francis of Assisi وهو ايطالى من مدينة اسيزى ، أسس جماعته فيما بين عامى ١١٣٨ و ١٢٢٦ ٠ ولم يكن يستهدف من نظامه أن يعيش الرهبان داخل أديرتهم منكبين على الصلاة والعبادة وتخليص أرواحهم فحسب ، وانما الاندماج فى الحياة العامة للوعظ والتبشير والارشاد بين الناس ٠ وكانوا يكتفون بالنزر اليسير من القوت والعمل اليدوى متى كان متوفرا ، أو التسول

اذا لم يكن هناك سبيل للكسب • وقد انتشرت تعاليم هـذه الجماعة ، وأسست الكثير من المدارس ، وصمدت على مر القرون والأجيال حتى يومنا هذا • واقتصر عمل أعضائها الأصلى فى الواقع على القيام بشئون العلم والتعليم فى مختلف بقاع الأرض •

(٥) جماعة الاخوان الدومينيكان Dominican Order

وقد أسسها القديس دومينيك **الاسبانى** سنة st: Dominic ١٢١٥ للوعظ والارشاد بين الناس ، ومكافحة تيار الهرطقة الذى ظهر فى الكنيسة وخارجها فى أخريات القرن الثانى عشر وأوائل القـرن الثالث عشر • وهم يشبهون الفرنسسكان فى تفاليدهم وفى اختلاطهم بالعالم الخـــارجى •

(٦) جماعات الرهبان المحاربين Military Orders

والى جانب هذه الجماعات الرهبانية التى ذكرنا أمثلة منها ، نشأ نوع آخر من الرهبان المحاربين كنتيجة للظروف التى قامت حول الحروب الصليبية • اذ أنتجت تلك الحروب نوعا آخر هو الفرق الرهبانيـــة المحاربة التى جمعتا الى جانب حياة التبتل والطهارة صناعة الحـرب للاشتراك فى ميدان القتال الجديد بالارض المقدسة • وفيما يلى أهم هذه الفـــرق :

(١) جماعة الاسبتاريـــة Knights Hospitallers

وقد اجتمعوا لأول مرة عام ١٠٩٩ وكانوا رهبانا ممرضين وفرسانا محاربين •

(٢) جماعة الفرســـان الداويـــة Knights Templars

تأسست سنة ١١١٩ على نمط الاسبتارية وهم أيضا من الرهبان المحـاربين الذين أشتهروا بين العرب فى سورية ومصر •

الخـــــلاصة :

نخلص مما سبق أن نشأة الرهبنة ثم تطورها الى الديرية ، وما أستتبع ذلك من حركات الاصلاح العديدة ،وقيام جماعات الاخوان فى أوروبا ، وجماعات الفرسان المحاربين فى الأرض المقدسة ـ كل هذا يبين ماكان لتلك الحركة من أهمية فى العصور الوسطى وفى تاريخ الحضارة الأوروبية ٠ اذ كانت تلك الأديرة مراكز للعلم ومعاهد للتعليم ونسخ الكتب فى تلك القرون الأولى من العصور الوسطى التى انتابها الظلام الحالك ٠ كما أنتجت الكثير من المصلحين والعلماء وكبار رجال الدين الذين ملاءوا العصور الوسطى صخبا وضجيجا فى شتى نواحى الحضارة ٠

الموضوع الحادى عشر

الصراع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى

والنظريات السياسية التى أثيرت حوله

الكنيسة والبابوية فى الغرب حتى القرن العاشر الميلادى :

لتفهم الصراع الذى قام بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى ، والنظريات السياسية التى أثيرت حوله والنتائج الخطيرة التى ترتبت عليه ، يجب أن نمهد لذلك بكلمة سريعة عن الكنيسة والبابوية حتى قيام الامبراطورية فى عهد شارلمان وتجديدها فى عهد أوتو .

مرت الكنيسة والبابوية فى تاريخها الطويل فى المجتمع الغربى الوسيط بثلاث مراحل رئيسية : المرحلة الأولى وقد شغلت القسم الاول من العصر الوسيط ، أى الفترة من أواخر القرن الخامس حتى القرن العاشر تقريبا ، وتتميز بظهور المسيحية وانتشارها وتأصيلها وتأسيس الكنيسة الرومانية والبابوية في روما . أما المرحلة الثانية وتشغل الفترة الوسيطة من القرون الوسطى وهى القرون الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر ،وتتميز بالصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية فى سبيل السيادة العلمانية ، وفيها بلغت البابوية ذروة مجدها ، وان كانت فى الواقع تحمل بين طياتها عوامل الضعف والانهيار .وأما المرحلة الثالثة والأخيرة ، ونعنى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فمن أبرز خصائصها الفساد الذى تغلغل فى الكنيسة وتدهور نفوذ البابوية وهيبتها ، وظهور حركات الاصلاح الكنسى مثل حركة يوحنا ويكلف فى انجلترا ويوحنا هس فى بوهيميا . وكان ذلك فى أخريات العصر الوسيط ، مما هيأ الجو لعصر جديد هو عصر النهضة .

ظهرت المسيحية فى أخريات التاريخ القديم . وعندما نزلت قبائل المتبربرين داخل حدود العالم الرومانى بعد سقوط الامبراطورية فى

القرن الخامس ، كانت هذه الديانة الجديدة قد تأصلت جذورها واعترف بها كديانة رسمية للدولة • وكان ذلك بعد صراع عنيف بين هذه الديانة الجديدة وبين الوثنية القديمة من ناحية ، وبينها وبين الأباطرة الرومان من ناحية أخرى ، وهم الذين وجدوا فيها منافسا خطيرا لسيادتهم ونفوذهم • وكان من نتيجة الاضطهاد الذى وقع على المسيحين فى تلك القرون الاولى ، هو تأسيس كنيسة ليتسنى لأتباعها تنظيم صفوفهم ولم شملهم ، وهكذا تأسست الكنيسة الرومانية التى كان لها شأن خطير فى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وفى سياستها وحضارتها • وكان على رأس هذه الكنيسة فى روما أسقف ، شأنه شأن غيره من أساقفة العالم المسيحى فى الشرق والغرب • وكان هؤلاء الأساقفة فى العهود الأولى للمسيحية مثال الزهد والتقوى والورع والعمل على رعاية الناس وتخفيف آلامهم وأحزانهم فى أوقات الفوضى والاضطراب التى صاحبت غزوات البرابرة •

وبمضى الوقت أخذت كنيسة روما تتفوق على باقى الكنائس المسيحية • كما أصبح لاسقفها مركز الصدارة بين أقرانه بعد أن خلا له الجو بسقوط روما فى أخريات القرن الخامس وانتقال الأباطرة قبل ذلك الى القسطنطينية ، وبعد أن ورث القياصرة الأقدمين سلطانهم ونفوذهم ، وبعد نشاطه الكبير فى التبشير بالدين الجديد •وأخذ هذا الاسقف يتجه تدريجيا الى فكرة زعامة الغرب دينيا ودنيويا • وأخذت أسقفية روما فى النمو • ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الى بابوية لها هيبتها ومكانتها ومقوماتها وطابعها الخاص بها • وتدعيما لاستقلالها ، لم تلبث أن انفصلت عن زميلتها الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية التى كانت تعتبر نفسها بحق وجودها فى القسطنطينية عاصمة الاباطرة الشرقيين كراعية للكنائس المسيحية الاخرى •

ولاخلاف أن الفضل يرجع الى جريجورى الكبير فيما وصلت اليه أسقفية روما من مكانة مرموقة فى أخريات القرن السادس ، وفى أسبقيتها على باقى أسقفيات الغرب الاوروبى • بل كان هذا الرجل هو الذى جعل اسقفية روما تأخذ طابعا أعم وأوسع الا وهو طابع البابوية حتى ليمكن القول أنه بنهاية بابويته كان قد وضع الاساس الذى بنى عليه نفوذ بابوية روما فى الامور الدينية والعلمانية على السواء • فكان يسعى الى استقلال الكنيسة الغربية عن زميلتها الشرقية فى الناحية الدينية ، ووضع اللبنات • الاولى لاستقلال البابوية من الناحية السياسية • وبموته فى سنة ٦٠٤ كانت معالم الطريق واضحة تماما أمام خلفائه من البابوات الذين نهجوا نهجه •

وتحقيقا لهذه السياسة نجد أن البابا مارتين الاول (٦٤٩ ـ ٦٥٥) يقف موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية • وفى عهد بابوية جريجورى الثانى (٧١٥ ـ ٧٣١) نراه يواجه الحركة اللاأيقونية التى قام بها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الايسورى ، ويتحداه تحديا صريحا ، ويشجع الرومانيين على اهمال قراراته • وقد أخذت الشقة تزداد بعدا بين الكنيستين حتى انتهى الامر بينهما فيما بعد الى القطيعة الدينية المعروفة اواسط القرن الحادى عشر التى أدت انفصال الكنيستين عن بعضهما انفصالا تاما لا رجعة فيه • وتتخذ المعارضة شكلا قويا عندما أصدر البابا المذكور قرارا بحرمان الامبراطور اللاأيقونى ورد الامبراطور ليو عليه بخطوات أشد عنفا عندما قرر حرمان بابوية روما من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا،كما فصل جميع الكراسى الأسقفية عن روما وحولها الى بطريق القسطنطينية • وهكذا أدى النقاش ضد الصور والايقونات الى انفصام صريح بين البابوية فى روما والامبراطورية البيزنطية مما ترتب

عليه ضعف سلطة بيزنطة في الغرب بعامة وفي ايطاليا بصفة خاصة، وأصبح ممثل الامبراطور في روما مجرد ظل لاحول له ولا طول . ولم تلبث العلاقات بين المسيحين في الشرق والغرب أن مرت بأزمة جديدة ، وكان ذلك في فترة حكم الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٩٧ ـ ٨٠٢) . اذ قام البابا الروماني ليو الثالث وقتذاك بتتويج شارلمان امبراطورا على الغرب ، وحول إليه رسميا تلك التبعية الشكلية التي كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية . فكان هذا ايذانا خطيرا بفصم ذلك الارتباط الواهي الذي ظل قائما بين روما والقسطنطينية منذ أيام الامبراطورية القديمة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية .

وكان الجهاز الكنسي البابوي في الغرب قد بلغ ذروة قوته نتيجة للظروف التي أحاطت بنشأته عند الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، والتي جعلت منه قوة دينية ودنيوية هائلة ، بحيث أمكنه أن يسيطر على مقدرات الافراد في الغرب وعلى حياتهم الخاصة والعامة، له الامر والنهي ، وعلى الجميع السمع والطاعة والويل كل الويل لمن يخالف تعاليمه وأوامره ويحاول الخروج عليها . وحينئذ يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب . وما أكثر أسلحة الكنيسة التي كانت تستخدمها ضد معارضيها والخارجين عليها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع .

هكذا أخذت الكنيسة وعلى رأسها البابا ، تستعد لفرض سيطرتها الدينية والدنيوية على العالم المسيحي الغربي من أقصاه الى أقصاه ، فضلا عن أطماعها في ادخال الدولة البيزنطية في المسيحية على المذهب الروماني . ولكن بأحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب في عهد شارلمان ، ثم تجديدها زمن اوتو الكبير في وقت بلغت فيه تلك الكنيسة ذروة قوتها ، يدخل التاريخ الأوروبي مرحلة جديدة من

أبرز صفاتها ذلك النزاع الذى قام بين البابوية والامبراطورية ، أو بكلمة أدق ، بين عاهلى العالم المسيحى الغربى حول المسائل العلمانية ، والذى شغل الغرب قرابة ثلاثة قرون الزمان وعانت منه المسيحية الأمرين ·

الكفاح بين البابوية والامبراطورية منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر :

باحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة فى مستهل القرن التاسع وتتويج شارلمان امبراطورا لها ، كانت البابوية قد ثبتت دعائمها ، ولم يبق أمام البابوات الا مواصلة الجهود الجبارة التى كان قد بدأها جريجورى العظيم · وكان هذا ايذانا ببداية الدور الثانى فى تاريخ البابوية الذى يتمثل فى الصراع العنيف بينها وبين الامبراطورية على الأمور العلمانية ·

وقد شغل هذا الصراع أكثر من ثلاثة قرون ، ويميز القسم الثانى من تاريخ العصور الوسطى · وتفصيل ذلك أن الامبراطورية التى أسسها شارلمان بدعوة من البابا ليو الثالث سرعان ما ضعفت ووهنت بموته سنة ٨١٤ ، واقتسام أشلائها بين خلفائه حسبما ذكرنا· ولكن الظروف لم تلبث أن ساعدت الملك اوتو الكبير (٩٣٦ ـ ٩٧٣) ابن هنرى الأول ، أول ملوك أسرة السكسون الألمان ، عندما طلب البابا يوحنا الثانى عشر ورجال الدين من اوتو الوقوف الى جانبهم ضد مناوئيهم فى ايطاليا · وتقديرا لجميله عرض البابا التاج على اوتو الذى بادر بقبوله راضيا · وهكذا تجددت الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة · ولكن تجديدها هذه المرة الذى تم بفضل البابوية ، لم يكن بحال فى صالح البابوية · اذ بدأت مصالح الأباطرة الألمان تصطدم بمصالح الكنيسة والبابوية بسبب اشتباك المصالح الألمانية الايطالية وتداخلها ، ومحاولات الأباطرة الألمان تثبيت نفوذهم فى ايطاليا على حساب البابوات ·

وفى تلك الاثناء كانت البابوية تسير سريعا نحو الضعف والانهيار نتيجة العيوب العديدة التى تفشت فيها وفى الجهاز الكنسى بأكمله . ولعل من أهمها مسألة انتخاب البابوات ، وبيع الوظائف الكنسيـة ، وانتشار السيمونية أى الرشوة ، وزواج رجال الدين . كما تدهورت نظم الرهبنة والديرية ، وأصبحت الدعوة الى الاصـلاح ماسة وعاجلة . وقد لاقت هذه الحركة تأييدا كبـيرا من الامبراطور هنرى الثـالث الالمانى (١٠٣٩ - ١٠٥٦) الذى قضى على التلاعب فى مسألة انتخاب البابوات ، وكان له الفضل فى اعتلاء ليو التاسع ، البابا الرحـالة (١٠٤٩ - ١٠٥٤) ، الكرسى البابوى سنة ١٠٤٩ - ذلك البابا الذى انتعشت البابوية فى عهده ورجعت الى سالف قوتها ومجدها . وخلفه بابا لايقل عنه قوة ومقدرة هو جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الذى استقلت البابوية فى عهده اسـتقلالا تاما فى الناحيتين الدينيـة والسياسية . وقد عمل جريجـورى السابع على تنقية البـابوية من عيوبها ، وتطهير الكنيسة من الشوائب العالقة بها ، لتسـمو على أى نفوذ آخر حتى ولو كان نفوذ الامبراطورية نفسها .

والواقع أن وجود شخص كبير المطـامع والآمال على الكـرسى البابوى مثل جريجورى ، فى الوقت الذى كان يجلس فيه على عـرش الامبراطورية الألمانية طفل صغير هو هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) - كان فرصة ذهبية استغلها جريجورى لفرض نفوذه الدنيوى الى جانب سلطانه الدينى على ايطاليا كلها ، والعمـل على اعلاء كفـة البابوية على الامبراطورية . وكان هذا بالتالى ايذانا ببداية المرحلة الاولى من الصراع المرير بين هاتين القوتين العالميتين فى العالم المسيحى الغربى حول الأمور الدنيوية .

ولقد عانت منه المسيحية الغربية الأمرين . وكانت له أسـوء العواقب بالنسـبة للكنيسة والبـابوية ، كما أدى فى أواخر العصر

الوسيط الى انحلال الكنيسة والخروج على سلطانها ، وتدهور البابوية والقضاء على سلطة البابوات .

على أية حال ، ففى عام ١٠٧٥ سرعان ماقام النزاع بين جريجورى السابع ، وهنرى الرابع حول مسألة التقليد العلمانى Lay Investiture عندما أصدر البابا مرسوما بعدم تدخل الامبراطور فى تنصيب رجال الدين فى مناصبهم الدينية واقطاعاتهم الدنيوية . وكان من نتيجة ذلك أن قام أساقفة هنرى وأتباعه الألمان بخلع جريجورى فى مجمع ورمز Worms عام ١٠٧٦ بايحاء من الإمبراطور نفسه . بينما رد البابا على ذلك بحرمان هنرى ورجاله الذين اشتركوا فى المجمع المذكور . وكان من أثر ذلك أن قامت الحرب بين الرجلين التى انتهت برضوخ هنرى لمطالب البابا وان لامه فى حادثة كانوسا Canossa الشهيرة فى تاريخ الكنيسة والبابوية خاصة وفى تاريخ اوروبا الوسيط بصفة عامة .

ويأتى بعد جريجورى السابع بسنوات معدودات بابا لا يقل عنه قوة ومقدرة وهو البابا اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) الذى افتتح عصر التوسع الصليبى ضد العالم العربى الاسلامى فى مؤتمر كليرمون الكنسى فى أواخر نوفمبر من عام ١٠٩٥ . وكانت الخلافات على أشدها بينه وبين ملوك الغرب . فقد أوقع قرار الحرمان فى المؤتمر المذكور ضد فيليب الأول ملك فرنسا لعلاقته غير المشروعة مع خليلته برتراد دى منتفرت Bertrade de Montfort ، وهدد وليم الثانى ملك انجلترا النورمانى بالحرمان لخروجه على تعاليم الكنيسة اللاتينية . كما واصل سياسة سلفه جريجورى فى الافتئات على سلطان الامبراطورية . ولذلك لم تكن العلاقات طيبة بينه وبين خصمه الامبراطور الألمانى هنرى الرابع . وكانت بينهما جولات وصولات انتهت بانتصار اربان الذى أصدر قرار الحرمان الكنسى ضد هنرى .

ولعل هذا يفسر لنا سبب عدم اشتراك الامبراطور الألماني وملـــوك الغرب فى الحملة الصليبية الأولى التى دعا اليها هذا البابا ، تاركـــا هذا الدور ليقوم به كبار رجال الاقطاع وقتذاك • ويعد موقف البـابا اربان فى الافتئات على حقوق الملوك فى الغرب امتدادا لسياسة سلفه جريجورى السابع واستمراراً للسياسة التى رسمها لهم جريجـــورى الكبير مؤسس البابوية •

خرجت البابوية منتصرة من هذا الصراع لتبدأ مرحلة ثانيـــة عندما عملت الملكية الألمانية على محو العار الذى لحقها فى كانوســـــا ومضاعفاته أيام اربان الثانى • وكان ذلك فى عهد الامبراطـور هنرى الخامس (١١٠٦ ــ ١١٢٥) الذى سعى للتحرر من ربقة العبـــودية للبابوية • وانتهى الامر بعقد اتفاقية ورمز Worms سنة ١١٢٢ بينه وبين البابا كاليكستس الثـانى Calixtus II (١١١٩ـ١١٢٤) التى تم بمقتضاها حل مشكلة التقليد العلمانى الذى كان سبب المتاعب المباشرة بين العاهلين • ولكن هذا لم يكن يعنى بأى حال زوال الأسباب الرئيسية الجوهرية للنزاع بينهما • فقد كان كليهما يتنازع السلطان الأعلى على العالم المسيحى • اذ سرعان مابدأت المرحلة الثالثة من النزاع بينهما بتولى فردريك الأول باربروسا عرش الامبراطـورية فى ١١٥٢ ، وقد امتد حكمه حتى سنة ١١٩٠ • وكان السبب هذه المرة هو التدخل الامبراطورى الألمانى فى حكم ايطاليا • وكان من نتيجة ذلك أن توالت الحملات الامبراطورية على ايطـاليا وقد انتهت بهـــزيمة فردريك فى الحملة الخامسة والأخيرة (١١٧٤ ـ١١٧٦) أمام حلف المدن اللمباردية المنحاز الى صف البابا للحصول على استقلالها • وكما أذل جريجـورى السابع الامبراطور هنرى الرابع فى كانوسا من قبل ، كذلك أذل البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ ــ ١٨٨١) الامبراطور فردريك باربروســا ، وان لم يمعن فى ذلك كما فعل سلفه •

ويستمر الحال هكذا الى أن اعتلى الكرسى البابوى شخص من اقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦) ، الذى كان ينظر الى البابا باعتباره خليفة الله على الأرض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله . وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تصطدم القوتين ببعضهما مرة أخرى . ويكاد يتفق جميع المؤرخين أن البابوية بلغت أوج عظمتها فى عهد انوسنت ، بعد أن أصبحت الامبراطورية تحت رحمته ، وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء .

ولكن هذا النصر الكبير كان يحمل بين طباته بذور الضعف والخذلان . ذلك أن الكنيسة اللاتينية كان قد تفشى فيها الفساد . كما خرجت البابوية على رسالتها الروحية مما آثار الشكوك فى أذهان الناس حول الكنيسة وتعاليمها والبابوية وتصرفاتها . ويبدأ نجم البابوية فى الافول ويتمثل هذا فى اذلال فيليب الرابع المعروف باسم فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤) ملك فرنسا للبابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣) . ونبدأ حال البابوية تسير منذ ذلك الحين من سيء الى أسوأ ، فى وقت كان فيه العالم الغربى فى تغير تدريجى مستمر . ويترك البابوات روما الى المنفى فى افنيون لمدة سبعين سنة أو يزيد (١٣٠٥ - ١٣٧٨) ، وينقسم رجال الكنيسة على بعضهم . وتحدث القطيعة الدينية الكبرى فى الغرب The Great Schism (١٣٧٨ - ١٤١٧) ، وتعقد المجالس الدينية Concillar Movement لانقاذ مايمكن انقاذه . وترتفع الأصوات الحرة الجريئة المنادية بضرورة الاصلاح الشامل . هذا ، فى الوقت الذى أخذ فيه الناس فى التخلى عن البابوية نتيجة انصرافها عن رسالتها الروحية ، وانشغالها فى العمل على بسط سيادتها الزمنية

وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطـــرس ، فسبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العـالم » • لقد كان لدى متى من الجـــرأة والشجاعة مايكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفـرد الوسيط داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الافلات منهـــا ، وان كانت تباشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق • ويجىء بعـــد ذلك مفكر آخر مثل « دانتى اليجيرى » الشاعر الفلورنسى الذى عاش فى أواخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابـع عشر (١٢٦٥ — ١٣٢١) ، والذى أحس بأن الكنيسة اللاتينية كانت لتقوى أكثـر مما كانت عليه لو أن الامبراطور قسطنطين قلدها سلطة دنيوية أقل ممـا تمتعت به ، اشارة غير مباشرة الى الهبة المذكورة • وهو يلمح من طرف خفى أن البابا لو كان قد قصر رسالته على الشئون الدينية فحسب وهى العمل على رعاية أرواح أتبـــاعه ، وابتعد عن التطلع الى الســيادة العلمانية ، لما حدث ماحدث من انزلاقه فى صراعات دامية ضد القوى الزمنية فى الغرب . ولما فقدت البابوية الكثير من هيبتها وقدسيتهـــا اللتين كانت تتمتع بهما •

وكيفما كان الأمر ، فقد ثبت اختلاق هذه الرواية منذ أواخـــر القرون الوسطى ، حين قام بتفنيدها تفنيدا علميا شخص يدعى لورنسو فالا Lorenso Valla سنة ١٤٤٠ • اذ ثبت تاريخيـــــا أن هجـــر روما وتأسيس مدينة القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع لاشأن لـه اداريا ، والفوضى المالية الضاربة أطنابها فى كل شىء فيها ، وتدهور الرومانية وسقوطها • والتى تنحصر فى تفكك الامبراطورية الرومانية اداريا ، والفوضى المالية الضاربة أطنابها فى كل شىء فيها ، وتدهور الحياة الاقتصادية فيها ، وانغماس الرومان أنفسهم فى حياة التبـرف والملذات ، بينما تركوا الأمر للجند المرتزقة من الجرمان • وما الى ذلك من العوامل التى أدت الى هذا الانهيار ، مما حدا بالأباطرة الى التفكير

والآخر يمثل سلطانه على الأبدان ، بمعنى أن الواحد منهما قائم على الحكومة الدينية "Sacerdotium" والآخر يقوم على الحكومة الزمنية أو العالمية "Regnum" وتقول النظرية انه بعد انتشار المسيحية فى روما على يد القديس بطرس أحد تلامذة المسيح ، سلمه اله كلا هذين السيفين • فأعطى بطرس سيف الأرواح للبابا وسيف الأبدان للامبراطور • ولما كان الأول بطبيعة الحال يتفوق على الثانى ، فقد نتج عن ذلك تفوق البابوية على الامبراطورية •

النظرية الثالثة : هبة قسطنطين "Donatio Constantini"

ومن ابتداعات ذلك العصر ، تلك النظرية التى تحمل اسم « هبة قسطنطين » • وتتلخص فى أن بعض المتحمسين للبابوية ذكروا أن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ ـ ٣٣٧) كان قد ابتلى بداء عضال هو مرض الجذام لم يشف منه الا بصلوات وبركات البابا سلفستر الأول Sylvester I (٣١٤ ـ ٣٣٥) • فكافأه قسطنطين على نعمته وبركته باصدار قانون يبيح للبابا بلبس التاج والقرمز واستعمال الصولجان تماما كالأباطرة • كما منح الأساقفة وهيئة كبار رجال الدين نفس الامتيازات التى كانت لشيوخ الامبراطورية • ولكى لاتتأثر سلطة البابا بوجود شخص الامبراطور فى روما ، فقد تركها قسطنطين للبابوات ، وابتنى لنفسه عاصمة جديدة فى الشرق عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، آلا وهى القسطنطينية • ثم عهد للبابوات بحكم روما وايطاليا كلها •

وقد تعرض لهذه الهبة أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى وهو الراهب الانجليزى متى البباريزى **Matthew Paris** فى كتابه المسمى « تاريخ انجلترا » ، عندما تحدث فى سخرية مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسى فى الغرب وعلى رأسه البابا • اذ يقول : « لقد اقتفى البابا ـ وهو ابونا الروحى ـ خطى الامبراطور قسطنطين

وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطـــرس ، فسبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العـالم » • لقد كان لدى متى من الجـــرأة والشجاعة مايكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفـرد الوسيط داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الافلات منهـــا ، وان كانت تباشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق • ويجىء بعـــد ذلك مفكر آخر مثل « دانتى اليجيرى » الشاعر الفلورنسى الذى عاش فى أواخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابـع عشر (١٢٦٥ - ١٣٢١) ، والذى أحس بأن الكنيسة اللاتينية كانت لتقوى أكثـر مما كانت عليه لو أن الامبراطور قسطنطين قلدها سلطة دنيوية أقل ممـا تمتعت به ، اشارة غير مباشرة الى الهبة المذكورة • وهو يلمح من طرف خفى أن البابا لو كان قد قصر رسالته على الشئون الدينية فحسب وهى العمل على رعاية أرواح أتبـــاعه ، وابتعد عن التطلع الى الســيادة العلمانية ، لما حدث ماحدث من انزلاقه فى صراعات دامية ضد القوى الزمنية فى الغرب . ولما فقدت البابوية الكثير من هيبتها وقدسيتهـــا اللتين كانت تتمتع بهما •

وكيفما كان الأمر ، فقد ثبت اختلاق هذه الرواية منذ أواخـــر القرون الوسطى ، حين قام بتفنيدها تفنيدا علميا شخص يدعى لورنسو فالا Lorenso Valla سنة ١٤٤٠ • اذ ثبت تاريخيـــا أن هجـــر روما وتأسيس مدينة القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع لاشأن لـه اداريا ، والفوضى المالية الضاربة أطنابها فى كل شىء فيها ، وتدهور الرومانية وسقوطها • والتى تنحصر فى تفكك الامبراطورية الرومانية اداريا ، والفوضى المالية الضاربة أطنابها فى كل شىء فيها ، وتدهور الحياة الاقتصادية فيها ، وانغماس الرومان أنفسهم فى حياة التبـرف والملذات ، بينما تركوا الأمر للجند المرتزقة من الجرمان • وما الى ذلك من العوامل التى أدت الى هذا الانهيار ، مما حدا بالأباطرة الى التفكير

فى نقل العاصمة الى مكان آخر يكون أكثر أمنا وسلاما واستقرارا ، ويكون بمثابة روما جديدة تحل محل روما القديمة الواقعة فى منتصف البروز الايطالى ، والتى لم تعد تفى بمقتضيات العصر واحتياجاته ·

النظرية الرابعة : مدينة الله De Civitate Dei

وثمة نظرية روج لها دعاة الحزب البابوى ومصدرها كتاب « مدينة الله » للقديس أوغسطين اوف هيبو الذى بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ · وقد ألف عقب الكارثة التى نزلت بروما على يد الاريك القوطى Alaric سنة ٤١٠ · وكان الجرمان يكتسحون العالم الرومانى ويقضون على المدنية الرومانية ، بينما أبقوا على شىء واحد وهو المسيحية وكنيستها · ويقول اوغسطين في كتابه انه اذا جاز أن تتحطم مدينة الانسان المبنية على القوة المادية ، فان مدينة الله لاتزال بخير ، واذا كان بوسع البشر قتل الجسد فان الروح لاقدرة لهم على المساس بها · ويقصد بهذا انه اذا زالت الدولة الرومانية فقد بقيت الكنيسة بعدها · وخصص اوغسطين القسم الأول من كتابه « المدينة السماوية » للرد على اولئك الذين نادوا بأن المسيحية هى سبب تدهور الامبراطورية الرومانية القديمة وسقوطها ، مبينا أن الوثنية التى كانت سائدة وقتئذ هى سبب الكارثة التى حلت بها · ويخلص من ذلك أن المدينة الأرضية تفنى كما يفنى الانسان أما مدينة الله فانها تدوم مع الروح · ومن الأشياء الجديرة بالذكر أن القديس اوغسطين قد بالغ فى كتابه فى موضوع عنصر الازدواج فى المسيحية · ويبدو أن ذلك يرجع الى أنه كان فى بداية حياته مانويا ، نسبة الى المذهب المانوى الفارسى القائل بوجود الهين فى الكون أحدهما للخير والآخر للشر · فالحياة فى نظره صراع بين الجسد والروح وبين الظلام والنور ، وان سبيل الخلاص الذى هو الغاية النهائية لكل كائن حى هو المسيحية وفلسفتها ·

تلك هى أهم الآراء والأفكار التى تضمنها كتاب « مدينة الله » وعندما قام الصراع بين البابوية والامبراطورية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، تحددت معالم الفكر السياسى فى القرون الوسطى بشكل نهائى • وكانت الخطوط الرئيسية لهذا الفكر وفلسفته قد وضحت فعلا فى كتاب اوغسطين • وكان من الطبيعى أن ترتكز عليه البابوية لتأييد مطالبها وادعاءاتها ضد الامبراطورية ؛ اذ اكتشفت فيه العديد من الحجج والأسانيد التى اعتمدت عليها لابراز نفوذ مدينة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينة الانسان أى الدولة وعلى رأسها الامبراطور •

وهكذا رسم اوغسطين أوف هيبو فى مؤلفه الخطوط العريضة لفلسفة المسيحية فى اوروبا فى القرون الوسطى ، وكان البابوات يعتمدون عليه عندما ثار النزاع بينهم وبين القوى الزمنية فى الغرب على الأمور العلمانية لتبرير تفوق سلطانهم على تلك القوى ، وتتلخص هذه الفلسفة فى أن الكنيسة الرومانية اللاتينية من عمل الله فى حين أن الدولة من عمل الانسان • وعلى هذا تكون سلطة البابا وهو الحاكم الدينى الأعلى و « خليفة القديس بطرس تلميذ المسيح ، وممثل الله على الأرض ، ورأس الكنيسة المسيحية الرومانية » فى مرتبة أعلى من تلك التى يتمتع بها منافسه الامبراطور وهو الحاكم العلمانى ، فى عصر كانت فيه الروح فوق الجسد والايمان فوق العقل • ويترتب على ذلك خضوع الدولة للكنيسة وخضوع الامبراطور وغيره من الحكام العلمانيين فى الغرب للبابا •

النظرية الخامسة : هبة ببن Donation of Pepin

تنسب هذه الهبة الى ببن القصير الذى كان آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الأسرة الكارولنجية ، وكانت كلمة ببن هذا

هى الكلمة العليا فى الحكومة الميروفنجية ، فى حين كان ملوك هـــذه الدولة مجرد العوبة وليس لهم أى نفوذ • لذا قرر بين فى أواســـط القرن الثامن الاستيلاء على التاج الميروفنجى بالوسائل الســـياسية والدبلوماسية وليس عن طريق القوة • فأرسل بعثة من قبله الى البابا زكريا فى روما يستفتيه ان كان من الأصوب أن يظل التـــاج الفرنجى على رأس من لاحول له ولا قوة ، أو على رأس من بيده الحل والعقـــد وان كان لا يحمل لقب الملك • وكان البابا زكريا سياسيا حكيمـــا ، اذ أدرك أنه لافائدة ترجى من التمسك بملوك ضعاف ، خاصة وقد علم أن بين كان عازما فعلا على الاستيلاء على التاج • ووجد أن من الأصوب ممالئته وكسبه الى جانبه • وكان أن أجابه لصالحه • فبادر بين على الفور بنقل التاج من آخر ملوك الميروفجيين العاطلين وهو شيلدريـك الثالث سنة ٧٥١ ، ذلك التاريخ الذى يعتبر بداية لدولة الكارولنجية• وفى سنة ٧٥٤ قدم البابا ستيفن الذى خلف زكريا الى غالة حيث توج بين ملكا على الفرنجة • وهكذا تم تأسيس البيت الكارولنجى بمباركة الكنيسة الرومانية له • وفى نفس تلك السنة نزل بين فى ايطـــاليا والحق الهزيمة باللمبارديين أعداء البابوية تلبية لدعوتها • وفى هذا الوقت أصدر بين الهبة المعروفة باسمه ، ومؤداها أنه قد وهب البابوية بالاضافة الى كيانها الروحى جميع ايطاليا لتكون ملكا لها وتحكم فيها حكما دنيويا •

النظرية السادسة : امبراطورية شارلمان

كذلك وجد عدد من الشراح من بين اتباع الكنيسة ومريديهـــا ، قاموا بتفسير قيام الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة تفسيرا يتفق ومصلحة البابويه ، بقولهم ان البابا باعتباره خليفة الله على الأرض وله سلطان الدين والدنيا ، هو الذى استخدم حقه طرد الامبراطور

البيزنطى من ايطاليا وهو الذى عهد الى شارلمان بامبراطوريته ، وهو الذى منح ذلك الامبراطور العظيم فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ تاجه من لدنه حتى ينوب عنه فى حكم العالم من الناحية الدنيوية الزمنية ٠

ولكن الباحث المدقق يرى أن تتويج شارلمان انما يرجع الى ظروف عديدة، بعضها مباشر وبعضها غير مباشر ٠ فمن الاسباب المباشرة توسعه الكبير فى اوروبا ، وتأسيسه امبراطورية عظيمة لم يكن يحمل حاكمها لقب الامبراطور فيها حسبما ذكرنا من قبل ٠ وكذلك تدخله فى شئون ايطاليا ومساندته للبابا ليو الثالث فى أواخر سنة ٨٠٠ ليفصل بينه وبين منافسه حول المساحات التى كانت تخضع للبابوية دينيا ودنيويا ، كما قام بتلبية استغاثة البابا ادريان الأول من قبل ٠وان البابا اعترافا منه بجميل شارلمان عليه عندما سارع باجابته إلى طلبه والحكم فى صالحه ضد جميع خصومه ، فقد ألبسه التاج فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة ٠ وهكذا تم احياء الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة وأصبح شارلمان بموافقة البابا خليفة القياصرة الأقدمين ٠

وكيفما كان الامر ، فقد نشأت حول تأسيس امبراطورية شارلمان نظريات عديدة معقدة ، منها أشرنا اليها آنفا والقائلة بأن البابا بوصفه خليفة القديس بطرس فى شئون الدين والدنيا ، قد مارس حقه فى عزل ممثل الامبراطور البيزنطى فى الغرب ، وفى منح تاج الامبراطورية الغربية الى شارلمان ٠ وهناك فريق يقول بأن شعب روما هو الذى استعمل حقه القديم فى انتخاب شارلمان امبراطورا ٠ وهناك نظرية ثالثة تقول بأن شارلمان كسب تاجه بالانتصارات الحربية التى احرزها فى الغرب ، ومصدر هذه النظرية هو الحزب الامبراطورى بطبيعة الحال ٠ ولعل أقرب هذه النظريات الى الصحة والصواب هى النظرية الاخيرة القائلة بأن شارلمان كسب تاجه بسيفه ، وهذا صحيح اذ تمكن

شارل العظيم من نشر نفوذه على المقاطعات الرومانية القديمة من بحر الشمال الى البحر المتوسط ، ومن حدود المتبربرين فى شرق اوروبا الى المحيط الأطلسى فى الغرب ٠

وعلى هذا فان اعتلاء شارلمان عرش الامبراطورية وتتويجه فى ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠ هو خاتمة طبيعية لنشاطه الفائق وجهوده العظيمة وفتوحاته الواسعة ٠ وكان تدخل البابا وقتذاك تدخلا روحيا فحسب وذلك حتى يضفى على حكم شارلمان الدنيوى صبغة شرعية دينية ٠ ونخلص من هذا أن نظرية الحزب البابوى انما وضعت لتدعيم مطالب البابوية من أجل السيادة العلمانية وتفوق نفوذها على القوى الزمنية الأخـــرى ٠

النظرية السابعة : امبراطورية اوتو الكبير المجددة

كذلك وجد بعض الشراح من أتباع الكنيسة ومؤيديها ممن قاموا بتفسير تجديد الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة فى عهد اوتو الكبير (٩٣٦ ـ ٩٧٣) فى سنة ٩٦٣ بما يتفـــق ومصالح البابويـة ٠ وخلاصتها ان البابا باعتباره ممثـل الله على الأرض وخليفة القديس بطرس هو الذى عرض على اوتو الكبير تاج الامبراطورية التى أسسها شارلمان لينوب عنه فى حكومة العالم ، فقبله اوتو ، وتم بذلك تجديد الامبراطورية بمباركة البابوية ٠

وما قيل عن منح البابا التاج لشارلمان ، يقال أيضا بالنسبة لمنح البابا يوحنا الثاني عشر التاج لاوتو الكبير ٠ اذ طلب البابـا يوحنـا الثانى عشر ورجال الدين من اوتو التدخل بينهم وبين عدوهم برنجار Berngar مركيـز فريولى الذى أخـــذ فى مناوئتهم ومضايقتهم وقد لبى اوتو الدعوة كما لبى شارلمان دعوة البابوية من قبل ٠ وتوجه اوتو الى روما التى دخلها ظافرا سنة ٩٦٢ ٠ وكانت مكافأته أن توجه

اليه البابا يوحنا الثانى عشر شاكرا مهنئا عارضا عليه تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة التى أسسها شارلمان ، وقبل اوتو التاج شاكرا ٠

وكان من أهم آثار تجديد هذه الامبراطورية تحت اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة الغربية المجددة ، هو اهتمام السياسة الألمانية بالشئون الايطالية ، ومحاولة تدعيم سلطانها على ايطاليا ٠ وكان أن اصطدمت مصالح المانيا بمصالح الكنيسة والبابوية فى ايطاليا ، ذلك الصدام الذى يميز بداية الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية فى سبيل السيادة العلمانية ٠ وغير خاف ان تجديد الامبراطورية ايام اوتو الكبير كان نتيجة لنشاطه الفائق وتدخله فى ايطاليا لصالح البابوية بناء على طلبها ٠ وكان منح البابا التاج له مجرد اجراء قصد به اضفاء صبغة دينية شرعية على ملكه الدنيوى ٠ تلك هى نظرية الحزب الامبراطورى ٠ وأما نظرية الحزب البابوى فقد وضعت لتعزيز مطالب البابوية فى السيادة العلمانية ٠

النظرية الثامنة : أقوال عدد من البابوات تعزيزا للسيادة البطرسية

وقد ذهب هذا النوع من التفكير الى أقصى مداه فى العبارات الصريحة التى فاه بها عدد من البابوات الذين اشتهروا بآرائهم الواضحة فيما يتعلق بسيادة البابوية على كافة القوى من امثال البابا نيقولا الأول ، والبابا جريجورى السابع ، والبابا انوسنت الثالث ، والبابا بونيفاس الثامن ٠ فنجد بابا مثل نيقولا الاول (٨٥٨ ــ ٨٦٧) يقول انه اذا عجز الحاكم العلمانى عن المحافظة على السلام والعمل على اقراره، وجب على الكنيسة أن تتدخل فى الأمر وأن تتولى الحكم الزمنى ٠ هذا ، بينما طالب البابا جريجورى السابع بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قايين، بمعنى أن دولة الكنيسة تسبق وتتفوق على الدولة العلمانية ٠ ويضيف بأنه من حق البابا تعيين

رجال الدين فى مناصبهم الدينية والدنيوية على السواء ، وأن من حقه أيضا عزلهم منها · وكان هذا من الأسباب التى أدت الى بداية الكفاح المرير بينه وبين الامبراطورية وقتذاك ممثلة فى شخص هنرى الرابع · ويجىء بعد ذلك البابا انوسنت الثالث فى بدايات القرن الثالث عشر ، وهو صاحب النظريات الحاسمة فى هذا الصدد · فقد قال « ان البابا خليفة الله والقديس بطرس على الأرض ، وهو وحده بيده مفاتيح السماء » · وقال ذات مرة ان البابا أقل من الله وأكبر من الانسان وهذا يعنى فى المصطلح السياسى أن انوسنت كان يعتبر نفسه الامبراطور الحقيقى الوحيد ، وكان يعتبر روما التى هى مقر البابوية عاصمة العالم الحقيقية ، أما الاباطرة والملوك وغيرهم من الحكام العلمانيين فى دولهم وممالكهم ليسوا الا عمالا للبابوية يدينون لها بالطاعة والولاء · وكتب انوسنت مرة فى احدى رسائله بأن الله خلق الشمس والقمر ليستضىء النهار بالشمس ولتخفيف ظلام الليل بالقمر ، وأنه سبحانه وتعالى كذلك خلق فى الكنيسة العالمية سلطتين أولاهما سلطة البابوية لتشرف على الارواح ، وثانيهما الملكية لتحكم فى الاجساد ، ولكن سلطان الاولى أعلى بكثير من سلطان الثانية · فكما يستمد القمر ضوءه من الشمس ، كذلك تستمد الثانية قوتها من الاولى · أى أن الملكية تستمد قوتها من البابوية · ومن الذى يجروء على وضع الجسد فوق الروح فى تلك العصور التى عرفت باسم عصور الايمان والتى هيمنت فيها الكنيسة اللاتينية على مصائر الافراد ومقدراتهم · ويلاحظ أن مثل هذه الافكار أخذت تسيطر على البابوات · فنجد فى القرن الرابع عشر بابا مثل بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) يقول بأن الخضوع للبابا االرومانى شرط ضرورى واساسى لخلاص جميع البشر ·

وجدير بالذكر ان مثل هذه النظريات التى أسلفنا اليها لم تكن عند البابا انوسنت الثالث أو غيره من البابوات والكتاب والفلاسفة

والمؤرخين مجرد حديث عادى ذى شجون ، أو مجرد رأى شخصى فحسب انما كانت عقيدة متأصلة فى أعماق أذهانهم وقلوبهم · وقد أصبحت هذه النظريات نبراسا للحزب الكنسى يهتدى به فى تحقيق عظمة البابوية ووضع سلطانها على الامبراطورية وعلى القوى الزمنية فى العالم المسيحى ، تماما مثلما كانت النظريات التى نادى بها الحزب الامبراطورى تدعيما لسلطان الاباطرة الدنيوى ، فى وقت كانت فيه كل من البابوية والامبراطورية تسعى لكى تكون لها السيادة العليا على المسيحى الغربى·

الموضوع الثاني عشر

الفروسية في المجتمع الغربي الوسيط

كان النظام الطبقى فى المجتمع الغربى الوسيط ينقسم الى ثلاث طبقات رئيسية هى طبقة المحاربين او المقاتلين وطبقة رجال الدين او المصلين وطبقة العاملين فى الارض • وقد عبر عن ذلك أحد ملوك انجلترا الانجلوسكسون ، وهو الملك الفريد الكبير (٨٧١ - ٩٠١) فى قوله المأثور :

"The house of God is triple : some fight, others pray and others **work**"

وترجع أصول طبقة الفرسان الى العناصر الجرمانية المتبربرة التى استقرت فى جوف الامبراطورية الرومانية وقضت عليها نهائيا فى سنة ٤٧٦ لتقيم ممالك لها على أنقاضها • لقد كانت نزعة القتال كما يقول المؤرخ الرومانى تاكيتوس **Tacitus** متأصلة عند هذه القبائل ، وهى ترتبط بالاقطاع وما يلحقه من نظم الفروسية التى تعتبر من الاعمدة الرئيسية التى ترتكز عليها العصور الوسطى •

لقد كانت هذه الطبقة حسبما أسلفنا فى موضوع النظام الطبقى فى المجتمع الغربى الوسيط ، تتكون أصلا من الرجال الاحرار ومن الاشراف والنبلاء الذين اتخذوا الحرب صناعة لهم • واشتغلوا فى بداية العصر الوسيط فى فرق المشاه فى جيوش القبائل الجرمانية ولكن تحولوا خلال القرن التاسع الى القتال على طهور الخيل ، وسموا منذ ذلك الحين باسم الفرسان **Knights** وقد أخذت ملابسهم تتطور بمرور الزمن • فأصبحت تتألف من الحلل الحديدية والخوذات الثقيلة وغيرها من الاسلحة مثل الدروع والسيوف والقسى التى كانوا يستخدمونها فى حروبهم الاقطاعية • وقد أصبح لكل فارس تابع **Squire** يلتحق به ويعاونه فى ارتداء ملابسه وحمل سلاحه • كما كان يأكل على مائدته ويشاركه فى معاركه وكان هذا التابع يتلقن أصول الفروسية على يد سيده • وعندما يبلغ سن الرشد يصبح هو الآخر فارسا ،

أى محاربا عظيما ، ويتم تنصيبه فى حفل فى كنيسة القرية أو المدينة يشهده أستاذه الفارس وأعيان القرية ورجال الدين فيها • ويبدأ الفارس الجديد يتدرج فى السلم الاقطاعى بين طبقة الاشراف • وجدير بالذكر أن أبناء تلك الطبقة لم يكتسبوا حقوق الوراثة من حيث اللقب والمركز وما يقترن بهما من ملكية الاقطاع بصفة ثابتة الا فى القرن الحادى عشر حينما أصبحت الفروسية لاتعنى صناعة الحرب والقتال فحسب ، وانما اصطبغت بصبغة النبل وشرف الاصل والمولد • وأصبح يتوارثها الابناء عن الآباء ، كما ارتبطت بالاقطاع من الارض •

وهكذا أصبح الفرسان يكونون طبقة شريفة مستقلة عن باقى طبقات المجتمع • وازداد مع الزمن نفوذها ، واتسعت سلطاتها ، وزادت مكانتها فى المجتمع ، حتى لم يعد الملك نفسه الا واحد من بين أفرادها

وجدير بالذكر أن افراد هذه الطبقة تمتعوا بامتيازات هامة ، وأسندت اليهم مسئوليات ومهام خطيرة ، وان كانت الحرب هى صناعتهم الاولى يبرزون فيها ماتعلموه من فنون القتال وأساليبه • لقد كان الفارس منهم ملزما بالدفاع عن الفقراء وعن كل بائس مسكين ، وكان الفقير بدوره ملزما باحترام الفارس وكان يجد فى كنفه الأمن والحماية •

ومن أهم المصادر فى التاريخ الغربى الوسيط التى تمدنا بنماذج حية وأمثلة عديدة عن الفروسية ومثلها ومبادئهـا وحفلاتها وطقوسها ومبارياتها ونظمها وأهم مظاهرها ، كتاب جوانفيل عن حياة القديس لويس وحولية فرواسار Froissart عن حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا • ففيهما نجد الشىء الكثير عن نواحى البطولة والمغامرة ، وعن مظاهر القوة والبطش والعنف ، ومظاهر العظمة والأبهة والاحتفالات الرائعة والمهرجانات • وكذلك نواحى الشجاعة

والشرف والنبل والمرؤة والكرم · فضلا عن المنازلات والمباريات الفردية ورحلات الصيد ، وما الى ذلك ·

وثمة مسألة جديرة بالذكر أشار اليها المؤرخ كارلس ديفز فى كتابه « اوروبا فى العصور الوسطى » ، وهى أن الفروسية كانت فى أقدم صورها من خلق الكنيسة نفسها ، اذ كان على الفرد قبل أن يصبح فارسا القيام بالقداس الدينى · وكان الفارس يلقن الدفاع عن الكنيسة والدين · وكان هذا النظام معمـــولا به فى ايطاليا فقط حتى قيـــام الحروب الصليبية . ولكن البابا اربان الثانى نقله الى شمال اوروبـا منذ نهاية القرن الحادى عشر ، وكان يعتبر الفرســـان جنود الله أو جنود الكنيسة · ولهذا السبب كانت الحروب المتواصلة الدامية التى تشنها اوروبا ضد غير المسيحيين الغربيين تعتبر من أولى الواجبـــات المفروضة على الفارس · مثال ذلك الحروب التى شنتها البابوية ضـد الهراطقة المسيحيين فى الغرب كالحروب الألبيجنسية وكذلك الحروب الصليبية ضد العرب فى الشرق · ومن واجبات الفارس أيضا رعاية الأرامل واليتامى والضعفاء وحمايتهم والدفـــاع عنهم · وكان بعض هؤلاء الفرسان ينخرطون فى أنظمـــة دينية عسكرية مثل جمـــاعات الرهبان المحاربين كالداوية والاسبتارية والتيوتونية ، تلك الجماعات التى كانت من نتاج الحروب الصليبية والتى لعبت دورا كبيرا فيها ·

سبق أن ذكرنا أن من أهم صفات الفارس فى المجتمع الغربى الوسيط الشجاعة والشهامة والشرف والوطنية والصدق والاخلاص والكـــرم وما الى ذلك من القواعد والمثل الخلقية التى كان يجب عليه أن يتحلى بها · ومع ذلك فلم يراع هذا المستوى الرفيع من الخلـــق على طول الخط حسبما يقول ديفز لوجود فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق فى مجتمع العصور الوسطى · وكان من أشهر رجال الفروسية وقتـذاك رجال مثل روبرت جويسكار صاحب الحروب التوسعية الاقطـــاعية

فى البلقان على حساب الدولة البيزنطية فى أواخر القرن الحادى عشر. وابنه بوهيمند النورماندى الذى كان له جولات مع الكسيس كومنين امبراطور بيزنطة أثناء الحملة الصليبية الأولى وبعد انتهائها . وكذلك جودفرى دوق اللورين السفلى أحد زعماء تلك الحملة ، وادوارد الثالث ملك انجلترا وابنه الأمير الاسود ، وحنا ملك فرنسا وابنه الامير فيليب ، وهم من أبطال الفروسية الذين لمعت اسماؤهم أثناء حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وبصفة عامة كل سادة المجتمع الغربى من كبار ملاك الأرض .

لقد كانت هذه المثل الخلقية التى تبنتها الفروسية الوسيطة تمثل فى الواقع محاولة صادقة لوضع قانون عملى للأخلاق والسلوك فى العصور الوسطى . ولو ان مثل هذه المحاولات كانت تخص طبقة واحدة دون باقى طبقات المجتمع وقتذاك ،ونعنى بها طبقة المحاربين . وكان من أهم مميزات الفروسية أنها منحت النساء مركزا افضل مما كن يتمتعن به فى ظل الأنظمة الاجتماعية القديمة ويرجع الفضل الى الفروسية فى أنها خلقت لنا شخصيات نسائية بارزة مثل بياتريس عند دانتى اليجيرى ولورا عند بترارك وغيرهما .

ومع ذلك فان الفروسية ـ شأنها شأن أى ظاهرة أخرى فى التاريخ سرعان ماتدهورت بعد أن فقدت مثاليتها الاولى ، فغلب عليها الاسراف والمبالغة والتهويل والعواطف المصطنعة والشجاعة المفتعلة حتى تلاشت آخر الأمر .

لم تكن فرنسا فى القرن الثانى عشر دولة واحدة موحدة كجارتها انجلترا فلم يكن مثلا باستطاعة الملك الفرنسى لويس السادس (١١٠٠ - ١١٣٧) أن يطلق اسم مملكة على مساحة أكثر من الاقاليم الواقع بين نهرى السين واللوار ، على حين ظلت مدينة اميان من أملاك فيرماندوا ، وكاليه وبولونيا داخلة فى أرضى ارتوا ، وليون تابعة للامبراطورية الألمانية . وكان هذا يعنى ان الملك حتى ذلك الحين كان الاول بين أقرانه .

كذلك وقف ملوك فرنسا وجها لوجه أمام اقطاعات ضخمة عليها اقطاعيون كبار وهى فلاندرز ونورماندیا وبرجنديا وجويين وجستونيا وتولوز وبرشلونه ، وكلها تابع للتاج الفرنسى تبعية مضطربة مقلقلة مستقل عنه فى الواقع تمام الاستقلال . ولعل أوضح دليل على ذلك أن لويس السادس كان شغله الشاغل هو تأمين نفسه داخل مملكته الصغيرة ضد عادية المعتدين . ومن ماثر هذا الملك هو اعتماده فى الحكم على موظفين من الطبقة الوسطى التى برهنت على صلاحيتها لشئون الادارة والحكم فى فرنسا حتى العصر الحاضر .

لكن هذا التقدم البسيط الذى احرزته الملكية الفرنسية فى عهد لويس السادس على حساب كبار أمراء الاقطاع سرعان مافقدته فى عهد خلفه الملك الطيب التقى لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) الذى آلت اليه دوقية اقطانية عن طريق زواجه من اليانور ابنة أحد كبار رجال الاقطاع الفرنسيين . ولكن بطلاق لويس من اليانور فى ١١٥٣ وزواجها من هنرى صاحب انجو فقدت الملكية الفرنسية مساحة شاسعة من جنوب غرب فرنسا ، وهى تشمل جويين واقطانية . ولم يلبث أن صار هنرى هذا ملكا على انجلترا ودوقا على مقاطعة نورماندیا الفرنسية سنة

١١٧٠ ، فأصبح لويس السابع أمام مملكة قوية معادية له • وكان من أثر ذلك ازدياد روح المنافسة والعداء بين انجلترا وفرنسا حتى نشبت بينها تلك الحرب التى عرفت فى التاريخ بحرب المائة عام •

خلف لويس السابع ابنه فيليب اغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣) الذى طرد الانجليز من فرنسا وتوسيع مملكته على حسابهم وحساب غيرهم من جيرانه الاقطاعيين • ويكفى للتدليل على ذلك أنه كتب على قبره أنه صاحب الفضل فى امتداد أطراف المملكة فلا يمكن انكار فضله فى امتداد المملكة الفرنسية الى بحر المانش والمحيط الاطلسى ، حين ضم اليه مقاطعات فيرماندوا ونورمانديا وانجو ومين وتورين ولانجويدوك • تارة بالسياسة والدبلوماسية وتارة بالحرب والقتال • ثم اختتم جهاده فى هذا الميدان بالحاق الهزيمة بجيش من الالمان والانجليز فى موقعة بوفين الشهيرة سنة ١٢١٤ التى ثبتت ما بأيدى الملكية الفرنسية من أقاليـــــم •

وهكذا بدأ تكوين فرنسا يسير فى طريقة نحو التوحيد حتى القرن الرابع عشر • فلم تلبث أن ضمت تقريبا أقاليم شامبانيا ولامارش ونجوليم ، ثم مدينة ليون سنة ١٣١٢ ، وذلك بفضل ملوكها من آل كابيه• واستمرت فرنسا تسير فى طريقها المرسوم عندما وقف ادوارد الثالث امام اتجاهات التاج الفرنسى فى التوسع الاقليمى ونشبت بين الدولتين سنة ١٣٣٧ حرب المائة عام ، وجلا الانجليز فى خلالها عن كثير من البلاد الفرنسية ماعدا اقليم جستونيا • وقد سارت الأمور على حالها الطبيعى فى جميع الأقاليم الفرنسية أثناء امتداد المملكة الفرنسية نحو الوحدة دون حدوث نتائج انقلابية خطيرة ودون اى تغييرات جوهرية ، ذلك أن الفرنسيين على اختـلاف أقاليمهم أدركـوا أن الملك هو عنوان

النظام والعدالة ، ولاذ الضعفاء والفقراء ،وحامى الدين والعقيدة ، وأنه صاحب التاج والسيادة فى فرنسا • فقد بدت محبة الملكية ظاهرة فى فرنسا فى عهد لويس السابع كما تعهد فيليب اغسطس ذلك بالرعاية والعناية ، اذ استطاع أن يوسع نفوذ التاج الفرنسى على حساب أمراء

ومع ذلك فلم يكن هذا النمو الاقطاعى فى فرنسا اتحادا قويـا حقيقيا بالمعنى المفهـوم ، لأن الاقطاعـات الفرنسيـة الكبيرة اختصت بخصائص اقليمية • ولم يكن من السهل خضوعها مطلقا بين يوم وليلة للملكية الفرنسية • فقد احتفظت هذه الاقطاعات بالكثير من استقلالها السابق ،وتمتع أصحابها بسلطات اقليمية واسعة رغم تبعيتها الفعلية للتاج الفرنسى • وحتى عندما جعلها ملوك فرنسا ولايات مخصصـة لابنائهم غدت تلك الولايات مصدر خطر على الملكية نفسها •

ومن الآثار التى ترتبت على تلك السلطات الواسعة التى تمتع بها كبار الاقطاعيين فى فرنسـا ، أنـه لم يتكون بها طبقة متوسطـة من الاقطاعيين يستطيعون القيام بالمسئوليات العامة فى الأقاليم على غرار ماتم بانجلترا فى العصور الوسطى ، ولكنها اعتمدت فى تدبير شئونها على طبقة من الموظفين المحترفين مثل الصنجيل ومن هنا كانت المجالس الفرنسية التى لم يكن لأعضائها صلة بأعمال الحكم الاقليمى ، فضلا عن قلة الامتزاج بين أعضائهـا لانعدام طبقـة الاقليميين المتوسطين ؛ كانت هذه المجالس عاجزة عن القيام بدور ايجابى فى توجيه السياسة القومية فى فرنسا •اذ كانت تتكون من ثلاث طبقات متباينة هى : طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة أهل المدن • وقد صـار لبرلمـان باريس نوع من القوة والاستقرار فى عهد القديس لويس (١٢٢٦ _ ١٢٧٠) نتيجة الاصلاحات القضائية التى بدت فى الأفق ، وان لم يكن

مجلسا نيابيا سياسيا بالمعنى المفهوم ، بل كان هيئة من رجال القضاء يقتصر عملهم على تأييد التاج وحقوقه فى كل المناسبات

والحديث عن نمو الملكية الفرنسيـة يتطلب الاشـارة الى الملك فيليب اغسطس الذى جعل من مدينة باريس عاصمة للحكومة الفرنسية. وبوفاة فليب اغسطس سنة ١٢٢٣ ، خلفه ابنه لويس الثامن ليواصل سياسته . وبوفاة الاخير فى سنة ١٢٢٦ خلفه ابنه القديس لويس الذى حكم حتى موته فى سنة ١٢٧٠ . وقد تحلى ببعض المناقب الخلقيـة التى تضفى على بيت كابيه الروعة والجلال لا القوة والقسوة . وكـان حفيده فيليب الجميل (١٢٨٥ ــ ١٢٠٤) جريئا صريحا مقداما . فبينما عاش لويس التاسع ملكا اقطاعيا بدا فيليب حاكما قوميا ، اذ أصدر لويس ادارة لمملكته باعتبارها اقطاعا له . واذاع فيليب مراسيمه على دولة هى فرنسا تمتد من المحيط الأطلسى الى البحـر الأبيض ماعـدا جوين وجستونيا التابعتين لانجلترا . وبينما تأصلت الروح الكنسية فى نفس لويس ، اصطبغت النظم المدنية التى طبقها فيليب على مملكته بروح علمانية مضادة للكنيسة . واذ جعل لويس نصب عينه تحقيق هدفين هما قداسته الشخصية وسيادة الرعية ، جعـــل فيليب كـل همه تحقيق غرضين آخرين هما القوة والمال .

ويتميز حكم فيليب الجميـل بـذلك التغير الذى حدث فى روح ذلك العصر . ولعل أبلغ دليل على ذلك مسألـة التدخـل البابوى فى الضرائب التى فرضها فيليب على رعاية من رجال الكنيسة . واعلان البابا بونيفاس الثامن أن للبابوية السيادة على السلطة الزمنيـة أى الملكية نفسها ، ثم قيام فيليب الجميل بالقبض على البابا سنة ١٣٠٣ دون أن يثير هذا الاجراء شيئا من الاحتجاج الدينى فى فرنسا ، واحراقه

القرارات البابوية واستدعائه مجلس طبقات الأمة لمؤازرته البابا الذى لا ينبغى أن يكون سوى أسقف روما من وجهة نظر الملكية الفرنسية . كذلك شاهد عهده خروج بقايا الصليبيين عن آخر معاقلهم بالشام سنة ١٢٩١ عندما استعاد الأشرف خليل مدينة عكا وهى آخر معاقل الفرنج الحصينة بالساحل الشامى .

ونظرا لحاجة فيليب الجميل الشديدة الى المال لمواجهة أعباء التاج الفرنسى ، فقد لجأ الى هدم جماعة الفرسان الداوية التى كانت فى وفرة عظيمة من المال ، وذلك لكى يبتز أموالهم بعد أن كال لها التهم جزافا وبعد أن عذب فئة من رجالها وأعدم البعض حرقا بالنار .

وان دلت هذه الخطوة وغيرها من وسائل السلب الجائر ، ومن بينها غش النقود وابتزاز الأموال من رجال الدين والاقطاعيين على شىء فقد دلت على ان الملكية الفرنسية تريد أن تأخذ بأسباب الحكم الفعلى وأعبائه ببلادها . وأخذت هيئات الحكومة المركزية فى شىء من التخصص فاختص البرلمان بالقضاء وديوان المحاسبة بالأمور المالية ، وأصبح مجلس طبقات الأمة فى أواخر عهد فيليب أداة تشريعية استثنائية . وهكذا اتجهت الملكية الفرنسية نحو طريق الحكم المطلق المركز فى شخص الملك بقدر ما سمحت به أحوال تلك العصور . وقد بدأ ذلك واضحا تماما فى فرنسا على عهد فيليب الجميل .

ولقد بدت فرنسا فى أوائل القرن الرابع عشر أمة ينبىء كل شىء فيها عن مستقبل عظيم ، وذلك بفضل الاستقرار الذى تمتعت به فى عهد أسرة كابيه التى انجبت ذكورا تعاقبوا على وراثة العرش . ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلا ،ذلك أن احقية المجالس على العرش الفرنسى تعرضت وقتذاك لكثير من الشك . فقد مات لويس العاشر

ابن فيليب الجميل سنة ١٣١٦ عن ابنة واحدة دون أن يعقب وراثـا ذكرا فخلفه على العرش فيليب الخامس وشارل الرابع بعد أن افتى القانونيون الفرنسيون بحرمان الاناث من وراثة العرش الفرنسى ٠ فلما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ دون أن يترك وريثا ذكرا ، خلفة ابن عمه فيليب فالوا ٠ ولم تلق أحقية أسرة فالوا فى العرش قبـولا لدى ادوارد الثالث ملك انجلترا لأن أمه هى ايزابيلا ابنة فيليب الجميل ٠ وأعلن ملك انجلترا أنه اذا كان القانون الفرنسى قد حرم الأنثى من حقها فى عرش فرنسا ، فانه لا يحرمها من نقل هذا الحق الى أبنائهـا الـذكور ٠

ومن العيوب التى اعاقت نمو الملكية فى فرنسا عودة النبـلاء الفرنسيين الى الحروب المحلية الاقطاعية بعد انتهاء الحروب الصليبية والتى عانى منها الغرب الامرين ، وكان ذلك فى مطلع القرن الرابـع عشر ٠ وأخذوا يسومون أقنانهم من الفلاحين شتى أنواع الظلم ، وهم الذين كانت تعتمد عليهم فرنسا كل الاعتماد ، بعكس ما صار أعداؤهم الانجليـز من التماسك والترابط بفضل ذلك التقريب الاجتمـاعى الذى حدث بين مختلف الطبقات فى انجلترا ٠

كذلك تغيرت فرنسا بنظامها المالى الفاسد طيلة العصور الوسطى بسبب الطريقة التى كانت تجمع بها الضرائب ، واثقال كواهل الفقراء بضريبة الملح ، ومضايقة التجار بمختلف المكوس على المبيعات ، فضلا عن فرض ضرائب جمركية محلية ٠ وهكذا بلغت الماليـة الفرنسيـة درجة شديدة من الضعف أوجدت موجة من السخط العام ٠

لقد نالت هذه العيوب من الملكية الفرنسية ، وزاد الطين بلـه اشتعال حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا سنة ١٣٣٦ ، والتى هدف

من ورائها ادوارد الثالث ملك انجلترا الى اخضاع البلاد الفرنسية لسيادته والمطالبة بالتاج الفرنسى لنفسه · واما السبب المباشر لقيامها فهو الأخطار التى كانت تهدد التجارة الانجليزية مع بلاد الفلمنك التابعة للتاج الفرنسى تبعية اقطاعية ، وكانت فرنسا التى تحملت عبء الغزو ومصائبه وبلاياه ، وفى هذه الحرب ظهر العداء الكامن بين البلدين ووضحت ميادين الصراع بينهما · وفى سنة ١٣٤٧ سقطت مدينة كالية الفرنسية فى قبضة الانجليز ، ولم يستردها الفرنسيون الا فى القرن السادس عشر ·

وقد شهد هذا العام امتداد « الوباء الاسود » من أحد مواقعه بالشرق الأقصى عبر طرق التجارة الدولية فى تلك العصور الى اوروبا ففتك بعشرات الالاف من الخلق · وقد قاست منه فرنسا الامرين حيث حصد بدهرة شبابها الأقوياء ومزارعيها ، حتى أضحت الحقول خالية من الأيدى العاملة اللازمة للحرث وجمع المحاصيل ورعى الماشية · كما ترتب عليه نتائج اجتماعية وأخلاقية خطيرة · وبانقشاع هذه الكارثة سنة ١٣٥٠ عاد الناس الى حياتهم العادية ، ولكن بعد أن أوجدت سلسلة من التغييرات والانقلابات فى المجتمع الأوروبى عامة والفرنسى بصفة خاصة ·ذلك أن هذا الطاعون ترتب عليهقلة الأيدى العاملة فى الزراعة ، ومطالبة الفلاحين بأجور أحسن واكثر اغراء من الخدمة فى الارض · فسنت فرنسا قوانين حرمت على الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم قبل الطاعون · كما قلت خدمة الفلاحة فى أرض النبلاء الفرنسيين ووضحت فائدة استخدام الفلاحين من مختلف الجهات على قاعدة الأجور النقدية · وهكذا أخذت العوامل الاقتصادية الجديدة تقوض شيئا فشيئا من دعائم النظم الاقطاعية التى كانت فى طريقها الزوال · وهكذا أيضا اخذ الفلاح الفن

يتحلل تدريجيا مما يربطه بالأرض ومن قيوده وغدا حرا نوعا فى تقدير خدماته بأجر نقدى .

ومع هذا ، فلم تستقر الأحوال طويلا ، اذ سرعان ما عادت الحرب بين انجلترا وفرنسا فى صورة وحشية على حساب الفلاحين الفرنسيين، والتى استمرت عشر سنوات (١٣٥٠ -١٣٦٠) أضحت فيها البلاد الفرنسية خرابا ، كما أبيدت المحاصيل والماشية وأحرقت البلاد والقرى وفى هذه الحرب قضى الانجليز على مجد فرنسا الحربى ، واستطاعت جيوشهم أن تتقدم نحو أسوار ريمزوباريس ، وأن تعمل السيف والنار فى أقاليم فرنسا الوسطى الشهيرة بمزارعها وبساتينها وأحراشها . وبذا أصبحت الملكية الفرنسية فى أشد حالات الحرج والبؤس بعد أن تم تخريب أغنى منابع الايراد فيها ، وبعد أن اصبح ملكها حنا الكريم اسيرا فى انجلترا .كما فرض الانجليز على الشعب الفرنسى جزيـة باهظة لاطلاق سراح مليكهم . ولعل من آثار هذه الحروب قيام الفلاحين الفرنسيين الذين قاسوا الويلات من جرائها بثورة عارمة فى وجه النبلاء الذين أضاعوا فرنسا للانجليز ، ولو ان النبلاء تمكنوا من اخمادهـا فى سرعة وسهولة ، وان كان قد ترتب على ذلك قيام هوة سحيقة بين الفئتـــين .

وكان عزاء فرنسا بعد مانالها من الأذى والخـراب على أيـدى الانجليز خلال تلك الحروب المريرة هو نجاة باريس وبقاؤها فى أيدى الفرنسيين . واستمر الحال هكذا الى أن عقدت معاهدة كالية بين البلدين سنة ١٣٦٠ ، والتى بمقتضاها استعادت فرنسا نورمانديا ، بينمـا بقيت انجلترا فى اكويتانيا وكاليه وبوردو وهى مقاطعات فرنسية .

وكان من حسن حظ فرنسا أن ولى عرشها وقتئذ ملك عرف كيف يركز الوسائل التى تكفل له الفوز على الانجليز هو شارل الخامس (١٣٦٤ - ١٣٨٠) الذى أجلى انجلترا عن جميع ممتلكاتها فى فرنسا ،

فيما عدا بوردو وكاليه وبايون • وبوفاة شارل فى سنة ١٣٨٠ أضحت فرنسا خالية من الاحتلال الاجنبى •

ولكن كيان الأمة الفرنسية سرعان ما تعرض للخطر مرة أخرى بعد وفاة هذا الملك الحكيم ، فذهبت جميع المكاسب التى أحرزهـا الفرنسيون أواخر حكمه أدراج الرياح • وكان هذا نتيجة وصاية طويلة على ملك قاصر هو شارل السادس ، ثم حكم هذا الملك المجنون نفسه الذى لم يعد صالحا للحكم بعد انتهاء الوصاية عليه ، ثم قيام تنافس شديد بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء ، مثلما حدث بين لويس دوق اورليانز أصغر اخوة الملك وبين ابن عمه حنا المقدام دوق برجنديا (١٤٠٤ - ١٤١٩) الى ان انتهى التناحر بينهما باغتيال لويس بايعاز من حنا وانقسام فرنسا الى قسمين متطاحنـين • فهانت الحكومة وشئون الحكم فى فرنسا الى درجة أن باريس شهدت من مظاهر العنت والشدة خلال تلك السنوات مالم تشهده مدينة أخرى فى فرنسا، فى الوقت الذى كان يجب أن تبدو فيه موطنا للامن والنظام والاستقرار باعتبارها العاصمة •

هكذا بدت الامة الفرنسية على نفسها منقسمة أسوأ الانقسام فى الوقت الذى تتجد فيه أطماع الانجليـز فيها • فقد أكد هنـرى الخامس (١٤١٣ - ١٤٢٢) ملك انجلترا أحقيته فى عرش فرنسـا استنادا الى حق جـده ادوارد الثـالث • فعبر الى فرنسا وانتصر على الفرنسيين عند اجنكورت سنة ١٤١٥ ، وتم له بعد ذلك فتح نورمانديا، وساعده على ذلك استمرار التناحر بين الأحزاب المتصارعة فى فرنسـا نفسها • وتتطور الأمور لصالح الانجليز حتى أصبح لهنرى الخامس حق الوصاية والوراثة فى عرش فرنسا بتأييد البرجنديين • ولكن هنرى الخامس ملك انجلترا وصاحب مشروع توحيد انجلترا وفرنسا فى تاج

مشترك وافته منيته ، وخلفه ابن عمره تسعة أشهر ، وبذا خلا الجو للفرنسيين لتحقيق أمانيهم فى الاستقلال مرة أخرى •

وفى غضون هذه الظروف المواتية خرجت من الريف الفرنسى فتاة تدعى جان دارك قادت فرنسا الى طريق النصر فى حربها مع الانجليز • وكان لحمايتها وعزيمتها القوية واساليبها الروحية ، أثرها فى احياء الامل فى قضية يائسة • ونجحت فى تخليص مدينة اورليانز التى ضرب الانجليز عليها الحصار سنة ١٤٢٩ • كذلك وقفت فى تنصيب شارل السابع ملكا على فرنسا فى كاتدرائية القديس ريمز، بعد أن أسهمت بنصيب وافر فى أعمال التحرير القومى التى بثت فيها من روحها القوية وانتهى أمرها بوقوعها فى أيدى أعدائها البرجنديين الذين قاموا بتسليمها للانجليز الذين قاموا بدورهم باعدامها حرقا بالنار فى مايو من سنة ١٤٣١ بعد تلفيق التهم لها واعتبارها مارقة خارجة عن الدين •

لقد خلق استشهاد جان دارك بين الفرنسيين روحا من الوحدة لم تعرفها فرنسا من قبل • اذ فقدت انجلترا جميع المزايا التى اعتمدت عليها فى أوائل مراحل الحرب فى الأراضى الفرنسية ، كما سوى البرجنديون مشاكلهم القديمة مع فرنسا سنة ١٤٣٥ • ورجعت باريس الى أهلها سنة ١٤٣٦ ، واستطاع شارل السابع أن يبنى لفرنسا حكومة رشيدة قوية بفضل فطنته والكفايات المخلصة التى التفت حوله .

وفى سنة ١٤٣٩ اصدر شارل السابع قانون الجيش الذى أصبح لفرنسا بمقتضاه جيشا نظاميا يقوده ضباط معينون من قبل الملك لا فرسان من الاقطاعيين كما كان الحال من قبل • هذا ، فى الوقت الذى عمد فيه إلى النيل من النبلاء الاقطاعيين ، فحرم عليهم فرض ضرائب

فى اقطاعاتهم أو تكوين الجيوش دون موافقة ملكية أو اثارة الحروب الاقطاعية الخاصة التى عانت منها فرنسا الكثير ٠

وازاء هذه الاصلاحات اللازمة لسلامة الامة الفرنسية ، كان من الطبيعى أن يثور كبار النبلاء فى فرنسا سنة ١٤٤٠ ، تلك الثورة التى عرفت فى التاريخ باسم ثورة البراجيرى ٠ الا ان هذه الثورة لم تلبث أن أخمدت بفضل الجيش الملكى الفرنسى الذى تحدى التقاليد الاقطاعية القديمة بوحداته من الفرسان والمشاة والمدفعية التى أنشاها شارل السابع والتى دك بها معاقل الاقطاع ٠ وقد أثبت هذا الملك فى آخر معركة من معاركه ضد الاقطاع أن عهد الفنية والاقطاع قد زال الى غير عودة ، وأن عصر القومية والبارود والمدفعية قد حل ٠ فأخذت المدن الاقطاعية - التى كانت لاتزال فى قبضة الانجليز مثل روان وبايون وبوردو - تسقط الواحدة تلو الاخرى أمام القوى النظامية التى انجبتها فرنسا ٠ ولم يبق لانجلترا من جميع ممتلكاتها سوى كاليه ، وذلك بعد عقد الصلح بين الانجليز والفرنسيين سنة ١٤٥٣ ٠

هذا ما انتجته حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ٠ فقد جلبت على فرنسا الكثير من الخير والشر معا ٠ الشر فى تعطيل عجلة التقدم الحضارى ٠ والخير فى أن الفرنسيين أخذوا ينهجون منهجهم فى الحياة فى وقت كان فيه العصر الاقطاعى قد بلغ مرحلة الأفول ، وظهرت تباشير عهد جديد قوامه التصادم والصراع بين الدول ٠ هذا فضلا عما خلفته وراءها من نتائج ذات آثار بعيدة المدى فى الحياة الانسانية ، من حيث تحطيم التقاليد والعادات القديمة المتأصلة فى النفوس من جراء الحروب والضغط المالى الناشىء عنها ، ومن حيث قلب أوضاع التوزيع الاقتصادى بين مختلف الطبقات ٠ فبدأت جديدة تظهر فى مجتمع كان بناؤه الطبقى اخذا فى السقوط ٠ ولم يعد باستطاعة الارستقراطية الحربية القديمة أن تغفل الطبقات الدنيا ومطامحها التى أخذت تعمل منذئذ فى تشكيل المجتمع تشكيلا جديدا مغايرا عما كان مألوفا من قبل٠

الموضوع الخامس عشر

المدن في العصور الوسطى الأوروبية

مقدمـــة :

يعتبر تاريخ ظهور المدن ونموها فى العصور الوسطى من الأمــور البالغة الاهمية • فقد كان قيامها من أهم الاسباب التى أضعفت النظام الاقطاعى ، ومهدت الطريق لمجتمع جديد يقوم على أسس وأنظمة جديدة مغايرة •ونحن نعرف أن الاقطاع الذى ساد العصور الوسطى كان يقوم أساسا على الأرض وفلاحتها • وحضارة الاقطاع بالتالى حضارة زراعية لاتعرف الصناعة والتجـارة الا فى أضيق الحـدود • وحتى نظامـه الاجتماعى كان يرتبط هو الآخر بالأرض ، اذ انقسمت طوائفه الى طبقات أفقية لكل مكانها فى السلم الاقطاعى تبعا لما ترتبط به سعــة الاقطاع • أما فى المدن فأساس الحياة فيها هو التجارة والصناعة ولهذا السبب لم تعرف المدن نظام الطبقات المرتبط بالارض الزراعية والذى كان معروفا فى ظل الاقطـــاع •

اضمحلال المدن الرومانية القديمة فى بداية العصر الوسيط :

وهكذا تعتبر نشأة المدن فى العصور الوسطى ثورة شاملة فى كافة النواحى من سياسية واقتصادية واجتماعية • وكانت هى الملاذ الذى لجأ اليه الاقنان والعبيد بعد انحلال النظام الاقطاعى • وعند الحديث عن مدن العصر الوسيط يجب أن نفـرق بينها وبين المـدن الرومانيــة القديمة • لقد عرف العالم القديم حضارة المدن التى نشطت فيها التجارة والصناعة • ولكن هذه المدن أخذت تتدهور ابتداء من القرن الثالث بسبب الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت الدولة الرومانية وقتذاك • فضلا عن الأخطار التى تعرض لهــا الغرب الأوروبى نتيجـة الحروب المتواصلة وغزوات الجرمان المدمرة • وكــان أن انكمشت التجــارة والصناعة بها ، وفقدت المدن القديمــة أهميتها ومكانتهــا فى التنظيم الادارى وقلت مساحتها وتناقص عدد سكانها الذين أصبحوا أقنانا فى فترة العصور المظلمة • وتحولت تلك المدن فى بداية العصور الوسطى الى مجرد مراكز دينية متدهورة تخضع لنفوذ رجال الدين • ولم يعد

لها أى نشاط تجارى أو صناعى ملموس • وأخذت اقتصادياتها تتحول نحو اقتصاد بدائى يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى فى حدود مجتمع يقوم أساسا على الزراعة بمعنى أنه صاحب انهيار حضارة المدن ظهور مجتمع زراعى يتميز بحضارة زراعية •

ويفسر العالم البلجيكى هنرى بيرين فى كتابيه « المدن فى العصور الوسطى » « تاريخ أوروبا الاقتصادى والاجتماعى فى العصور الوسطى هذه الظاهرة فيقول أن حركة الفتح الاسلامى وما ترتب عليها من سيطرة العرب على البحر المتوسط نتج عنها توقف التجارة بين الشرق والغرب بل توقف الحياة الاقتصادية فى العالم الغربى ، فضلا عن الأضرار البالغة التى لحقت بمدن الغرب نفسها • وبيان ذلك أن البحر المتوسط كان فى التاريخ القديم مركزا للامبراطورية الرومانية بكل مظاهر نشاطها الممتد من الجزر البريطانية حتى نهر الفرات شرقا • وظل يؤدى دورة التقليدى الحضارى حتى بعد الغزوات الجرمانية وأضحى مركزا رئيسيا للمواصلات البحرية بين بلدانه وبين الدولة البيزنطية ، مما كان له أكبر الاثر فى انتعاش الحياة الاقتصادية التى تعتبر امتدادا لمثيلتها فى العالم القديم . على الرغم من نزول البرابرة فى الغرب واقامتهم فى ايطاليا وافريقية واسبانيا وبلاد الغال • وخير دليل على ذلك النشاط هو الدور الذى قامت به الجاليات التجارية السورية التى ظلت تعمل فيما بين القرنين الخامس والثامن لربط غرب اوروبا بثغور مصر وآسيا الصغرى • وكان لهذا أثره فى احتفاظ الملوك الجرمان بالعملة الذهبية كأداة للتعامل الاقتصادى بين بلدان حوض البحر المتوسط • فتكونت بذلك وحدة اقتصادية متينة جعلت الرومان يطلقون على البحر المتوسط اسم « بحر الروم او بحرنا » •

ولكن الوضع تغير بظهور الاسلام فى القرن السابع وماتبع ذلك من حركة الفتح التى شملت السواحل الغربية والشرقية والجنوبية للبحر

المتوسط • ومن ثم أضحى هذا البحر بحرا عربيا يفصل بين الشرق العربى والغرب الأوروبى • وعلى الرغم من محاولة بيزنطة مقاومة الفتح الاسلامى فى بحر ايجه ، فقد نجح العرب فى اقتحام البحر الأدرياتيكى وغزو السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الايطالية والبحر التيرانى • كما توغلوا فى طول شاطىء البحر المتوسط حتى بلغوا اسبانيا التى استولوا على جزء كبير منها • كما اتخذوا من جزر البليارد وكورسيكا وسردينيا وصقلية مركزا للأساطيل العربية التى قضت على النشاط التجارى الأوروبى منذ مستهل القرن الثامن • ويستطرد بيرين قائلا بأن البحر المتوسط الذى كان بحرا رومانيا أصبح الآن بحرا عربيا ، وأصبح حاجزا بين الشرق والغرب بعد أن كان حلقة اتصال بينهما فيما مضى ، مما ادى الى كساد النشاط التجارى لدول الغرب الاوروبى •

ولكن أحدث البحوث التاريخية أثبتت عدم صحة نظرية بيرين ، وهى أن التجارة لم تتوقف بين الشرق والغرب بسبب حركة الفتح العربى • بل انها استمرت على الرغم من سيطرة العرب على جانب كبير من حوض البحر المتوسط ، وعلى الرغم من تفوقهم البحرى على دول الغرب • وغير خاف أن حجم التجارة قد تضاءل كثيرا بين الغوب وبين كل من الشرق العربى والدولة البزنطية • ولكنه لايرجع الى الاسباب التى أوردها هنرى بيرين • وانما للأسباب التى أسلفنا الاشارة اليها التى تتعلق بانهيار الاقتصاد الأوروبى فى نهاية تاريخ الدولة الرومانية وبداية العصر الوسيط والذى أصبح اقتصادا زراعيا يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى ، فقضى بذلك على كل نشاط فى المجالين الصناعى والتجارى • وكيفما كان الامر ، فقد تدهور التجارة فى أوروبا وزالت طبقة التجار وبزوالها تدهورت المدن وبقى عدد كبير منها ، ولكن باعتبارها مراكز دينية فحسب .

المجتمع الاوروبى فى العصر الوسيط المبكر :

ومن الواضـــح أن الأرض كـــانت حتى أواخر القرن الثامن هى الأساس الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع الغربى الوسيط فى الفترة المبكرة ، بينما اضمحلت المدن وتدهورت التجارة أو أصبحت فى حكم المعدومة ٠ فقد اعتمد الشعب بكافة طوائفه وطبقاته على تلك الارض وفلاحتهـا وما كانت تدره من خيرات ٠ وهذا كان يعنى أن اقتصاد اوروبا أصبح اقتصادا زراعيا ٠ ويقول هنرى بيرين ان الاقطاع كان نتيجة لعودة المجتمع الأوروبى الى حضارة الريف٠ فقد كانت الأرياف فى الغرب قبل قيام الاقطاع تسهم بمنتجاتها فى الحياة الاقتصادية العامة ٠ فكانت تصدر المواد الغذائية وبعض المواد الأولية اللازمة للصناعة ؛ وتستهلك فى نفس الوقت المنتجات الصناعية التى تصدرها المدن اليها ٠ ولكن هذا التبادل الضئيل توقف ، وانطوت الأرياف على نفسها ، وكان يكيفها انتاج مايسد حاجتها ٠

ولايعنى هذا أن التجارة قد توقفت بصفة نهائية ، فاعتبارا من القرن التاسع وخلال القرن العاشر وجد نشاط تجارى محدود داخل القارة ٠ ومن مظاهره التبادل التجارى المحلى بمعناه الضيق ٠ وكان أساسه البحث عن الأشياء الضرورية كالملح الذى لم يكن متوفرا فى كل مكان ٠ وكانت هناك أسواق ريفية بسيطة يتجمع فيها الفلاحون للتسلية وتمضية الوقت أكثر من أى شىء آخر ٠ وهناك أيضا نشاط تجارى يتمثل فى العلاقات بين المدن البحرية الايطالية والدولة البيزنطية ثم نشاط الفيكنج الشماليين فى بحر الشمال وبحر البلطيق وسهول الروسيا ٠ كذلك وجد بعض التجار من اليهود ، وكان التاجر واليهودى عند أهل الغرب الأوروبى يعنيان شيئـا واحدا فى هذا العصر ، حتى لقد كانوا يطلقـــون على اليهـــودى لفظ Mercator أى تاجر ٠

وكان أمثال هؤلاء يتجرون فى المواد النادرة كالفلفل والبهارات والبخور

والأقمشة التى كان الغرب فى أمس الحاجة اليها • ومع ذلك لم يقدرلمثل هذه التجارة أن تنمو وتتسع بسبب موقف الكنيسة الرومانية المتزمت التى كانت تحرم التجارة والكسب عن طريقها تحريما باتا باعتبارها اثما وخطيئة مميتة • وكانت الكنيسة فى العصر الوسيط ترى أن الأرض الزراعية هى الرزق الوحيد الحلال الذى يمكن أن يعيش عليه الانسان • أما المكسب الناتج عن التجارة فهو كسب غير مشروع •

لقد أثر موقف الكنيسة فى الحياة الاقتصادية الوسيطة • فقد كانت تتمتع بمكانة كبيرة ونفوذ قوى • اذ كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأرض التى كانت تعتبر عماد الثروة وقتذاك • وكانت هذه المساحات تزيد عما يمتلكه النبلاء وكبار رجال الاقطاع • وكانت تمتلك أيضـا الكثير من الأموال • ثم أنها كانت متفوقة من الناحية الادبية ، وكان الناس يلجأون اليها لتلقى العلم فى مدارسها • لكل هذا لجأ الجميع اليها لادارة أعمالهم وتثقيف أبنائهم • فشغل رجالها كل الوظائـف التى تستلزم القراءة والكتابة ، فضلا عن أمور الدين • وكانت مدارسها منارا للعلم فى تلك العصور • كذلك كان موقفها من التجارة والربح والربا واضحا منذ البداية •فقد كانت نظرتها هى أن يعمل الانسان لكى يعيش فحسب وليس للاثراء •

هكذا كان المجتمع فى هذا العصر المبكر مجتمعا زراعيا ليس فيه مكان للتجارة بمعناها الواسع • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان ظهور النظام الاقطاعى وقتذاك من الأسباب الرئيسية التى أدت الى النكسة التى أصابت الغرب ، وعودة مجتمعه الى مظاهر الحياة البدائية الريفية الأولى ، وبالتالى اضمحلال المدينة وحضارتها • ذلك أن الاقطاعية كانت الوحدة الاقتصادية التى كـانت تكفى نفسها بدون حاجـة الى الاقطاعيات المجاورة • وترتب على ذلك اختفاء المدن التجارية بحركتها الاقتصادية القادرة على نقل منتجاتها • وقامت الدولة بتسويق هذه البضائع باعتبارها شريكة فى الاقتصاد العام ، وعاملا أساسيا فى انتاج

واستهلاك وتسويق المواد الغذائية . وهذا يعنى أن الدولة لعبت دورا كبيرا فى عملية التبادل التجارى مع العالم الخارجى . ولكن نشاطها سرعان ما توقف لعدم وجود تجار يمكن البيع لهم ، بعد أن أصبحت كل اقطاعية تعيش على سياسة الاكتفاء الذاتى دون حاجة الى البيع أو الشراء من المقاطعات المجاورة لها حسبما اسلفنا . اذ كان على السيد المالك فى اقطاعيته العمل على توفير كل احتياجات منطقته . وهكذا أصبحت كل اقطاعية مستقلة عن جارتها ، أى مغلقة اقتصاديا لاتحتاج الى تسويق خارجى . ولم يكن ذلك بمحض اختيارها وانما جاء بالضرورة لعدم وجود مشتر يقصدها لشراء منتجاتها ، لأن السيد المالك كان قد أعد نفسه ليعيش معتمدا على انتاج مزرعته وجهود رجاله وعبيده محليا . وحتى الأدوات اللازمة لزراعته والملابس الضرورية لفلاحيه ، كـان يتم تصنيعها وانتاجها هى الأخرى محليا ، ومن ثم كان وجود المصانع الصغيرة داخل كل اقطاعية من مقومات التنظيم الاجتماعى فى هذا العصر ، وهو الأمر الذى ترتب عليه بالتالى عدم قيام أى نشاط صناعى أو تجارى بالمعنى المعروف من هذه الكلمة .

ومع مرور الزمن ظهرت فى العصر الاقطاعى مجتمعات من العبيد والاقنان كانوا يعيشون هم وذويهم بجوار الحصون والقلاع والاديرة وغيرها من المؤسسات الدينية ، طلبا للأمن والحماية من الأخطار العديدة التى كانت تهدد الغوب وقتذاك . وتزايدت كثافة هذه المجتمعات التى أصبح لها نشاط تجارى وصناعى محدود هيأه لها السلم الذى كانت تتمتع به . فمنهم من اشتغل بالتجارة ، ومنهم من عمل فى صناعة الجلود والأوانى الفخارية وغير ذلك . ثم يقومون ببيع انتاجهم فى أقرب سوق محلى من منطقة اقامتهم . وهكذا بدأت هذه المجتمعات تعتمد تدريجيا على القرى والمناطق المجاورة لها فى تصريف منتجاتها الصناعية واستيراد السلع الضرورية . ومع ذلك ، فأن النشاط التجارى بمعناه الواسع لا يرجع الى هذه المجتمعات ، وانما الى اولئك التجار المتجولين

الذين كانوا يستوردون السلع لبيعها للسادة اللوردات وأتباعهم • وقد تحول هؤلاء التجار مع الزمن من حياة التنقل الى حياة الاستقرار حيث جعلوا من مساكنهم مخازن يحفظون بها بضائعهم • ولم يلبث ان سمح الامراء المحليون ، سواء أكانوا من السادة الاقطاعيين أو رؤساء ومقدمي الاديرة ، لاولئك التجار بالاقامة بجوار حصونهم أو خارج أسوار أديرتهم ، للفائدة التى كانت تعود عليهم من وراء ذلك • وترتب على ذلك تكوين مجتمعات تجارية فى القرن الحادى عشر تمتع أصحابها بنوع من الحرية الشخصية لم تتوفر للأقنان فى الجهات المجاورة • وأخذت هذه المجتمعات الجديدة فى التطور الى أن نشأت منها مدن العصور الوسطى • كذلك تطورت الحقوق والامتيازات التى حصل عليها تجار هذه المجتمعات حتى أصبحت نواة للعهود والبراءات والحريات التى تمتعت بها تلك المدن فيما بعد •

نخلص مما تقدم أنه اعتبارا من سقوط الدولة الرومانية وبداية العصور الوسطى حتى القرن العاشر تقريبا لم تكن الظروف ملائمة لازدهار المدن ونموها واتساع النشاط التجارى ، فقد كانت الاقطاعية متغلغلة فى كافة مناحى الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط •

نشأة المدن وأسبابها :

لعله يتضح مما سبق ان الفترة الواقعة بين سنتى ٥٠٠ و ١٠٠٠ تعتبر عهدا مظلما بالنسبة للمدن الأوروبية ومكانتها ، وماصاحبها من تدهور فى التجارة والصناعة • ويمكن ارجاع سبب مولد المدن فى العصر الوسيط اعتبارا من القرن الحادى عشر الى عدة أمور ، من أهمها احياء حركة التجارة ، وظهور طبقة جديدة من التجار ، وقيام المجتمعات التجارية حول القصور والحصون وأسوار الأديرة والمدن الأسقفية • ومعنى ذلك أن المدينة الأوروبية مرت بعدة مراحل قبل أن تصبح مركزا تجاريا وصناعيا • مع ملاحظة أن سكان هذه المدن كانوا فى بداية الامر قلة ضئيلة • كذلك كان للعامل الجغرافى أثره

فى تطور هذه المدن وازدهارها · فنجد أن المدن البحرية الايطالية مثل جنوه وبيزه والبندقية استمدت أهميتها لموقعها على البحر · فكانت حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، كما كان لها أثرها فى انتعاش التجارة فى أخريات العصور الوسطى · وكانت بعض هذه المدن تتحكم فى ممرات أو طرق رئيسية مثل فيرونا وبولونيا · والبعض الاخر يقع عند ملتقى نهر أو طرف جسر وهكذا · وجدير بالذكر أن ظروف بعض الأقاليم فى الغرب ساعدت على نشأة بعض المدن وازدهارها مثال ذلك ايطاليا التى كانت حلقة الوصل فى الميدان التجارى بين كل من الشرق العربى والدولة البيزنطية من جهة وبين الغرب من جهة أخرى · وكذلك شامبانيا وبلاد الفلمنك أو الاراضى الواطئة اللتان كانتا الواسطة بين جنوب اوروبا وشمالها · ولا يخفى أيضا أن حالة السلام والأمن التى سادت الغرب فى القرن الحادى عشر بعد قرون عديدة من الضعف والفوضى ، كانت عاملا مساعدا على ازدهار المدن · يضاف الى كل هذا الحروب الصليبية التى كان لها أثرها فى القضاء على آخر بقايا الاقطاع وتشجيع التجارة والصناعة ، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة والرزق كما كان الحال من قبل · وترتب على ذلك تضاعف النشاط التجارى للمدن البحرية الواقعة على سواحل جنوب غربى البحر المتوسط ·

هذا عن اهم الأسباب التى أدت الى نشاة المدن فى اواخر العصور الوسطى · وكانت هذه المدن بصفة عامة ، بعد تأسيسها تقام الأسوار حولها لحمايتها والدفاع عنها · وتحفر الخنادق العميقة حول تلك الاسوار وكذلك كانت المشانق تقام خارج البوابات الرئيسية · وكانت مداخل تلك المدن متسعة ولكن شوارعها ضيقة قذرة ، مما ادى الى انتشار الامراض بها وازدياد عدد الوفيات · أما فى الليل فكانت البلاد تغط فى ظلام دامس ، وساعد هذا على انتشار اللصوص وقطاع الطرق والسرقات والحوادث · وبعد ذلك بدأت العناية بأمر المدن ونظافتها وكانت المدن الايطالية هى أول من اهتمت برصف الطرق ، وقامت

بمحاكاتها المدن الاخرى • وكانت أراضى البناء داخل المدن مرتفعة الثمن لضيق المساحة • واستدعى ذلك انشأ المبانى العالية التى تتألف من عدة طوابق بايجارات مرتفعة • وقد لجأت السلطات المسئولة فى المدن الى تحديد ارتفاع المبانى منعا من ازدحام السكان بها • وكان من الجائز ان يشترك عدة افراد فى امتلاك مبنى او منزل اوعدة غرف بمنزل واحد • ولكل هذه الأسباب تميزت مدن العصور الوسطى باكتظاظها بالسكان • وكانت أسواق المدن تعتبر بمثابة الميدان الرئيسى أو العام • ولا يعنى صغر المدن الوسيطة وضيق مساحاتها التقليل بحال من أهميتها الاقتصادية والسياسية • ويعتبر نشاط هذه المدن فى القرن الحادى عشر بمثابة انقلاب اقتصادى كبير • وكان من نتائج هذا الانقلاب التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات ، بدلا من نظم الخدمة الاقطاعية التى كانت سائدة حتى ذلك الحين •

المدن الايطالية وانتعاش حركة التجارة بها فى القرن الحادى عشر :

لقد كانت لمنتجات الشرق الادنى أهمية فائقة بالنسبة لاوروبا فى العصور الوسطى ويعتقد بعض المؤرخون أن انقطاع ورود هذه السلع كان من أهم الاسباب التى أدت الى كساد التجارة والصناعة وبالتالى انكماش المدن الاولية فى بداية العصر الوسيط • وتعتبر البهارات من أهم السلع التى كان الغرب فى حاجة اليها لحفظ المأكولات سليمة وصناعة الادوية • وما يقال عن البهارات يقال أيضا عن السكر والعطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات اللازمة لصناعة النسيج كالقطن • وكان الشرق بدوره فى حاجة الى الاخشاب والحديد وغيره من المعادن التى توجد بالغرب • وكانت المدن البحرية الايطالية فى القرن الحادى عشر فى حالة تمكنها من القيام باستيراد وتصدير السلع والبضائع بين الشرق والغرب • ومن أهمها وقتذاك مدينة البندقية التى نجحت فى السيطرة على البحر الأدرياتى ، فى احتكار تجارة بيزنطة • كذلك قامت علاقات تجارية واسعة بين كل من جنوه وبيزه من ناحية وبين الموانى الاسلامية فى الشمال الافريقى من

ناحية أخرى • ومن العوامل التى ساعدت على ازدياد النشاط التجارى لهذه المدن الثلاث الضعف والانقسام الذى أصاب العالم الاسلامى فى ذلك الحين ، واستيلاء النورمانديين على صقلية فى منتصف القرن الحادى عشر • وترتب على ذلك انتقال السيادة البحرية فى البحر المتوسط من الدول البحرية الاسلامية الى المدن الايطالية • وبقيام الحركة الصليبية فى أخريات ذلك القرن نجحت الجمهوريات البحرية الايطالية فى احتكار تجارة الشرق الأدنى والبحر المتوسط ، الأمر الذى أدى الى ازدهار هذه الجمهوريات وارتفاع شأنها ومشاركتها الفعالة فى القضاء على آخر بقايا العصور الوسطى وبزوغ عصر النهضة• وكان هذا من الأسباب التى أدت الى ظهور عصر النهضة مبكرا فى ايطاليا عنه فى باقى بلدان الغرب الأوروبى •

انتعاش التجارة والصناعة فى غرب اوروبا اعتبارا من القرن الحادى عشر :

ذكرنا أن الفوضى كانت ضاربة اطنابها فى الغرب الأوروبى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية حتى القرن العاشر نتيجة لأسباب عدة منها غزوات الجرمان المتبربرين ، ثم حركة الفتح العربى فى غربى البحر المتوسط ، وأخيرا تفكك امبراطورية شارلمان بعد موته • ولكن اعتبارا من القرن الحادى عشر بدأت الاوضاع تستقر بعض الشىء بعد أن زالت أسباب الفوضى والاضطراب ، ونتج عن ذلك انتعاش التجارة والصناعة • وساعد على ذلك قيام الجمهوريات البحرية الايطالية بتصدير واستيراد السلع والبضائع بين الشرق والغرب • وكان هذا من أسباب ظهور حضارة المدن • واختصت كل مدينة أو مقاطعة بنوع معين من الصناعة • فبلاد الفلمنك وبعض المدن الايطالية اختصت بصناعة الأقمشة الصوفية ، بينما تخصصت فرنسا فى صناعة الأسلحة، وهكذا

كانت النتيجة هى وجود مراكز صناعية فى بعض المدن وازدياد ثرواتها ،وانتعاش حركة البيع والشراء فيها • وقامت بالتالى مراكز

تجارية كبيرة فى مختلف مناطق الانتاج · ووجدت أسواق لعمليات التصدير والاستيراد · وفى ظل هذه الظروف المواتية حاولت المدن البحرية الايطالية ، وهى جنوه والبندقية · احتكار التجارة الأوروبية النامية ، ولكنها لم تصادف النجاح المأمول الا داخل ايطاليا نفسها ، وفى البلدان الواقعة على البحر المتوسط · أما داخل القارة فقد اصطدمت سياستها الاحتكارية بعقبات كثيرة ، منها صعوبة المواصلات وبعد المراكز التجارية والصناعية الجديدة عنها · وقد هيأ كل هذا لدول الغرب الفرصة لان تعمل لحسابها الخاص وأن تنتعش تجارتها وصناعتها · فوجد نشاط تجارى كبير فى المدن الواقعة على طريق السهل اللمباردى وطريق وممرات جبال الألب ومن هذا نجد أن العامل الجغرافى لعب دوره فى انتعاش بعض المدن مثل مدن لمبارديا وبلاد الفلمنك خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر · واستتبع هذا النشاط التجارى كثرة المعارض والأسواق الكبيرة التى حلت تدريجيا محل الأسواق المحلية الصغيرة التى كانت موجودة من قبل ·

وللقرن الثالث عشر أهمية خاصة فى التاريخ التجارى للغرب اذ أحدث تغييرات هامة فى الطرق التجارية · فأوجد طرقا جديدة بدلا من الطرق القديمة · وكان لهذا أثره فى ازدياد النشاط التجارى للمدن الأوروبية الناشئة التى أخذت تطالب بحقوقها فنجد مدن الحلف اللمباردى مثلا تحصل سنة ١١٨٣ على حقوقها فى الحكم الذاتى من الامبراطور فردريك بارباوسا وحذت حذوها بقية المدن الاوروبية · وأخذ بعضها ينتزع من السادة الاقطاعيين اعترافات بحقوقها فى صورة براءات واعفاءات تتعلق بحرية الأرض التى تقوم عليها المدن وحرية من يعيش فيها · وأخذ الأمراء يتنازلون شيئا فشيئا عن سلطاتهم فى النواحى الادارية والمالية والقضائية ·

نهضة المدن :

لقد رأينا كيف تدهورت المدن فى بداية العصور الوسطى نتيجة غزوات المتبربرين ، والاضطرابات السياسية والاقتصادية التى نزلت

بالدولة الرومانية فى أخريات عهدها وتدهورت تبعا لذلك التجــارة والصناعة · وأصبحت المدن مجرد مراكز دينية أسقفية · وهى مع ذلك لم تتلاش تماما · فكان يوجد بها أسواق تجارية انحصر عملها فى تزويد الرهبان ورجال الدين بالمواد الغذائية · كما كان يفد اليها فى المناسبات والمواسم والأعياد الدينية الناس من مختلف الجهات لزيارة الكنائس والأضرحة · كل هذا كان مدعاة لأن تدب فيها الحياة لفترات متقطعة، سرعان ماتعود بعدها الى عزلتها وانكماشها وهدوئها · ولكن مثـــل هذا التبادل التجارى البسيط لم يكن كافيا لأن يبعث الحياة فى هذه المدن الدينية ، خاصة وأنها كانت تعتمد الى حد بعيد على الاريـــاف والضواحى المجاورة لها · والخلاصة أن هذه المدن كانت مراكز لادارة أملاك الكنيسة ، واكتسبت صفة دينية بعد فقدانها مكانتها التجارية والصناعية التى كانت تتمتع بها من قبــل ·

وقد حصنت هذه المدن فى مستهل القرون الوسطى المواجهـــة غزوات المتبربرين · وكان الناس يهرعون اليهـا ويحتمون داخـل أسوارها هربا من الغزاة · ولما اشتدت هذه الغزوات فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر ، أقام رجال الاقطاع ـ وكان الاقطاع قد وضحت معالمه فى الغرب الأوروبى وقتذاك ـ الكثير من الحصون والقلاع بهدف الدفاع عن ممتلكاتهم من ناحية ، ولتكون ملاذا يحتمى به السكان من ناحية أخرى · وكان هذا النوع من المدن الاقطاعيـــة المحصنة بالقلاع والأبراج يعيش على الزراعة والارض · شأنه فى ذلك شأن المدن الدينية ·

يتضح مما سبق ان حضارة المدينة كانت حتى ذلك الحين حضارة زراعية تعتقد أساسا على الارض وماتغله من خيرات · وبانتعاش التجارة اعتبارا من القرن العاشر ، تأخذ المدن الدينية والاقطاعية شكلا جديدا· اذن كان التجار يلجأون اليها ويحتمون بها خشية من اللصوص وقطاع الطرق ، ونظرا لخطورة الطريق وصعوبة المواصلات · ولكن لما استقرت

الأحوال فى اوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر أخذت التجارة الدولية تزدهر شيئا فشيئا حتى ضاقت تلك المدن الصغيرة بمن فيها من التجار فأضطروا للاقامة خارج المدن الدينية والحصون الاقطاعية أى فى ضواحيها • ومن هنا ظهر نوع جديد من المدن أو الأحياء كان النشاط يختلف فيها تماما عما هو جار فى القلاع والمدن الدينية القديمة• فبينما كان النشاط فى المدن الاقطاعية زراعيا ، نراه فى المدن الجديدة اقتصاديا • وكان سكانها يسمون البرجوازية أى الذين يشتغلون بالتجارة •هذا ، مع ملاحظة ان مدلول هذه الكلمة فى العصر الحديث يختلف عما هو معروف عنها فى العصر الوسيط ، ذلك أنها تعنى حاليا طبقة الرأسماليين فى حين أنها كانت تعنى طبقة التجار فى العصر الوسيط •

ومع استمرار الاضطرابات والحروب فى الغرب ، اضطر التجار الى تحصين مدنهم الجديدة التى غدت مع الزمن أهم من المدن الدينية والاقطاعية القديمة ، ثم مالبثت ان تفوقت عليها •

هذه النظرية التى أثبتها العالم البلجيكى هنرى بيرين فى كتابه « مدن العصور الوسطى » "Medieval Cities" عن نشأة المدن الوسيطة التى قامت على أساسها المدن الحديثة • وأخذ الصناع وأرباب الحرف يفدون اليها من الأرياف لممارسة نشاطهم بها • فقد كان بوسع الصناع الحصول بسهولة من المدن على المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم ، كما كان من السهل عليهم تصريف سلعهم • ويعتبر بيرين انتقال الصناعات من الأرياف الى المراكز التجارية أى المدن الجديدة بمثابة ثورة اقتصادية كبرى لا يمكن التقليل من شأنها •

سكان المدن :

هناك فارق كبير بين سكان المدن وسكان القرى فى العصور الوسطى . فبينما كان القرويون يعتمدون فى حياتهم الاقتصادية والاجتماعية على الأرض وفلاحتها طبقا للنظم الاقطاعية ، تخلصت المدن الجديدة من القيود والالتزامات الاقطاعية وتمتعت بكثير من الحقوق والحريات ، وكان نشاطها تجاريا صناعيا .

ولنا ان نتساءل : كيف تخلص بعض أرقاء الأرض من هذه القيود الاقطاعية ، وتحولوا الى طبقة تجار وصناع تقطن المدن الجديدة وتتمتع بحقوق كبيرة ؟ يجيب المؤرخ هنرى بيرين على ذلك بقوله بأن الحروب والاضطرابات التى اجتاحت الغرب دفعت عددا كبيرا من اولئك الناس الى هجر قراهم الى المدن بحثا عن الرزق . وهناك فئة ممن شردتهم الحروب والمجاعات اضطروا الى البحث عن عمل يرترقون منه . فمنهم من عمل فى خدمة الجيوش الاقطاعية كجند مرتزقة مقابل أجر نقدى يتقاضونه من السادة الاقطاعيين ، بينما انضم البعض الى قوافل التجار ، وعمل كثير منهم كملاحين على ظهر سفن التجار . وهكذا أتيحت الفرصة لكثير منهم لتكوين ثروات كبيرة فلجأوا الى المدن ، وأقاموا فيها ، وجعلوا منها مركزا لنشاطهم التجارى أو الصناعى . والى جانب هؤلاء ، وجدت أيضا فئة من النبلاء الاقطاعيين ، وبخاصة فى جنوب اوروبا ومدن البحر المتوسط اشتغلت بالتجارة لما كانت تدره عليها من أرباح . وباع الكثيرون اقطاعاتهم أو جزءا منها لاستثمارها فى التجارة . وتبدو هذه الظاهرة واضحة تماما فى المدن التجارية الايطالية . وكان هذا من أسباب ظهور عصر النهضة مبكرا فى ايطاليا عنه فى باقى اجزاء القارة الاوروبية حسبما ذكرنا من قبل .

وهكذا أخذت المدن تجتذب الناس اليها من كل مكان وتخلص كثير من أرقاء الأرض من قيود الاقطاع ، وغدوا رجالا أحرارا فى المدن التى كانوا يعيشون فيها ، حيث اشتغلوا كصناع أو فى خدمة التجار .

ومع انتعاش التجارة وتطورها ابتداء من القرن الحادى عشر ، بدأ فى الغرب عصر رخاء ورواج ، وكثرت الثروات فى أيدى التجار الذين ظهرت منهم طبقة جديدة بين سكان المدن هى طبقة كبار التجار • وقد تمكنت هذه الطبقة بما لها من سلطة ونفوذ ومال من السيطرة على المدن • وباتت تهيمن على السلطات العليا فيها من مالية وادارية وقضائية • وكانت كل هذه السلطات وقفا على أفرادها يورثها الآباء لابنائهم ، كما كانوا يورثونهم ثرواتهم الخاصة •

نظم المدن فى العصور الوسطى :

(١) النظم القضائية والادارية والمالية :

لم يكن من المنتظر أن تزدهر المدن فى ظل النظم الاقطاعيه وقيودها • ولكن عندما ظهرت الطبقة الجديدة من سكان المدن حاولت التخلص من بقايا التزامات الاقطاع وكل القيود التى كان يخضع لها رقيق الأرض • وطالبوا بالحريات التى تسمح لهم بالتنقل من مكان الى آخر ، والتعامل مع الغير ، والتصرف فيما يمتلكون • ولم يتركوا وسيلة الا ولجأوا اليها لتحقيق أغراضهم • فكانوا أحيانا يحصلون على الامتيازات بشرائها من السادة الاقطاعيين • وأحيانا أخرى يحصلون عليها عن طريق الثورة ، وثالثة بالاتفاق مع أصحاب الاقطاعيات • ولم يجد الاقطاعيون مناصا من الاستسلام لمطالب سكان المدن ، حتى أصبحت الحرية هى الوضع القانونى بالنسبة لهم • ومنحت تلك المدن الجديدة العديد من الامتيازات التى تحميها من تعسف الاقطاعيين • فكان يكفى مثلا أن يقيم أى فرد حتى ولو كان من الأقنان فى مدينة ما سنة ويوم واحد لكى يتمتع بحقوق سكانها وتسقط عنه بالتالى جميع القيود التى كانت تربطه بالأرض عندما كان قنا • وكان هذا من الأسباب التى ساعدت على زوال عصر الاقطاع فى الغرب فى أخريات التاريخ الوسيط •

ومن أهم الحقوق التى تمتع بها سكان المدن هو الاعتراف بقانون ومحاكم خاصة بهم ، تختلف تمام الاختلاف عن قوانين ومحاكم الكنيسة أو الاقطاعيين ، وتتمشى مع احتياجات سكان المـــدن ومايمارسونه من نشاط تجارى وصناعى • وقد ظهرت تلك القوانين والمحاكم ابتــداء من القرن الحادى عشر • وكان قضاة هذه المحـــاكم ينتخبون عادة من بين التجار والصناع • ولم يأت القرن الثانى عشر حتى كانت كل المدن تتمتع باستقلالها فى الناحية القضائية •

وبعد ذلك حصل سكان المدن على الاســـتقلال الادارى • اذ كان من أولى الواجبات التى واجهتهم هى العمل على تحصـــين مدنهم باقــامة الأسوار والاستحكامات الحربية حولها للدفاع عنها ضد أى عدوان يقع عليها • كما كان لزاما عليهم تزويدها بالمرافق العامة • وكان كل هــذا يتطلب الكثير من المال الذى تكبده سكانها عن طيب خاطر • ولذلك كان من أهم ماحرصوا على الحصول عليه هو الاستقلال المالى للانفـــاق على هذه المنشئآت وغيرها ، وخشية أن يقوم رجال الكنيسة أو الاقطاعيون بجباية الضرائب منهم واستغلال حصيلتها لمصلحتهم الخاصـــة وليس لمصلحة المدينة نفسها كما كان يحدث فى الماضى • وقامت بعــد ذلـــك المجالس البلدية فى مختلف المدن لادارة شئونها القضائية والاداريـــة والمالية • وكان يشرف عليها رجال ينتخبهم للسكان ، وهم يعرفـــون فى جنوب اوروبا وايطاليا باسم القناصل وفى شمالها باسم المحلفين • وفى كتاب كولتون نماذج عديدة من الحريات التى حصلت عليها المـــدن الانجليزية وقتذاك •

النظم الاقتصادية فى المـــدن :

ذكرنا أن مدن العصور الوسطى اكتسبت أهميتها باعتبارها مراكز للتجارة والصناعة ، وذلك باستثناء عدد قليل منها استمدت شهرتهـا

من عوامل أخرى . فترجع أهمية كل من باريس ولندن مثلا باعتبار الأولى مركز الملكية الفرنسية والثانية مركز المملكة الانجليزية ، بينما كانت روما مركز البابوية والكنيسة الكاثوليكية . ثم أن تلك المدن كانت تتميز بطبقة تختلف عن غيرها من الطبقات هى الطبقة البرجوازية أو طبقة سكان المدن التى تشتغل بالتجارة والصناعة . وقد حرص أفراد هذه الطبقة على الحقوق والامتيازات التى حصلوا عليها وعلى استقلال مـــــدنهم .

وعلى الرغم من ازدهار المدن من الناحيتين الاقتصادية والسياسية خلال الشوط الثانى من القرون الوسطى ، فقد كـانت صغيرة نسـبيا لا يتجاوز عدد سكان أكبرها من مائـة الف نسمـة . وجدير بالذكر أن هذه المدن نظمت حياتها بطريقة تكفل الأمن والسلامة للمجتمـع ففرضت قيود على ممارسة التجارة ، وعلى المكاييل والموازين ، وهدفها هو حماية كل من التاجر والمستهلك . كما تدخلت فى تحديد أنواع السلع والصناعات واسعارها واماكن بيعها وما الى ذلـك . ولو أن مثل هذه الاجراءات المشددة التى تستهدف استتباب الأمن فى المدن واشاعة النشاط والازدهار فيها ، لم تنفذ بدقـة ، ويكشف المـؤرخ كولتون فى مؤلفاته العديدة عن الحيل التى كان التجار يلجأون اليها لخداع أفراد الشعب ، وسائل الغش والتدليس التى أساءت الى سمعة التجار ، مدللا على ذلك بالكثـير من الأمثلـة المسـتمدة من الوثائـق والمستندات التى ترجع الى ذلك التاريخ . وهنا ، أيضا نجد الفارق الكبير بين النظرية والتطبيق فى مجتمع العصور الوسطى .

(٣) النقابات والاتحادات فى مدن العصور الوسطى :

ويتميز التجار وعمال الصناعة فى هذه الفترة بانقطاع صلتهم بالأرض ويتحررهم من النظم الاقطاعية العتيقة . وكان لأصحاب كل مهنة أو حرفة اتحادا أو نقابة خاصة بهم لها قوانينها ونظمها وخاتمها

وعملها وممتلكاتها وأموالها ، كما كانت تتمتع بنفوذ سياسى واقتصادى كبير • وكان لكل نقابة منها تنظيمات خاصة بها ، وتدبر شئونها بنفسها عن طريق نواب يتم انتخابهم ويرأسهم المحلفون أو العمد • وكان أعضاء كل نقابة ينقسمون الى ثلاث طوائف هى : الصبيان والعمال وأصحاب العمل او المعلمين • وكان الصبيان يدفعون رسما معينا ليتعلمون من أساتذتهم ويتعهدون بطاعة معلميهم وتنفيذ تعاليمهم والمحافظة على أموال وأسرار مهنتهم • وكانوا يمضون فترة تدريب فى المصانع تتراوح بين ١٠ و ١١ سنة يصبحون بعدها عمالا • وكانوا فى فترة التدريب يمدهم أصحاب العمل بالملبس والمسكن والمأكل • كما كانوا يشرفون على سلوكهم وأخلاقهم فضلا عن الاشراف المهنى • وبعد أن يقضى الصبى فترة التدريب هذه ، يمكن أن يشتغل عاملا بأجر يومى بسيط • وكان من الممكن لأى عامل أن يصبح صاحب عمل أو معلم بعد اجتياز امتحان خاص فى صناعة يثبت فيه براعته فى مهنته وحينئذ يمكن أن يعمل لحسابه الخاص اذا توافر لدية المال اللازم لذلك • وكان هؤلاء جميعا يقيمون غالبا فى نفس الحى أو الشارع وأحيانا فى نفس السكن •

وكان لهذه النقابات تنظيمات هدفها الاساسى احتكار الصناعة أو التجارة ، وحماية أصحابها من المنافسة الخارجية ، والحرص على دقة المنتجات الصناعية واتقانها ، والمحافظة على مستوى معين للسلوك والخلق لاصحاب المهنة الواحدة ، فضلا عن ضرورة التضامن فيما بينهم • ثم أن النقابات كانت تتكفل بالعامل اذا مرض أو تعطل عن العمل ، وتتولى دفنه على نفقتها اذا توفى ، وتقوم بمساعدة زوجته وأولاده اذا كانوا فى حاجة الى المساعدة •

هذا ، ونتيجة الازدياد فى التخصص تزايد عدد النقابات حتى شملت جميع الصناعات والحرف ، فوجدت نقابات الصيارفة والاطباء

والقصابين وصناع الاحذية والسروجية والخبازين والحدادين وأصحاب الفنادق وغيرهم ٠

هذا عن نقابات الصناع ، أما التجار فكان لهم هم أيضا نقابات أو اتحادات خاصة بهم ، الغرض منها حماية مصالحهم ورعاية شئونهم وتأمينهم مما قد يصيبهم من خسارة تجارتهم ، أو احتكار انواع معينة من التجارة لصالح أعضاء هذه النقابات ٠ وكذلك حماية التجار من اعتداء الامراء على حقوقهم ، وحماية مستوى الانتاج والبضائع ، ماتنتهك ٠ ونجد أمثلة ملموسة على ذلك فى كتاب عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة لكولتون ٠

ومما لا شك فيه أن تضامن التجار والصناع ، فضلا عن الحروب الصليبية ــ كانتا من أهم الاسباب التى أدت الى نشاط التجارة والصناعة وبالتالى نمو المدن وازدهارها فى الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى ٠ وقد ساعد هذا على التعجيل بزوال عصر الاقطاع ، بل وبنهاية العصر الوسيط وبداية عهد جديد ٠

الموضوع السادس عشر

تجارة اوروبا فى العصور الوسطى

التجارة الاوروبية منذ سقوط الدولة الرومانية حتى أواخر القرن العاشر

كان نظام الاقطاع الذى ساد الغرب فى العصور الوسطى يقوم أساسا على الارض وفلاحتها ، وحضارته حضارة زراعية لا تعرف الصناعة والتجارة . وعلى هذا يعتبر ظهور المدن وغيرها اعتبارا من القرن الحادى عشر من الامور البالغة الاهمية فى هذا الصدد ، اذ أضعف النظام الاقطاعى ومهد لقيام مجتمع جديد وحياة جديدة أساسها التجارة والصناعة .

ولتفهم الاسس التى قامت عليها تجارة العصر الوسيط يحسن بنا ان نرجع الى أخريات التاريخ القديم ، ولقد عرف العالم الرومانى القديم حضارة المدن التى نشطت فيها التجارة والصناعة . ولكن هذه المدن أخذت تتدهور ابتداء من القرن الثالث بسبب الأزمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التى اجتاحت الدولة الرومانية وقتـذاك ، وكان أن انكمشت التجارة والصناعة بها . وفقدت المدن القديمـة مكانتها وأهميتها ، وتناقص عدد سكانها الذين أصبحوا أتباعا وأقنانا فى فترة العصور المظلمة . وتحولت تلك المدن القديمة فى بداية العصر الوسيط الى مجرد مراكز دينية ليس الا ، ولم يعد لها أى نشاط تجارى أو صناعى ، وأخذت اقتصادياتها تتحول نحو اقتصاد بدائى يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى فى حدود مجتمع يقوم على الزراعة . بمعنى أنه صاحب انهيار المدن الرومانية القديمة وحضارتها التجارية ظهور مجتمع اقطاعى يتميز بحضارة زراعية ريفية . وأصبح هذا المجتمع الجديد مجتمعا مغلقا يعيش على سياسة الاكتفاء الذاتى .

وهكذا تدهورت المدن والتجارة فى اوروبا ، وزالت طبقة التجار فى بداية العصور الوسطى . وساعد على ذلك أن اوروبا كـانت فى القرون الأولى من تلك العصـور مسرحا لاحداث سياسيـة خطيرة لـم تساعد على نمو التجارة ونهوضها من كبوتها . نذكر منها غزوات الجرمان

البرابرة التى أوجدت حالة من الفوضى والاضطراب فى كافة أنحاء الغرب ، ثم حركة الفتح العربى وما ترتب عليها من سيطرة العرب على البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك امبراطورية شارلمان بعد موته والآثار المترتبة عليها . كل هذا نتج عنه توقف الحياة الاقتصادية فى العالم الغربى وكان أن اصبحت التجارة فى حكم المعدومة .

ظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الثامن ولكن اعتبارا من القرن التاسع وخلال القرن العاشر وجد نشاط تجارى محدود ضيق داخل القارة الأوروبية . فكانت هناك أسواق ريفية بسيطة يتجمع فيها الفلاحون للتسلية وتمضية الوقت أكثر من أى شىء آخر . ثم وجد ايضا نشاط تجارى على نطاق أوسع يتمثل فى العلاقات التى قامت بين بعض المدن البحرية الايطالية وبين الدولة البيزنطية . وكذلك نشاط الفيكنج الشماليين فى بحر الشمال وبحر البلطيق وسهول الروسيا . هذا فضلا عن وجود بعض التجار اليهود الذين كانوا يتجرون فى المواد النادرة كالفلفل والبهارات والبخور والأقمشة التى كان الغرب فى حاجة اليها . ومع ذلك لم يقدر لهذه التجارة أن تنمو أو تتسع لاسباب عدة منها تزمت الكنيسة التى كانت تحرم التجارة وتعتبر الكسب الناتج عنها كسب غير مشروع . وكانت ترى ان الأرض الزراعية هى الرزق الوحيد الحلال الذى يمكن أن يعيش عليه الانسان .

نخلص مما تقدم أن المجتمع الغربى فى هذا العصر المبكر كان مجتمعا زراعيا ، ليس فيه مكان للتجارة بالمعنى الواسع المعروف من هذه الكلمة . واستمر الحال هكذا حتى القرن العاشر . ولكنه مع مرور الزمن ظهرت فى العصر الاقطاعى مجتمعات من العبيد والأقنان بجوار الحصون والقلاع الاقطاعية والأديرة . وكان نشاطها التجارى هو الآخر ضعيفا محدودا للأسباب سالفة الذكر ، خاصة وأن عملها اقتصر على صناعة الجلود والأوانى الفخارية وغيرها ، والقيام ببيع هذا الانتاج فى أقرب سوق محلى ، واستيراد السلع الضرورية من المناطق المجاورة .

ومع ذلك فان النشاط التجارى الواسع لا يرجع الى تلك المجتمعات وانما الى اولئك التجار المتجولين الذين كانوا يستوردون السلع لبيعها للسادة اللوردات وأتباعهم ومقدمى الاديرة • وقد سمح الأمراء المحليون لاولئك التجار بالاقامة بجوار حصونهم أو خارج أسوار أديرتهم • وكانت النتيجة هى ظهور مجتمعات تجارية فى القرن الحادى عشر تتمتع بنوع من الحرية الشخصية لم تتوفر للاقنان فى الجهات المجاورة • وكانت هذه المجتمعات الجديدة هى النواة التى نشـأت منهـا مدن العصور الـوسطى •

سنتبين مما تقدم أن التجارة الاوروبية كانت حتى القرن العاشر بصفة عامة شبه معدومة للأسباب التى أسلفناها • ولم تكن البوصلة قد اخترعت بعد • كذلك كانت معلومات الأوروبيين عن العالم مشوشه فكانوا يعتقدون مثلا أن نصف الكرة الجنوبى عبارة عن بحر فيمـا عدا جبل واحد يقع فى الوسط • وكانت هذه الجهات النائية البعيدة مجهولا أمرها بالنسبة للغربيين • هذا وكتب الرحالة أمثال جون موند فيل مليئة بالاساطير والخرافات التى كانت تروى عن تلك الاصقاع البعيـدة •

لعله يتضح مما سبق أن المدينة الاوروبيـة فى مستهل العصر الوسيط قد مرت بعدة مراحل قبل أن تصبح مركزا تجاريا وصناعيا • وغير خاف أن العامل الجغرافى كان له أثره الكبير فى تطور بعض المدن وازدهار التجارة فيها • فاستمدت المدن البحرية الايطالية ، مثـل جنوه وبيزه والبندقية ، أهميتها لمواقعها على البحر • فكانت حلقـة اتصال بين الشرق والغرب ، وكان لها أثرها الواضح فى انتعاش التجارة فى أخريات العصور الوسطى • ويتحكم عدد من هذه المدن فى ممرات أو طرق مثل فيرونا وبولونيا • ويقع البعض الاخر عند ملتقى نهـر أو طرف جسر مثل اكسفورد وكامبردج • كما أن ظروف بعض الاقاليم

فى الغرب ساعدت على نشأة بعض المدن وازدهار التجارة بها . مثال ذلك ايطاليا التى كانت حلقة الوصل فى الميدان التجارى بين كل من الشرق العربى وبيزنطة من جهة وبين الغرب من جهة أخرى . وكانت شامبانيا وبلاد الفلاندرز (الفلمنك) الواسطة بين جنوب اوروبا وشمالها . وكيفما كان الأمر ، فان النشاط الذى دب فى هذه المدن فى القرن الحادى عشر يعتبر بمثابة انقلاب اقتصادى كبير ، كان من نتائجه التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الاقطاعية التى كانت سائدة حتى ذلك الحين .

انتعاش التجارة فى المدن البحرية الايطالية والغرب ابتداء من القرن الحادى عشر :

ذكرنا أنه كان للمدن البحرية الايطالية ، وهى بيزه وجنوه والبندقية ، علاقات تجارية مع دول الشرق العربى قبل قيام الحركة الصليبية ، وخاصة مصر والشام ، اذ حصلت من خلفاء الفاطميين على اشتراكها فى الحملات الصليبية فيما بعد نتيجة طبيعية لهذه العوامل
اشتراكها فى الحملات الصليبية فيما بعد نتيجة طبيعية لهذه العوامل
السالفة . مثال ذلك أن مدينة بيزه كانت تحرص حرصا شديدا على أن تظل العلاقات مع الخلفاء الفاطميين ودية طيبة . فنجد أنها أرسلت سنة ١٠٥٤ سفيرا من قبلها الى بلاد الخليفة الظافر للعمل على تسوية بعض المشاكل الناجمة عن تعرض بعض تجارها لفريق من التجار المصريين بالسلب والنهب . وعاقبت الحكومة الفاطمية التجار لبيازنة المقيمين بمصر بالسجن . ولكن سفير بيزا استطاع الوصول الى تسوية مع الحكومة الفاطمية تعهدت فيها بيزا بالاقتصاص من المعتدين ، بينما تعهدت الحكومة الفاطمية باطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين أودعوا السجن بسبب اعتدائهم على بعض المصريين ، كما

تعهدت بحماية الحجاج والتجار البيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية ·

لقد كانت سياسة حكومة بيزا هى التقرب الى الفاطميين لتحقيق مصالحها التجارية فحسب · فعندما قامت الحركة الصليبية ، كانت تشترك مع الصليبيين اذا وجدت فى ذلك مصلحة لها · ولكنها سرعان ماتتحول عنهم وتسارع الى التفاهم مع الفاطميين وفقا لما تمليه عليها مصالحها الخاصة وستعرض ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد ·

كذلك كانت العلاقات التجارية طيبة بين جنوه والفاطميين · وقد نمت وازدهرت فى النصف الاخير من القرن الحادى عشر · ونعرف أنه فى سنة ١٠٦٣ عقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية· وكان كثير من تجارها يفدون الى الاسكندرية لاستيراد السلع التى كان الغرب فى حاجة اليها · وكان رعاياها بصفة موضع حماية الدولـــة ورعـــــايتها ·

ولقد كان لمنتجات الشرق الادنى ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة لاوروبا فى تلك العصور · وكان من أهم السلع التى كان الغرب فى حاجة اليها البهارات والسكر والعطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والقطن · كذلك كـان الشرق فى حاجـة الى بعض الخامات الغربية مثل الأخشاب والحديد والمعادن بصفة عامة · وكانت المدن البحرية الايطالية هى التى تقوم بتصدير واستيراد السلـــع والبضائع بين الشرق والغرب · وان كنا قد تحدثنا عن دور بيزا وجنوه فلم يكن دور البندقية يقل أهمية عنهما · فالبندقية تاريخ بحرى مجيد· فهى مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات / ويكشف موقعها الجغرافى عن عظمتها البحرية والتجارية · فهى تقع على رأس البحر الأدرياتى الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبـة ايلين بوز أعظم طريـق بحرى

لتجارة العصور الوسطى . ثم هي في موقع متوسط بين الشرق والغرب فضلا عن كونها ميناء من موانى البحر المتوسط . ويكاد هذا الميناء أن يكون فى قلب اوروبا لوقوعه فى أقصى الطرف لشمالى . كل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من بلدان أوروبا . ففيها كان يرسو التجار الوافدون من موانى شرقى البحر المتوسط ومن بلاد الشرق الأقصى ، ومعهم الانسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعطور وغيرها . ومن البندقية كانت هذه البضائع تنقل الى المانيا وفرنسا وانجلترا والاراضى الواطئة . كذلك نجحت البندقية فى احتكار تجارة بيزنطة ، وكان لها تاريخ طويل معها ، بلغ ذروته فى الحملة الصليبية الرابعة .

وفضلا عن ذلك ، فقد قامت علاقات تجارية واسعة بين كل من جنوه وبيزه من ناحية وموانى شمال افريقية الاسلامية من ناحية أخرى. وساعد على ازدياد النشاط التجارى لهذه المدن الايطالية عدة عوامل كان من أثرها انتقال السيادة البحرية فى البحر المتوسط من الدول البحرية الايطالية . وبقيام الحروب الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر ، نجحت الجمهوريات البحرية الايطالية فى احتكار تجارة الشرق الادنى والبحر المتوسط وترتب على ذلك ازدهار هذه الجمهوريات وارتفاع شأنها ، ومساهمتها الفعالة فى القضاء على آخر بقايا العصور الوسطى وبزوغ عصر النهضة .

كانت النتيجة انتعاش التجارة فى الغرب بصفة عامة ، ووجود مراكز صناعية فى بعض المدن ، وازدياد ثرواتها ، وانتعاش حركة البيع والشراء فيها ، وقيام مراكز تجارية كبيرة فى مناطق الانتاج ، ووجود أسواق لعمليات التصدير والاستيراد . وفى ظل هذه الظروف حاولت المدن البحرية الايطالية احتكار التجارة الاوروبية النامية ، ولكنها لم تصادف النجاح المطلوب الا داخل ايطاليا نفسها وفى البلدان

الواقعة على البحر المتوسط . أما داخل القارة فقد اصطدمت سياستها الاحتكارية بعقبات عديدة منها صعوبة المواصلات وبعد المراكز التجارية الجديدة عنها . وقد هيأ كل هذا لدول الغرب الفرصة لان تعمل لحسابها الخاص وأن تزدهر تجارتها . فوجد نشاط تجارى كبير فى المدن الواقعة على طريق السهل اللمباردى وطريق الراين وممرات جبال الألب .

وللقرن الثالث عشر أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الغربى . اذ أحدث تغييرات هامة فى الطرق التجارية ، فأوجد طرقا جديدة بدلا من الطرق القديمة . وترتب على ذلك ازدياد النشاط التجارى للمدن الأوروبية الناشئة التى أخذت تطالب بالحصول على حقوقها وحرياتها وامتيازاتها . وكان سكان هذه المدن التجارية الجديدة يسمون البرجوازية ، أى الذين يشتغلون بالتجارة . وقد تمكنت هذه الطبقة الجديدة بما لها من سلطة ونفوذ ومال من السيطرة على المدن ، وأصبحت تهيمن على السلطات العليا فيها من مالية وادارية وقضائية . وأصبح لتلك المدن النامية نظمها الاقتصادية الخاصة بها .

ويمضى الزمن أصبح للتجار والصناع فى معظم دول الغربى الأوروبى نقابات أو اتحادات خاصة بهم ، الغرض منها حماية مصالحهم ورعاية شئونهم وتأمينهم مما قد يصيبهم من خسارة فى تجارتهم ، أو احتكار أنواع معينة من التجارة لصالح أعضاء هذه النقابات ، وحماية مستوى الانتاج والبضائع ، والتمسك بالأمانة وعدم الغش . وان كانت مثل هذه المثل العليا كثيرا ماتنتهك . ونجد أمثلة واضحة على ذلك فى كتاب عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة لمؤلفه كولتون . كل هذا أدى الى نشاط التجارة وازدهارها فى الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى .

الحروب الصليبية وأثرها فى انتعاش التجارة الأوروبية :

لقد كانت هناك عوامل عديدة دفعت التجارة النامية فى أوروبا دفعة كبرى الى الأمام ، وكان لها أثرها فى القضاء على آخر بقايا الاقطاع • من هذه العوامل الحروب الصليبية التى قامت فى أخريات القرن الحادى عشر بتوجيه من البابوية وتحت رعايتها بقصد الاستيلاء على الأرض المقدسة وتأسيس امارات لاتينية بها • وكيفما كان الأمر . فان الاحتكاك الحربى بين الغرب الاوروبى والشرق العربى أدى فى نفس الوقت الى احتكاك تجارى وتبادل السلع والبضائع • وكان للبنادقة والجنوية والبيازنة دور ملموس فى هذا المضمار • اذ أسهموا بسفنهم وأساطيلهم فى نقل الجند والعتاد والمهمات من موانى اوروبا الى سواحل مصر والشام وموانى شمال أفريقية فيما بعد • كما اشتركوا مع القوات الصليبية فى الاستيلاء على الموانى الشامية تحقيقا لمصالحهم وأطماعهم التجارية فى المنطقة • فنعرف أن الجنوية ساعدوا الفرنج فى الاستيلاء على انطاكية سنة ١٠٩٧ • كما اشترك البنادقة بعد ذلك بعامين فى غزو بيت المقدس • وكانوا عنصرا بارزا فى الحملات الصليبية التى كانت مصر وشمال افريقية مسرحا لها فيما بعد • ذلك أن امتلاك مصر وبلاد الشام وشمال افريقيا حيث تنتهى الطرق البحرية الرئيسية ، كان حجر الزاوية فى السيطرة على تجارة السلع الشرقية حسبما يقول كل من العالم البلجيكى هنرى بيرين والمؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه •

لقد كانت هذه التجارة التى فتحت الحروب الصليبية آفاقها مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها من تجار اوروبا • وهكذا لم يقتصر دورهم فى المساهمة الفعالة فى قيام الدويلات اللاتينية فى الأراضى المقدسة ، بل امتد الى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكينا

لصالحهم وانعاء لثرواتهم • وقد تمثل ذلك فى تلك المعاهدات التى عقدت بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية والتى تضمنت امتيازات عديدة اقليمية لصالح الجاليات التجارية الايطالية والفرنسية والاسبانية • اذ كان لهذه الجاليات مصالح وأطماع قديمة فى تلك الموانى التى تفتح لها الطريق الى الشرقين الأدنى والأقصى ، مما يؤدى الى زيادة أرباحها عن طريق سيطرتها على طرق التجارة بين أوروبا وبين بلدان الشرقين الأدنى والأقصى •

وجدير بالذكر أن المدن والموانى الواقعة على طول الساحل الشامى غدت خلال العدوان الصليبى على العالم العربى مسرحا عجيبا للصراع بين هذه الجاليات ، لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية والمصالح الخاصة • وكثيرا ما تطور هذا الى قتال مكشوف وحروب داميه ذهب ضحيتها الكثيرون • وكتب العصور الوسطى عامرة بالامثلة الدالة على ذلك •

لقد غلبت الصفة التجارية البحتة على هذه الجاليات ، اذ كان هدفها الاول والاخير منذ قيام الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى فحسب • ويكفى أن نعرف أن شعار احدى هذه الجاليات وهم البنادق هو :« لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين » اما شعار الجنوية فهو : « نحن جنوية أولا واخيرا » • بمعنى ان مصالح هذه الجاليات كانت تسمو فوق اى اعتبار أخر حتى ولو كان اعتبار الدين •

وتأكدت الاطماع والمصالح التجارية فى الحملة الصليبية الرابعة التى كانت وجهتها مصر ، وهدفها القضاء عليها ليتسنى لها الاستيلاء على بقية أجزاء الشرق العربى • ولكن يشترك فى تلك الحملة عدد كبير من البنادقة الذين كانت لهم مصالح تجارية وقفت القسطنطينية عقبة

في سبيلها ، فقد أرادوا العمل على تحقيق تلك المصالح بالقوة . واقنعوا كبار القادة في الحملة بذلك • وانتهى الامر بالاستيلاء على العاصمة البيزنطية وتأسيس امارة لاتينية في بيزنطة استمرت من سنة ١٢٠٤ الى ١٢٦١ •

يتضح مما سبق الدور الهام الذى لعبته البندقية فى الحروب الصليبية التى وجدت فيها فرصتها العظيمة • وأصبح حاكمها الدوج بعد الاستيلاء على القسطنطينية هو الحاكم المطلق على أربعة بحار هى البحر الادرياتى والبحر الايجى وبحر مرمرة والبحر الاسود ، فضلا عن أن سفنه كانت ترتع فى البحر المتوسط وملات متاجر البندقية جزيرة القوم أيضا • وكانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها وأدرنه والقسطنطينية بل وفى طرابيزون على البحر الاسود ، وفى شبه جزيرة القرم أيضا • وكانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها • وحاولت جنوه منافستها فى هذا المركز الذى كانت تتمتع به ، ولكن أسطولها لقى هزيمة شديدة مرتين ، الألى عام ١٢٥٨ والثانية عام ١٢٨٤ •

ويتحدث عن تاريخ البندقية وعظمتها التجارية وسيادتها البحرية المؤرخ البندقى ده كانال فى تاريخه الذى وضعه باللغة الفرنسية القديمه فى أواسط القرن الثالث عشر (١٢٦٨) • ونعرف منه كيف كانت البندقية التى تحدت روما وهزمت القسطنطينية أجمل مدائن العالم وأغناها وأقواها وأنشطها فى ميدان التجارة والأسفار والمغامرات البحرية الواسعة •

العلاقات بين الغرب والمغول فى الشرق الأقصى :

واذا تعرضنا للمغامرات الواسعة خارج القارة الأوروبية ، فيجب أن نقف عند الرحالة الايطاليين ومغامراتهم المثيرة فى الشرق الاقصى

فى أخريات العصور الوسطى . ويحسن أن نمهد لذلك بكلمة عن موقف الغرب من المغول واتصاله به منذ أوائل القرن الثالث عشر .

ففى أوائل ذلك القرن ظهر فى الشرق الأقصى عامل كان له أثره وخطره بالنسبة للغرب الأوروبى . اذ أقام جنكيزخان امبراطورية مغولية امتدت من بكين شرقا الى نهر الدنيبر والفرات غربا ، وكانت عاصمتها قراقوم فى أواسط منغوليا، أصبح الخطر المغولى القارة الأوروبية ، وكان هدف جنكيزخان من وراء فتوحاته الغربية التى بدأها فى عهد الامبراطور فردريك الثانى ، الى تمهيد الطريق للتوغل فى اوروبا . وفعلا توالت حملات المغول على بولندا وهنغاريا والمانيا ، حتى أن البابا جريجورى التاسع*(١٢٢٧ ـ ١٢٤١) فكر فى الدعوة الى حرب صليبية لوقف هذا الخطر . ولكن هذا الموقف المشدد لم يكن ليوقف تيار التتار الجارف . ولذلك رأى البابوات وأهل الغرب أن خير وسيلة لاتقاء خطر المغول هى محاولة استمالتهم الى الديانة الكاثوليكية ، ثم العمل على استبعاد خطرهم بايفاد البعثات والارساليات اليهم . وأخيرا محاولة استمالتهم اليهم فى حرب صليبية جديدة ضد الاسلام . وتنفيذا لتلك السياسة أرسل البابوات وملوك الغرب عدة بعثات الى المغول .

تلك هى الخطوط العريضة التى التقت عندها سياسة البابوية حيال المغول ، والتى رأينا أن تمهد بها لمعرفة أثر البعثات المتبادلة بين أوروبا والشرق الأقصى فى انماء التجارة الأوروبية ، وفى حركة الرحلات والاسفار والمغامرات الواسعة فى أخريات العصور الوسطى .

بعثات البابا انوسنت الرابع الى المغول :

كان أقدم تبادل لهذه السفارات منذ منتصف القرن الثالث عشر بين البابا الرومانى انوسنت الرابع وبين حاكم المغول كيوك خان (١٢٤٦ـ

١٢٤٨) ففي أثناء انعقاد مجلس ليون الكنسي سنة ١٢٤٥ أرسل البابا ثلاث سفارات دينية الى ايلخان المغول العظيم أملا في كسبه هو وشعبه الى الديانة المسيحية على مذهب الروماني ·

أولى هذه البعثات هي بعثة لورنزو البرتغالي Lorenze of Bortugal الذي ذهب الى البلاط المغولي عن طريق أرمينية وفارس · ويبدو أنه لم يصل الى أبعد من مدينة لاجازو Lajazzo ومعلوماتنا عن رحلته قليلة ·

والبعثة الثانية كانت برئاسة شخص يدعى جيوفاني دى بيانو كاربني Giovanni di Piano Carpini من الفرنسسكان · غادر ليون في ابريل ١٢٤٥ ، وسار شمالا عبر بوهيميا وسيليزيا الى كييف التي وصلها في فبراير ١٢٤٦ · ومنها واصل الرحلة الى مدينة سيرا اردو على مسيرة نصف يوم من قراقورم ، وتقع على حدود الصين الشمالية · فبلغها في يوليو من نفس العام بعد رحلة استغرقت حوالى سنة ونصف · وكان جيوفاني موضع الحفاوة في البلاط المغولي ·وشاهد حفل تتويج كيوك خان في ١٥ أغسطس ، وقد استضافه الخان في بلاطه حتى ١٣ نوفمبر من نفس السنة · وفي نهاية سنة ١٢٤٧ عاد الى اوروبا ومعه ردود كيوك خان الى انوسنت الرابع · وجدير بالذكر أن جيوفاني قاسى المخاطر والأهوال ، وتعرض للجوع والعطش وشدة الحرارة وقسوة البرد والأسر حتى أشرف على الموت · وقد أشار كولتون في مؤلفه « عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة » الى المتاعب التي صادفتها كاربيني خلال رحلته هذه ونتائجها ·

أما السفارة الثالثة التي أرسلها البابا الروماني ، فقد كان على رأسها راهب دومينيكاني هو أسلين اللمباردى · وقد بدأ رحلته من مدينة ليون في يونيو ١٢٤٥ ، ومنها الى تفليس ثم تقدم عبر أرمينية وجورجيا وسوريا وفارس الى معسكر باتو قائد ايلخان العظيم في آسيا الغربية،

حيث بقى حتى يوليو من السنة نفسها . ولم يكن شعور المغول حيال السفراء الغربيين طيبا . وقد فكروا فى اعدامهم لولا وصول رسول من قبل ايلخان العظيم يأمر قائده بحسن معاملتهم . وهكذا عاد رسول البابا الى اوروبا . وأرسل باتو معه رسولين من قبله ، وكان يهدف من وراء ذلك التجسس لمعرفة قوة الغرب ، ليتسنى للمغول تحديد موقفهم من الكتلة الغربية . وعقد انوسنت مع رسولى باتو عدة اجتماعات ليعرف مدى استعداد المغول للتحول الى الكاثوليكية ، والتضامن مع الغرب ضد العرب فى الشرق ، وقفل الرسولان عائدين الى بلدهما دون أية نتيجة .

واذا دققنا النظر فى البعثات التى أرسلها انوسنت الى المغول نجد أنها أخفقت فى تحويلهم الى الكاثوليكية ، وان كانت قد أوضحت الأمل فى امكان مواصلة السياسة التى رسمتها وسارت عليها البابوية ثم أنها دفعت الخطر المغولى عن الغرب الأوروبى ، ومهدت السبيل أمام الملك الفرنسى لويس التاسع عندما تبودلت السفارات بينه وبين اولئك القوم . فضلا عن أنها أنارت الطريق أمام آل بولو عندما قاموا برحلاتهم التجارية الواسعة الى الشرق الأقصى فى أخريات القرن الثالث عشر .

السفارات المتبادلة بين لويس التاسع والمغول :

تجددت المفاوضات بين الطرفين بعد الارساليات البابوية بفترة قصيرة . وكان المغول هم البادئون بالمراسلة . ففى أثناء اقامة لويس التاسع ملك فرنسا فى جزيرة قبرص قبل ابحاره الى دمياط ، أرسل اليه أحد حكام التتار فى وسط فارس ويدعى جغطاى خان سفيرين ومعهما رسالة يطلب فيها المساهمة مع الفرنسيين فى سبيل الاستيلاء على البيت المقدس من أيدى العرب . وتعتبر هذه الرسالة عملا دبلوماسيا

له دلالته قام به المغول وقتذاك · اذ رأوا الاتفاق مع اللاتين لازالة مصر — معقل القوى العربية — من الميدان ، حتى يسهل عليهما تحقيق مطامعها المشتركة فى رقعة الشرق العربى ·

على أية حال ، استقبل لويس سفيرى جغطاى خان بفكرة التعاون معه · وعاد السفيران الى بلادهما فى يناير ١٢٤٩ · وأرسل لويس معهما بعثة على رأسها راهب دومينيكانى هو اندريه دى لونججيموه تحقيقا لسياسة البابوية فى هذا الصدد · وبدأت البعثة رحلتها من قبرص الى انطاكية ، ومنها أخذت الطريق البرى الى الموصل فتبريز الى أن وصلت الى معسكر جغطاى خان فى وسط فارس ، وكان كيوك ايلخان المغول قد توفى فى تلك الأثناء وخلفه منكوخان · وقد واصل رسل الملك الفرنسى الرحلة شرقا نحو البلاط الامبراطورى حيث تبادلوا الهدايا مع منكو خان ·

وبعد غيبة عامين فى أرض المغول عادت البعثة · وبلغت مدينة قيسارية بالشام عن طريق حلب فى سنة ١٢٥١ م ومعها سفراء من قبل ايلخان العظيم ورسالة متعالية من سيدهم يطلب فيها الخضوع والولاء من ملك الفرنسيين ·

هكذا أخفقت البعثة فى تحقيق اغراضها ، ومع ذلك لم ييأس لويس التاسع وقرر معاودة الاتصال بهم مرة ثانية · فأرسل سفارة على رأسها راهب فرنسسكانى هو وليم دى روبروك الذى ترك لنا مذكرات دون فيها أخبار رحلته وتمتاز بقيمتها وبأهميتها القصوى ·

رحل روبروك من مدينة قيسارية سنة ١٢٥٢ الى القسطنطينية التى أقام فيها حتى مايو ١٢٥٣ · بعد ذلك أبحر الى شبه جزيرة القرم ، وأوضح فى مذكراته أنها كانت وقتذاك فى أيدى الاغريق الذين

كانوا يتاجرون مع أهل الشمال في مختلف أنواع الفراء • ومن هناك أخذت البعثة الطريق البحرى حتى مصب نهر الدون • وقاسى روبروك ورفاقه الكثير من الأهوال خلال الرحلة ، وسجل ذلك كله في مذكراته •

وقد التقى روبروك أولا بأحد حكام المغول وهو سارتاك عند نهر الفولجا • ثم واصل الرحلة الى بلاط باتوخان بمحاذاة نهر الفولجا • وفى سبتمبر ١٢٥٣ غادر بلاط باتوخان ، وسار بعد ذلك شرقا على طول نهر الفولجا لمدة ثلاثة أشهر الى أن بلغ بلاط منكوخان بالقرب من قراقورم حاضرة المغول فى أواخر ديسمبر من السنة نفسها • وقد تمت عدة مقابلات بين روبروك وايلخان المغول العظيم ، خرج منها بأن المغول كانوا يتبعون سياسة التسامح الدينى ليس مع المسيحيين من أتباعهم فحسب ، وانما مع جميع الديانات الاخرى ، وأنه لم تكن هناك أية بادرة توحى بتحول كبيرهم الى المسيحية •

وبعد أن أخفق روبروك فى مهمته قفل عائدا الى بلاده • وسار فى رحلة العودة بمحاذاة نهر الفولجا • ثم اتخذ الطريق البرى الى القسطنطينية عبر أرمينية وآسيا الصغرى • وكان الكسب الوحيد الذى حققته رحلة روبروك هو ازدياد معلومات الغربيين عن البلاد الآسيوية • وكان لهذا أهميته البالغة فيما بعد عندما قام المغامرون الايطاليون برحلاتهم المثيرة فى الشرق الاقصى بقصد الاتجار فى أواخر القرن الثالث عشر •

وما دمنا نتحدث عن البعثات التبشيرية الى الشرق الاقصى ، فيجب ان نعرض لبعثة اودوريك اوف بردينون **Odoric of Perdenone** الذى ذهب الى أبعد مما ذهب اليه روبروك • اذ أخذ ينتقل من ميناء الى آخر فى بحار الشرق الاقصى وبلاد الصين حتى وصل الى مدينة كانتون • ومر بعدة بلاد أخرى الى أن بلغ بكين نفسها • وقد نوهنا

بمعلومات مسهبة عن عجائب الصين تثير الدهشة والغربة .

لقد كان رجال تلك البعثات التبشيرية علماء فى الجغرافية بقدر ماكانت تسمح به ظروف تلك الازمان . كذلك كانت لهم معرفة لابأس بها بالسلالات البشرية ، الى جانب مهمتهم الرئيسية كمبشرين للدين الكاثوليكى . وقد خلفوا لنا فى الواقع أبحاثا لها قيمتها التى لاتقدر بثمن عن تلك البقاع النائية التى زاروها ، والتى هيأت الجو فيما بعد للمغامرات البحرية الواسعة .

رحلات آل بولو فى الشرق الأقصى :

لقد فشل المبشرون فى مهمتهم التى قاموا أساسا من أجلها ،ومعذلك فان رحلاتهم تمدنا بمعلومات طيبة عن أحوال الشرق الأقصى وقتئذ وتجارته وعلاقاته بالغرب الاوروبى . ولاشك أن الرحالة والتجار الذين قاموا بعد بمغامراتهم الواسعة فى أراضى الشرق الأقصى ، قد أفادوا كثيرا من تلك الرحلات والمذكرات التى خلفها أولئك المبعوثين الدينيين .

وجدير بالذكر أنه حتى ذلك الوقت لم يقم أى رحالة لاتينى بالسفر الى أبعد من فارس ومنغوليا . ولم يصل الى داخل الصين نفسها ، باستثناء اودوريك اوف بردينون وتم هذا لأول مرة فى التاريخ على أيدى اثنين من تجار البندقية هما الشقيقان نيقولا ومافيو بولو اللذين رحلا بغرض الاشتغال بالتجارة ، وكانا من كبار تجار الجواهر . وقد سافرا الى القسطنطينية بسفنهما الخاصة . وابحرا الى شبه جزيرة القرم ، ومنها سافرا على ظهور الخيل الى بلاد المغول . وعادا الى الوطن محملين بالحلى والجواهر الثمينة بعد مغامرة ناجحة . ولكن التجارة والربح أغرتهما بالقيام بمحاولة أخرى . وعقدا العزم على زيارة جغطاى خان فى آسيا الوسطى . وواصلا سيرهما فى سهول لايعرفها الا المغول ولا

تعيش فيها الا الماشية حتى بلغا مدينة بخارى . ويرجح أن الاخوين سلكا في رحلتهما طريق نهر جيحون ، وأقاما في بخارى ثلاثة أعوام وواصلا بعد ذلك الرحلة في قلب آسيا عبر بلاد الخطا حتى بلغا بلاط قوبيلاى خان حوالى سنة ١٢٦٥ . وقد وصف ماركو بولو نفسه بعد ذلك بعدة أعوام حسن استقبال ايلخان العظيم لهما كما حدثاه هما عنه . وقفل الاخوان بعد ذلك عائدين الى وطنهما بعد رحلة شاقة استغرقت ثلاثة أعوام ، ومعهما رسالة من قبل ايلخان العظيم الى البابا الروماني يطلب فيها قوبيلاى ارسال بعض العلماء لتعليم المغول .

وفى سنة ١٢٧١ ذهب الرحالة البندقي ماركو بولو مع أبيه نيقولا وعمه مافيو الى الصين والهند وجاوه حيث قضى ١٧ سنة (١٢٧٥ — ١٢٩٢) . وفى سنة ١٢٩٥ عاد ماركو الى موطنه في البندقية بعد حوالى ربع قرن من الترحال والاتجار وبعد أن جمع ثروة طائلة . وتعتبر رحلات ماركو اشهر بكثير من تلك التى قام بها سلفه روبروك . وأن فيما كتبه ماركو عن البلدان التى زارها لدليل واضح على انتشار التجارة في تلك العصور التى أثرت من ورائها كل من جنوه والبندقية

هذه كلمة سريعة عن رحلات ماركو بولو وأبيه وعمه الى بلاد الصين والشرق الأقصى . وننتقل من التعميم الى التخصيص لنذكر كلمة عن ماركو بولو ونشاطه الفذ في ميدان التجارة في الشرق الاقصى . ومن حسن الحظ أن ماركو كتب بنفسه أخبار رحلته التى وصف فيها عجائب الدنيا في تلك المناطق النائية التى لم يكن الغرب يعرف عنها أى شيء من قبل .

رحل ماركو بولو وأبوه وعمه من مدينة لاجازو الى الموصل فبغداد فبلاد فارس حيث توجد الأنسجة الحريرية الجميلة . واجتازوها الى ميناء هرمز الواقعة على الخليج العربى الذى ترسو فيه السفن القادمة من الهند محملة بالتوابل والجواهر والعاج . وتوجهوا بعد

ذلك شمالا حيث اتخذوا الطريق البرى واجتازوا صحراء كرمان ورحلوا عبر خراسان الى بدخشان . ثم ارتقوا أعالى نهر جيحون الى هضبة بامير . ومنها انحدر آل بولو الى خوتان ، واندفعوا الى جوار بحيرة لوب . وبعد ذلك تزودوا بما يحتاجون اليه . ثم بدأوا رحلتهم المخيفة التى استغرقت ثلاثين يوما عبره صحراء جوبى . وأخيرا وصلوا الى أقصى الشمال الغربى من بلاد الصين ثم عبروا سهول منغوليا الى ان بلغوا ايلخان العظيم سنة ١٢٧٥ بعد رحلة مجهدة شاقة دامت ثلاث سنوات ونصف .

وقد استقبل قوبيلاى خان آل بولو استقبالا حافلا . وضم ماركو الى رجال حاشيته ، حيث قضى فى خدمته سبع عشرة سنة قدم له فيها خدمات جليلة . اذ استخدمه الخان فى جميع بعثاته وسفاراته الى كافة أنحاء مملكته الواسعة . وفى مثل هذه الظروف أتيح لماركو بولو أن يجمع معلومات مدهشة عن طريق الشرق الاقصى كانت مجهولة من قبل وقد زار الكثير من البقاع التى لم يعرفها الغرب حتى عام ١٨٦٠. فمر بأطراف هضبة التبت ودخل القسم الشمالى من بورما . كما زار قراقورم عاصمة المغول القديمة ووصف بكين الواقعة فى الشمال ومدينة كينساى (هنجشاو) الواقعة فى الجنوب . وتحدث كذلك عن تجارة الصين الداخلية وموانيها والصادرات التى تغادرها . كما تحدث عن العملة الورقية المستعملة فى بلاد الصين . وأشار الى النزل والفنادق المعدة لايواء المسافرين والعمل على راحتهم من مشاق الطريق . ولعل أهم مافى تلك الصورة التى زودنا بها ماركو بولو هى الملامح البارزة لتلك الامبراطورية القائمة فى الشرق الاقصى الزاخرة بالثروة والتجارة وأشار فى مذكراته أيضا الى ابيه وعمه وكيف كانا ينتقلان فى أنحاء الامبراطورية نمالاء ثروتهما بالتجارة وجمع الجواهر والحلى الثمينة النادرة .

ولم ينسى ماركو سيده قوبيـلاى حاكم الصين ، اذ خصـه فى مذكراته بكثير من عبارات المدح والثناء • ومما يؤسف له أنه لم يمدنا فى كتابه بمعلومات كافية تكشف عن حياته الخاصة خلال السنوات الطويلة التى أمضاها فى بلاد الصين • ومع ذلك فتمتاز المـلاحظات والمعلومات الكثيرة التى زودنا بها بدقتها وقيمتها التى لا تنكر ، وخاصة فيما يتعلق بتلك التى شاهدها بنفسه • وتؤيد صحة ملاحظاته ورواياته الاكتشافات الحديثة فى هذا الميدان •

هكذا عاش آل بولو الثلاثة مدة ١٧ سنة فى خدمة قوبيلاى خان فى بلاد الصين • واستغرقت رحلة العودة الى وطنهم أكثر من ثلاث سنوات • ففى أوائل سنـة ١٢٩٢ أبحروا من مينـاء زينون ومروا بسومطره وسيلان وجنوب الهند ومنها الى بلاد فارس حيث بلغهم نبأ وفاة قوبيلاى خان • وقد وقع هذا النبأ على رؤوسهم وقع الصاعقة • فابحروا عن طريق تبريز وطرابزون الى القسطنطينية ومنها الى مدينة البندقية التى وصلوها فى نهاية سنة ١٢٩٥ بعد رحلة مثيرة ممتعة ألقت الأضواء على تجارة الشرق الأقصى والطرق التجارية فى العصور الـوسطى •

ولقد كان استقبال البنادقة لآل بولو عجيبا حقا اذ لم يعرفهـم أحد وأوصدت الأبواب فى وجوههم ، ولم يقتنع أقرباؤهم ومواطنوهم بأنهم هم الأشخاص الثلاثة من آل بولو الذين ظنهم الناس قد ماتوا منذ سنين طويلة • ولكن عندما شقوا أمامهم ثيابهم الخشنة الغليظة فتدفقت منها كميات هائلة من الياقوت والزمرد والأحجار الكريمـة والعقيق والماس تعرف عليهم الجميـع • وقد أثار ذلك دهشـة القوم وتعجبهم • وهكذا بعد أن كانوا يشكون فيهم ، أخذوا يستقبلونهم بما هم جديرون به من حفاوة وتكريم • وكان مما جلبه ماركو معه من بلاد

الصين الكثير من الحبوب التى لم يكن الغرب يعرفها من قبل ، وحاول زراعتها ولكنها لم تنم لبرودة الجو فى اوروبا :

ومما لا جدال فيه أن المعرفة التي جلبها ماركو بولو الى اوروبا كانت لها أهميتها البالغة • اذ ظل الاتصال بين الشرق الاقصى والغرب اللاتينى بعد ذلك مستمرا • فقد سافر التجار والمبشرون بالبر والبحر متجهين شرقا الى الصين • ومن هؤلاء يوحنا اوف مونت كورفينــو واودوريك اوف بردينون السالف الاشارة اليه ويوحنا المارينولى • كما زار كثير من تجار البندقية تلك البلاد النائية • واستمر الحال هكذا طيلة القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر • ولكن فى منتصف القرن الرابع عشر حدثت تطورات جعلت طريق التجارة الطويلة بين الغرب والشرق الاقصى غير آمنة مثلما كان الحال من قبل • وذلك عندما اعتنق المغول الدين الاسلامى وأخفقت البعثات التبشيرية البابوية فى مهمتها فى اكتساب المغول الى الدين المسيحى على المذهب الرومانى الكاثوليكى • كما أخفق الغرب فى تكوين كتلة متماسكة لاتينية مغولية ضد العرب والاسلام •

وكيفما كان الأمر ، ففى أثناء غيبة آل بولو فى الشرق الأقصى كانت البندقية لاتزال تمارس سيادتها البحرية والتجارية التى اشتهرت بها طيلة العصر الوسيط • ولكن المنافسة القديمة بينها وبين جنوه لم تنته قط ، بل ازدادت حدتها • ولم يكن النصر دائما حليف البندقية فى هذه المنافسة • فبعد عودة آل بولو بثلاث سنوات ، أى فى سنــة ١٢٩٨ وقعت معركة بحرية فى البحر الأدرياتى بين جنوه والبندقية لقي فيها الأسطول البندقى هزيمة شديدة •

الموضوع السـابع عشر

الأدب في العصور الوسطى الأوروبية

تدهور اللغة والآداب فى بداية العصر الوسيط :

لقد شمل الضعف الذى أصاب الامبراطورية الرومانية فى القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخها كافة مظاهر الحياة فيها . فلم يقتصر الأمر على النواحى الادارية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية ، وانما شمل ايضا اللغة والاداب . اذ انحطت اللغة اللاتينية وتدهور الأدب الكلاسيكى القديم . وهنا يجب أن ننظر بعين الاعتبار الى الاحداث الخطيرة التى ألمت بالعالم الرومانى ، وأدت فى نهاية الأمر الى زواله ونعنى بذلك غزوات الجرمان البرابرة التى قضت على جسم الامبراطورية الهش المتداعى فى أواخر القرن الخامس ، والديانة المسيحية الجديدة التى حلت محل الوثنية وعبادة الامبراطور . فهذا التطور الخطير الذى مرت به اوروبا فى أخريات التاريخ القديم وبداية الوسيط ، يلقى ضوءا على تلك التغييرات الهامة التى طرأت على اللغة اللاتينية والأدب الكلاسيكى وقتذاك . لقد كان المجتمع فى الامبراطورية الرومانية فى طور احتضارها ، فى الواقع ، مجتمعا جامدا لاحياة ولا حراك فيه . وتدهورت نتيجة لذلك الأصالة فى اللغة والأدب ، بل وفى كافة مظاهر الحضارة .

ولا جدال أن المسيحية قد أثرت على اللغة اللاتينية القديمة ، وذلك باستحداث الفاظ وكلمات وتعبيرات لم تكن معروفة من قبل ، حتى تتمشى مع الآراء والأفكار التى نادت بها تلك الديانة الجديدة . هذا فضلا عن الكلمات التى هى من أصل يونانى ، والألفاظ العامية والدارجة التى أدخلت على اللغة الفصحى . ويمكن التأكد من ذلك بالمقارنة بين اللغة اللاتينية القديمة الفصحى النقية من كل الشوائب كما كتبها أناس مثل شيشرون وفرجيل واوفيد وساتيوس وقيصر . وبين اللغة اللاتينية الجديدة التى استخدمها الآباء الأول فى العصر

المسيحي الأول منذ الاب ترتوليان (١٦٥ ـ ٢٣٠) فصاعدا • وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن البلاغة التي تميز بها الاسلوب اللاتيني القديم قد انتهت ليحل محلها عصر جديد لم يهتم فيه الناس باختيار اللفظ المناسب مع الاهتمام بانسجام العبارات واتزان الجمل • ولـم يعد الكاتب في فجر العصور الوسطى يعني بقواعد النحو في اللغةاللاتينية في كتاباته •مثال ذلك أن كل كلمة في اللاتينية الكلاسيكية فان لها مكانها الخاص في الجملة • فالجملة تبدأ بالفاعل وتختتم بالفعل • ولكن كتاب العصر المسيحي الاول لم يراعوا هذه القواعد بالمرة • وبهذا أضروا اللغة اللاتينية ضررا كبيرا ، حتى اذا ماحل القرن الثالث كانت هناك لغة لاتينية جديدة تختلف اختلافا بيناعن اللاتينية الكلاسيكية ،ونعنىبها اللاتينية العامة LINGUA RUSTIC والدارجة LINGUA VULGARIS LINGUA أو الشعبية LINGU PLEBE وهي التي اشتقت منها فيما بعد اللغات الرومانتيكية او الرومانسية في اوروبا ، أي اللغات التي هي من اصل روماني لاتيني كالفرنسية والاسبانية والايطالية •

واذا كانت المسيحية قد أثرت في اللاتينية الكلاسيكية ، فقد أثرت فيها ايضا الغزوات الجرمانية • ويتضح هذا من الالفاظ الداخلية على اللاتينية والتي هي من أصل جرماني ، وذلك عندما أحتل الفرنجة بلاد الغال والقوط الغربيون أسبانيا واللمبارديون ايطاليا •

وإذا كانت اللغة والاداب قد تدهورت نتيجة التطورات التي طرأت على اوروبا في آخريات التاريخ القديم ، فقد تدهور كذلك مستوى الخط والكتابة في المخطوطات والوثائق الحكومية بسبب تفشي الجهل • ووقع الكتاب في العديد من الاخطاء اللغوية والنحوية • ويكاد يكون من المتعذر قراءة المخطوطات التي وضعت في العصر المسيحي الاول ، لاختلاط طلاسمها ورموزها لرداءة خطها وفساده • وآية ذلك الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التي وضعت في ذلك العصر • وهكذا نرى أن اللاتينية

التى كانت فى وقت ما هى لغة العلم والتعليم لدى كافة الشعوب الغربية المثقفة ، فقد دب فيها الخلل والفساد بسبب الظروف الجديدة التى طرأت على العالم وقتذاك ، وأن كانت قد بقيت بفضل كتب الخدمة الدينية فى الكنيسة الرومانية ، وبفضل بعض المجموعات من الكتب القديمة التى حفظها لنا الزمن من الضياع اثناء غزوات البرابرة داخل الأديرة والكنائس ٠

اذن صاحب العصور الوسطى أدب لاتينى جديد يختلف عما كان معروفا من قبل ٠ ومن الذين أرسوا قواعد هذا الأدب الجديد القديس جيروم JEROME والقديس اوجسطين ٠ وقد ولد أولهما سنة ٣٤٦ وتوفى فى ٤٢٠ وله من العمر ٧٥ سنة ٠ وعاش متنسكا داخل صومعته فى فلسطين ٠ وله مؤلفات عديدة منها ترجمته لحياة الرهبان المصريين وانظمتهم الى اللغة اللاتينية وكذلك ترجمته اللاتينية للانجيل ، والتى أصبحت النسخة اللاتينية المتعددة المعترف بها فى العالم والتى حلت محل النص الاصلى القديم ٠ والواقع ان هذه الترجمة قد اثرت فى تفكير العصر الوسيط بقدر ما اثرت شكليا فى أدبه ٠ والدليل على ذلك أن علم اللاهوت وكل مايتعلق بشئون الكنيسة والقوانين والتشريعات والتاريخ أيضا ، قد تأثرت كلها بهذه الترجمة اللاتينية للانجيل ٠ فضريبة العشور مثلا التى سادت فى العصور الوسطى مأخوذة عن الكتاب المقدس ٠ كما أن الملكيات التى اقامها الجرمان البرابرة فى الغرب الاوروبى على انقاض الامبراطورية الرومانية القديمة ، هى الاخرى مأخوذة مبادئها مما ورد من نصوص فى العهد القديم ٠

هذا عن جيروم وأثره أما القديس او جسطين أوف هيبو ST: AUGUSTINE OF HIPPO فقد ولد سنة ٣٥٣ وتوفى ٤٣٠ عن ٧٧ سنه وكان قبل اعتناقه المسيحية مدرسا لعلم البيان فى ايطاليا ٠ كما كان على دراية كبيرة بآداب اللاتين القدامى والمناقشات الفلسفية

والأدبية واللاهوتية فى عصره ، وقرأ الكثير عن ادب الاغريق وفلسفتهم فى التراجم اللاتينية وله مؤلفات عديدة اهمها بلاشك كتابه المشهور الذى وضعه باللاتينية تحت اسم «مدينة الله » "DE CIVITATE DEI" وقد بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ ، وتحدث فيه عن فلسفة المسيحية ، وضمنه الكثير من الحجج والاسانيد التى يبرر بها تفوق مدينة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينة الانسان ، أى الدولة وعلى رأسها الامبراطور • ويعتبر بعض الكتاب الكتاب المذكور لاهوت أكثر منه تاريخ وفلسفة • ومع ذلك فما لاشك فيه أن أوجسطين قد وضع فى كتابه هذا فلسفة سياسية لأوروبا فى العصور الوسطى • وظلت هذه السياسة قائمة حتى القرن الثالث عشر ، وكان البابوات يعتمدون عليها فى تعزيز سلطانهم على القوى العلمانية فى الغرب • وتتلخص هذه الفلسفة فى أن الكنيسة اللاتينية من عمل الله فى حين ان الدولة من عمل الانسان • ويخرج منها أى سلطة البابا ، وهو الحاكم الدينى وممثل الله على الارض ورأس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ، تفوق سلطة منافسة الامبراطور وهو الحاكم الزمنى • على هذا فلا بد من خضوع الدولة للكنيسة وخضوع الامبراطور وغيره من الحكام الزمنيين للبابا • وسنتناول هذه الفلسفة بشىء من التفصيل عند التعرض للنظريات السياسية التى اثيرت حول الكفاح بين البابا والامبراطور خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط وفضلا عن « مدينة الله » فقد وضع اوجسطين كتابا اسمه « الاعتراف » Confessions الذى يعتبر — على حد قول المؤرخ جورج جوردون كولتون — أول ترجمة يدونها شخص عن نفسه فى تاريخ الادب قاطبة وتتسم هذه الترجمة بالزهد والتقوى فى قالب فلسفى• وله كذلك القوانين المعروفة باسم « القوانين الأوجسطينية » AUGUSTINIAN CANONS •

وكان لمؤلفاته وجهوده الآدبية هو غيره من القديسين اثارها الواضحه في سرعة انتشار الرهبنة في اوروبا في القرن الخامس ٠

وفي هذا الادب الجديد من مؤلفات آباء الكنيسة الأول امتزجت الوثنية القديمة بالمسيحية الجديدة ، واختلط الدين بالدنيا ، وتشابك العالم القديم وهو عالم الامبراطورية الرومانية بالعالم الجديد وهو العالم الذى تميز بغزوات البرابرة والديانة المسيحية ٠ وانتج هذا كله حضارة جديدة لها طابعها الخاص بها ، تلك الحضارة التى ميزت العصور الوسطى المبكرة والتى يطلق عليها المؤرخون الفرنسيون اسم « العصور المظلمــــة » ٠

هذا عن اللغة والكتابة فى الأدب اللاتينى الجديد ٠ واذا انتقلنا الى الشعر المسيحى فنجد أنه هو الاخر تخلى عن المقاييس الكلاسيكية القديمة ، واصبح يعتمد على اوزان ايقاعية مما ساعد على انتشار وذيوع الترانيم والتراتيل والأناشيد الدينية ٠ وبالتالى سرعة انتشار المسيحية نفسها فى الغرب ٠ ومن شعراء العصر المسيحى المبكر يجب أن نذكر الشاعر كوموديـــان COMMODIAN الــذى عاش حوالى منتصف القرن الثالث ، والقديس امبروز ST: AMBROSE الذى كان أسقفا على مدينة ميلان فى عهد الامبراطور فالنتيان الثـــانى (٣٧٤ ـ ٣٩٧) ٠ وقـــد اشتهر هذا القديس بترانيمه الدينية ٠ وله ثلاث ترانيم مشهورة باللغة اللاتينية يحتمل انه وضعها فى الوقت الذى عمد فيه أوجسطين ، أى فى عيد القيامة لسنة ٣٨٧ وهى ٠

(١) تسبيحة المساء ومطلعها DEUS CREATOR OMNIUM
(٢) تسبيحة الصباح ومستهلها AETERNE RERUM CONDITOR
(٣) ترنيمة عيد الميلاد وبدايتها VENI REDEMPTOR GENTUM

وهناك ايضا الشاعر الاسبانى برودنتيوس PRUDENTIUS الذى ، عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع (٣٤٨ ـ ٤٠٥) ، ويمتاز بأشعاره الدينية التى كانت تبعث على الامل وتحث على التواضع والبعد

عن العظمة والكبرياء • وكذلك القديس باولينوس اوف نولا ST: PAULINUS OF NOLA بجنوب ايطاليا (٣٥٣ _ ٤٣١) وقد ساعدت اشعاره على تثبيت دعائم المسيحية فى وجه الحكام الرومان المضطهد لها وفى وجه الديانة الوثنية القديمة •

ولكن هذا لايعنى أن جميع الشعر الذى نظمه شعراء المسيحية الاول كان دينيا بحتا • وقد وجد كثير من الشعراء المسيحيين ، وبخاصة فى القرن الرابع والخامس والسادس ، ظلوا وثنيين فى تفكيرهـــم . بالرغم من اعتناقهم الدين الجديد وجميع هؤلاء الشعراء كانوا غالبـــا من الفرنجة • نذكرمنهم الشاعر اوزونيوس AUSONIUS (٣١٠ _ ٣٩٥) الذى عاش فى القرن الرابع ، وسيدوريوس ابوليناريس SIDONIUS APOLLINARIS اسقف كيرمون الذى عــاش فى القرن الخامس • اذ تبدو الاتجاهات والتقاليد الوثنية واضحةفىأشعارهام

وفى هذا الصدد يجب أن نشير ايضا الى أحد شعراء العصــــر الميروفنجى وهو الشــــاعر فورتوناتوس FORTUNATUS (٥٣٠ _ ٦٠٣) وقد كتب الشعر فى مواضيع عديدة متنوعة يتضح فيها الذوق الكلاسيكى او الاسلوب الذى اتبعه شعراء عصر النهضة فيما بعـــد ، اكثر مما كان معروفا فى العصور المظلمة • ومن افضل ما خلف لنــــا تلك الاشعار التى وجهها الى عدد من أصدقائه . وتظهر فيها نــواحى البطولة فى قالب من السخرية • مثال ذلك القصيدة التى كتبهـــا عن صديق له يدعى جوجو GOGO •وفيها يقول :

"WHAT IS GOGO DOING ? IS HE WATCHING THE SAIM-ONETS OF RHINE OR WALKING BY THE MOSELLE OR HUNTING THE BUFFLO IN THE FOREST OF ARDEN? CLOUDS AND WINDS BE MESSENGER S BETWEEN GOGO AND HIS FORTUNATUS"

وترجمتها : ماذا يفعل جوجو ؟ أيرقب شباك سمك السمالمون فى نهر الراين ؟ أم يسير وقد انتشى من الخمر ؟ أم يصطاد الجاموس من الغابات؟ لتكن السحب والريح رسلا بين جوجو وصديقه فورتوناتوس ·

وفى نغمة اكثر جدية وصراحة يكتب الشاعر الى صديقه لوبوس LUPUS دوق شامانيا · فيذكر كيف انه يحس بالراحة والطمأنينة لافكار صديقه النبيل والتى هى أشبه ما تكون بالظل والماء الرطيب بالنسبة لانسان مجهد من مشاق الطريق تحت وهج الشمس المحرقة · ثم يأخذ قسطا من الراحة ، ويتذكر شاعره الذى يعرفه جيدا ، وقد يكون هومير HOMER أو فرجيل VIRGIL أو اوفيد OVID · ويمتدحفورتوناتوس الدوق لوبوس فى قصيدة اخرى معددا انتصاراته العسكرية ، نذكر منها هــذين البيتين :

"FFRRATAE TUNICAE SUDASTI PONDERE VICTOR ET SUB PULVEREA UNBE CORUSCUS ERAS,"

ولعل الشخص الذى يرتبط اسمه باسم فورتوناتوس وأشعاره هو القديسة راد يجونـد ST. RADEGUND ولا تمثـل الاشعار التى تتحدث عن الصداقة بين الاثنين الجانب الاكبر من اعمال فورتوناتوس ولا كذلك افضل ماخلف لنا · ومع ذلك فلها قيمتها التى لاتنكر ·ولانجد فى أعمال فورتوناتوس التى خلفها لها سوى القليل عن تاريخ الفرنجة ·

والمتتبع لاعمال هذا الشاعر يدرك انه كان ينهج فى قرضه للشعر تقليدا قديما · اذ كان يعتبر الشعر اللاتينى أفضل اشكال علم الصياغة والبيان · وكان يستخدمه باعتباره من الوســائل الهامة لمعالجة أى موضوع ، وبخاصة الموضوعات الدينية · ويعتبر فورتوناتوس صورة من الشاعر سيدوليوس ابوليناريس ·

هذا عن الشعر فى العصر المسيحى المبكر • وأما عن النثر وقتذاك فقد ظهر عدد من الكتاب الذين تنـاولوا شتى الموضوعـات فى تأليفهم وكتاباتهم ومن هؤلاء سولبيكيوس سفيروس وجريجورى التورى •

ويعتبر سولبيكيوس سفيروس SULPICIUS SEVERUS (٤٠٠م) من الكتاب البارزين • كان من رجال القانون ، وتشبع بروح الرهبانية، ووضع مؤلفا عن حياة القديس مارتين التورى • الذى كان من معاصريه وكان له اكبر الاثر فى انتشار الديرية فى الغرب الاوروبى ، الى جانب مؤلفات غيره من امثال القديس اوجسطين اوف هيبو والقديس جيروم ويلاحظ أن قواعد النحو لم تكن تراعى فى تلك الفترة فى الكتابـــة النثرية • كما كانت الاخطاء اللغويــة شائعة ، واهملت دراسة كـــل ما يتعلق بالوثنية القديمة • ونلمس ذلك مما قاله سفيروس نفســـه عندما تسائل : « هل تشفع اجروميــة اللغــة اللاتينية لخلاص الروح الخالدة ؟ » وينص قوله :

“WILL THE LAIN GRAMER SAVE IMMORTAL SOUL ?

ومن تساؤله أيضا :

“QUID POSTERITAS EMOLUMENTI TUL IT LEGENDO HECTOREM PUGNANTEM AUT SOCRATEM PHILOSOPHANTEM“

وترجمتهـــا بالانجليزية :

“WHAT PROFIT IS THERE IN THE RECORD OF PAGAN GODS OR PAGAN SAGES, THE LABOURS OF HERCULES OR OF SOCRATES:

« ما الفائده التى نجنيها من الكتابة عن الآلهة الوثنيين أو الفلاسفه الوثنيين ، أو أعمال هرقل أو سقراط ؟ وهذا يعنى بكلمة مختصرة نبذ كل ما يتعلق بالوثنية القديمة باعتبار انها تتعارض مع ما كانت تنادى به المسيحية ٠

والى جانب سوليكيوس سفيروس يجب أن نذكر جريجورى التورى (٥٩٤) GREGORY OF TOURS الذى عاش فى القرن السادس والذى يمثل العصور الوسطى خير تمثيل ٠ فلا نجد فى كتابته اى أثر للتقاليد الكلاسيكية والوثنية القديمة ، ويلاحظ أيضا انه لم يوجه العناية الكافية الى قواعد اللغة اللاتينية فى كتاباته ٠ وقد وضع مؤلفا عن الفرنجة يعتبر المصدر الاساسى عن تاريخ غالة فى ذلك العصر ٠ ويبدأ المؤلف بالشكوى من تدهور العلم ٠ ولكنه يتدارك فيقول ان انحطاط الدراسات لا يجب أن يؤدى الى اهمال التاريخ ٠ وكان جريجورى يهدف الى تسحيل الاحداث وبخاصة تلك التى وقعت فى عصره ٠ ولم يعن باللغة نفسها او ابراز نواحى الجمال فيها ، وانما اهتم بالاشخاص والاحداث وكان يهمه كذلك أن يجد المستمع الذى يفهم اسلوبه ٠ وينص قوله :

" PHILOSOPHANTE RHETOREM INTELLEGUNT PAUCI, LOQUENTEM RUSTICUM MULTI."

لذا نراه يستخدم فى تاريخة الأسلوب اللاتينى الدارج السهل ٠ وقد كان بوسعه أن يكتب بأسلوب لاتينى اكثر نقاء وصفاء ، ولكنه فضل اختيار اللغة التى يفهمها عامة الناس الذين يكتب لهم ٠

وعلى أية حال ، يستمر تاريخ جريجورى حتى سنة ٥٩١ ٠ وهو يقع فى عشرة كتب ٠ وتبدأ ذكرياته الخاصة بالكتاب الرابع ٠ وكان جريجورى اسقفا على مدينة تورز ، وهى مدينة القدس مارتين ST. MARTIN

والممثل الرسمى للكنيسة الفرنسية • ولذا كان من الطبيعى أن يصر على مطالب كنيسته ضد معارضيها • وتدل مذكراته التى خلفهـــا لنا على الدور الكبير الذى لعبه فى تاريخ بـــلاده • وكان فى نفس الوقت يوجه عناية كبيرة الى مايتعلق بالمعجزات والمغامرات كما كان يتمتـــع بقدرة كبيرة على التخيل وسرد القصص ، وخصوصا ما يتصل بالفترة السابقة لعصره بالاضافة الى تجاربه الخاصة • وفضلا عما تقدم ، يعتبر جريجورى التورى من المؤلفين القلائل الذين باستطاعتهم رسم صورةحية واضحة للموضوع الذى يكتبون عنه • وبالرغم من عدم تقيده بقواعد النحو وأجرومية اللغة وبالرغم من اسلوبه اللاتينى العادى ، وبالرغم من أن الكثيرين غيره ممن كتاب الحوليات استخدموا فى تأليفهم اسلوبا يفضل بكثير ذلك الذى استخدمه جريجورى ــ بالرغم من كل ذلك فقد نجح جريجورى التـــورى بتلك الامكانيـــات التى تحت يده والمواهب البسيطة التى كان يتمتع بها ، فى حين فشل كثير من كبار الكتاب • ويكشف مؤلف جريجورى عن المواهب والقدرات التى كان يتمتع بها فى هذه الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط •

لقد كان جريجورى التورى صديقا للشاعر فنانتيوس فورتوناتوس وكثيرا ما تردد اسم كل منهما فى كتابات الاخر • وكان جريجورى حاضرا جنازة القديسة راديجوند **RADEGUND** ، ويتضح مما كتب عنها مدى اخلاصه لها وتقديره لتدينها وقداستها ، مما لا يقل عما دونه عنها صديقها الشاعر •

واذا كان من حسن حظ غالة انه وجد فيها فى القرن الخامس كتاب مشهورون ، فقد كان من سوء حظ ايطاليا انها لم تنجب وقتذاك كتابا مرموقين سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين • ولعل حالة الفوضى والاضطراب التى سادت ايطاليا وقتذاك بسبب غزوات البرابـــرة ،

كان لها اثرها فى تدهور الانتاج الادبى • ولكن باستقرار الاحوال فى شبه الجزيرة فى القرن السادس ، اخرجت لنا عددا من الكتاب البارزين ولعل من اشهرهم الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٠ ـ ٥٢٥) BOETHIUS وهو احد المفكرين الذين نهجوا نهج القديس أوجسطين اوف هيبو • ويعتبر من اشهر الادباء ليس فى ايطاليا وحدها فحسب ، وانما فى الغرب المسيحى كلـه • اذ اجتمعت فيـه خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية مع فلسفة المسيحية ومبادئها • وهو من اسرة رومانية عريقة • ذهب وهو صبى الى اثينا حيث درس بها الادب والفلسفة وفى سنة ٥١٠ أصبـح وزيرا لثيودوريـك ملك القوط الشرقيين فى ايطاليا • ثم الصقت به زورا بعض التهم ، ومنها التآمر على مليكـه وممارسة اعمال السحر والشعوذة • فزج به ظلما فى السـجن دون أن تتاح له الفرصة للدفاع عن نفسه وقاسى شتى ألوان العذاب ، ثم أعدم آخر الأمـر •

وقد حاول بيوثيوس ان يرسى أسس الديانة المسيحية ويضـع قواعدها كما فعل آباء الكنيسـة الاول • كذلك عمـل على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة ، تلك المحاولة التى تعد فى الواقع مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة التى انتهت فى أوائل القرن السادس وبين فلسفة العصور الوسطى الواقعة بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر أو الخامس عشر • ومن الخدمات التى قدمها بيوثيوس الى الفكر الغربى ترجمته لمنطق ارسطو إلى اللاتينية • اذ حفظ لنا جانبا كبيرا من تراث هذا الفيلسوف اليونانى فى كتاباته • ولكن أعظم ماخلفه لنا هو مؤلفه المعروف باسم « سلوى بيوثيوس الفلسفية » أو « عزاء الفلسفة » CONSOLATION OF PHILOSOPHY الذى وضعه وهو فى السجن فى بافيا ، والذى ترجم فيه لنفسه • وهو لهذا يشبه اعترافات القديس أوجسطين إلى حد بعيد •

ولكتاب « سلوى الفلسفة » مكانته فى أدب العصور الوسطى ·
ويقول و· ب كير W. P. KTR فى مؤلفه « العصور المظلمة » أننا اذا اردنا تقييمه فيمكن ان نضعه فى المرتبة الثانية · فهو من نوع الكتب التي يعوزها الخلق والابتكار والتجديد ، ومن نوع الكتب التى يعتمد فيها مؤلفه على غيره وان هذا الكتاب الذى وضع بعضه شعرا وبعضه نثرا عبارة عن حوار الفلسفة التى تبدو لبيوثيوس فى صورة أمرأة اسمها فيلسوفيا وبين المؤلف السجين فيما تثيره الحياة فى نفسه من مسائل ومشاكل كالعذاب الذى يعانيه الشخص الصالح ويعنى بذلك عذابه هو نفسه فى السجن ، ثم العناية الآلهية والخير الأعظم وقد خلص المؤلف من ذلك ان الحياة الدنيا التى يجنازها الانسان لاتوفر له السعادة بل هى مبعث شقاء له ، وان اللـه هو الخير الاعظم الاعم والسعادة يلتمسها الناس عنده وان الالام التى يعانيها البشر هى امتحان للصالحين وعقاب للاشرار · والى جانب ذلك تناول بيوثيوس مسألة القدرة والارادة الحرة والجرى وراء الشهرة ·

ومن اقواله التى تمتاز بأصالتها وقيمتها :

"NAM IN OMNI ADVERSITAE FORTUNAE INFELICISSIMUN
EST GENUS INFORTUNII FUISSE FELICEM
"THOUGH THE DESIRE OF FAME BE THT LAST WEKNESS
WISE MEN PUT OFF, "

وهى بالعربية « يتجنب الحكماء شهوة الشهرة ، بالرغم من انها اخر مراتب الضعف والعجز » ·

ونجد فى الكتاب محاولة تفسير الدين بالفلسفة واقامة الايمان على أساس
ومن هنا نرى أن كتاب « سلوى الفلسفة » يدور حول هذا السؤال ·
« كيف يلتمس بيوثيوس العزاء عند الفلسفة ولا يلتمسه عند دينه ؟ »
ونجد فى الكتاب محاولة تفسير الدين بالفلسفة واقامة الايمان على أساس

عقلى · وقد فهم مفكروا العصر الوسيط الكتاب على هذا الوجه ، ولم يثيروا اعتراضا بشأنه · ويكفى لبيان اهميته أن الشاعر دانتى اقتبس الكثير من عباراته عندما تعرض لمقابلة التى تمت بينه وبين حبيبتـــه فرنشسكا · كما اخذ عنه مرة ثانية فى العبارة الختامية لفردوسه · كذلك ورد فى احدى رسائل سير لابوماتزى SER LABO MAZZEI وهو كاتب عقود فلورنسى من اواخر القرن الرابع عشر ، عندما اشار الى « سلوى الفلسفة » انه كتاب يتناول فلسفة رفيعة ·

وعلى ذلك يرى بيوثيوس ضرورة التدييز بين الفلسفة والدين ، والاستعانة بالأولى على توضيح الثانى · ويظهر اثر الفلسفة واضحـا فى جميع كتبه اللاهوتية ، حيث يدخل على العقيدة الكثير من المعانى الفلسفية · ومما يذكر أن بيوثيوس خلف لنا عـددا كبيرا من الكتب المؤلفة والمترجمة · كما ترجم بعض كتب أرسطو الى اللاتينية ، ولـه شروح عليها · وله أيضا شرح على كتاب الجدل لشيشرون · ومن تآليفه الخاصة كتاب فى القسمة ، وآخـــر فى الجدل · فضلا عن الكثـير من الكتب اللاهوتية والرياضية والموسيقية ·

والى جانب من سلف الاشارة اليهم ، يوجد كاتب من طراز اخر هو كاسيودوروس CASSIODORUS وزير ثيودوريك القوطى الشرقى · ولد حوالى سنة ٤٨٠ وتوفى سنة ٥٧٥ · وتكشف رسائله الرسمية التى كان يبعث بها الى من كانت تربطه بهم صلات الصداقة ، عن احوال ايطاليا من الناحيتين السياسية والحضارية ايام القوط الشرقيين · وقد قام كاسيودوروس نفسه بنشر تلك الرسائل وهى باللاتينية تحت اسم «متنوعات» VARIAE وذلك بعد وفاة ثيودوريك بحوالى ١٢ سنة · ووضع كاسيودوروس ايضا كتابا عن تاريخ ايطاليا فقد ولم يصلنا · ولو كان قد حفظه لنا الزمن الضياع ، لربما امدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ ايطاليا فى القرن السادس · هذا وقد وضع المـؤرخ جوردانيس JORDANES مختصرا للكتاب المذكور · وتنحصر قيمة

كاسيودوروس فى محاولته اثبات أهمية العلوم الدنيوية وفائدتها •

وكان كاسيودوروس من المهتمين بالحركة الديرية • اذ اسس ديرا فى أواخر ايامه منحه مكتبته الخاصـــة • وكان من المشجعين للأديرة على المحافظة على التراث الكلاسيكى القديم والعمل على تأليف كتب جديدة • وكان لهذا آثاره التى لا تنكر فى مجال التأليف والمحافظة على القـــديم •

وفى هذا المجال ايضا يجب أن نشير الى كاتب آخر هو جوردانيس الذى حفظ لنا فى مختصره مادة كتاب كاسيودوروس المفقود كمـــا ألف جوردانيس نفسه كتابا باسم « تاريخ القوط » وترجع اهميـــة جوردانيس أنه اول كاتب جرمانى يصلنا انتاجه فى هذا الوقت المبكر• وقد امتاز اسلوبه اللاتينى بالضعف والخشونة فى وقت تدهورت فيه اللغة اللاتينية تدهورا واضحا • وكان هو أيضا اول من أدخل الاساطير والقصص الخرافية الجرمانية فى الأدب الغربى • ومن مؤلفاته ايضا كتاب عن « تاريخ العالم » ولكن مؤلفه عن القوط هو الذى اكسبه شهرة واسعة ، ولو أن فى ذلك شيء من الغبن بالنسبة لكـاسيودوروس • ويعتبر جوردانيس أكثر من ناسخ اذ سرد الاحداث بطريقته الخاصة • وله مكانته التى لا تنكر بين الكتاب المعاصرين له الذين دونوا نشـر احداث تلك الفترة • ويلاحظ ان الشخصية الرئيسية التى دارت حولها الاحداث التى دونها جوردانيس لم تكن بطلا قوطيا حسبما كان متوقعا وانما اتيلا الهونى الذى استقى تاريخ حياتـه ATTILA THE HUN من مؤلف بريسكوس PRISCUS مع شيء من الافاضة والاسهاب .

هذا عن كتاب وشعراء ايطاليا فى القرون الاولى من التاريخ الوسيط اما اسبانيا فقد ظهر فيها الشاعر برودنت PRUDENT والكاتب اروزيوس OROSIUS • وكان الأخير تلميذا للقديس اوجسطين ووضع كتابا عنوانه « سبع رسائل تاريخيـــة للرد على الوثنيين » • واستشهد فيه بأمثله من التاريخ توضح أن متاعب البشرية وسقوط

الامبراطوريات ليست أمرا جديدا • وانه ليس من الانصاف أن يرجع المعاصرون المحن التى حلت بأوروبا وقتئذ الى الديانة المسيحية الجديدة• وقد نال الكتاب المذكور شهرة واسعة فى العصور الوسطى ، بالرغم من انه لا يعتبر تاريخا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، الا فى الجزء الاخير منه الذى ينتهى بأحداث سنة ٤١٧ • اذ عالج فيه الوقائع التى عـــاصرها •

ويتمتع اروزيوس ، فضلا عما تقدم ، بمكانة خاصة فى ميدان تدوين التاريخ الوسيط ، تشبه الى حد ما تلك المكانة التى يتمتـــع بها بيوثيوس فى ميدان الفلسفة • ويعتبر تاريخه المختصر عن العالم مقدمة لعمل القرون التالية فى هذا الميدان • وبينما اعتبر كل من الملك الفريد الانجلوسكسونى والشـاعر دانتى اليجبيرى كلا من بيوثيوس وأروزيوس كمصادر ثقة فلا شك أن قيمة المؤرخ تقل بكثير عن قيمة زميله الفيلسوف • ويعدد و• ب كير W. P. KER فى مؤلفه « **العصور المظلمة** » الاسباب التى تجعل بيوثيوس يتفوق على أروزيوس •

نخلص مما تقدم ذكره انه اصاب الادب واللغة اللاتينية والتراث الكلاسيكى القديم ، الكثير من التدهور والانحلال فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس بسبب حالة الفوضى والاضطراب التى ألمت بالغرب أثر غزوات البرابرة والديانة المسيحية التى حلت محـل الوثنية القديمة وعبادة الامبراطور • وقد اعترف الكتاب اللاتين امثال جريجورى التورى بذلك • وكان البابا جريجورى الكبير • (٥٩٠ — ٦٠٤) من ألد اعداء الأدب الرومانى لما فيه من عناصر وثنية نبذتهـــا المسيحية ونعرف أنه اعتزل الحياة الدنيا واعتنق مبادىء الرهبنة ، واشتهر بالتقشف والتقوى والتدين والبعد عن ملذات الحياة • وأسس عددا من الأديرة • كما كان رجلا حازما ، عالما مثقفا ، يتمتع بمقدرة سياسية وادارية هائلة • وامتاز بنشاطه الفـــائق فى ميدان التبشير

بالدين الجديد بين اهل الغرب الاوروبى ـ وبخاصة بين الانجلو سكسون فى الجزيرة البريطانيـة ـ كـل هذا لم يشغلـه عن التعمق فى العلم والبحوث الفلسفية واللاهوتية ودراسة مؤلفات اباء الكنيسة الاول ، والكتابة بنفسه فى موضوعات كان لها خطرها وقتذاك · ومن المؤلفات التى خلفها لنا سلسلة من المواعظ الكبرى · وله ايضا شروح وتعليقات على أسفار الكتاب المقدس · فوضع كتابه المسمى THE DIALOGUES يتضمن تعليقات على سفر أيوب من العهد القديم ، وكذلك الاحاديث THE DIALOGUES وكتاب « العناية الربانية THE PASTORAL CARE وهو عبارة عن توجيهات وارشادات لرجال الدين · فضلا عن العظات THE HOMILIES كذلك كان جريجورى أول من سجل الحان الكنيسة · ولازالت مؤلفاته تقرأ وتدرس فى مدارس العلوم اللاهوتية الكاثوليكية الى وقتنا هذا · ولعله يتضح مما سبق أن البابا جريجورى الكبير يشتهر بعدائه الصريح للتراث الكلاسيكى وكل مايمت لـــه بصلة لما فيه من افكار لا تتمشى مع المبادىء والافكار المسيحية الجديدة وتكشف عن ذلك كتاباته التى كانت معروفة ومتداولة ويتدارسهـا الجميع فى العصور الوسطى ·

ننتقل من التعميم الى التخصيص ، فنذكر كلمة موجزة عن أهم مؤلفاته أن تعليقات جريجورى على سفر أيوب مكانتها فى الأدب الغربى الوسيط ،لتأكيدها الطريقة القديمة الخاصة بالتفسير المجازى · وهو من الكتب التى تحوى نتائج وخلاصة المصادر القديمة ، وتحـل محلها لتصبح المصدر الاساسى الذى يرجع اليه عوضا عن تلك المصـادر · وتعتبر هذه التعليقات انتاج واحد من اكبر رجال العلم فى العالم ·

واما كتابه « العناية الربانية » فهو افضل بكثير من تعليقاتـــه على سفر أيوب ، اذا قيمناه من وجهة النظر الادبية ، وذلك بالرغم مما يحويه من الكتابة والمجاز · ويكشف أسلوبه عن شخصيته عند معالجته لاحب الموضوعات الى نفسه · اذ تتضمن توجيهات ونصائح الى هيئـة

رجال الدين · فضلا عن نقده للحياة وتلخيصه للآداب والاخلاق · ويقال انه عندما اشتد المرض على جريجورى الكبير وأوشك على الموت ، طلب أن يقرأ له هذا الكتاب · وأعتقد الناس أن نفسه امتلأت بالطمأنينة والراحة وانه انتظر الموت بشجاعة تفوق تلك التى كان عليها من قبل ·

وتتمتع « محادثـات » جريجـورى بشعبيـة أكثر من مؤلفاتـه الاخرى · وقد ترجمت الى اللغة الانجلوسكسونيـة والى الفرنسيـة القديمة · وتتضمن سلسلة من القصص والاساطير عن حياة القديسين الذين يعيشون فى الصحارى والقفار ، وعن معجزاتهم · وقد لقيتـا الشيوع والرواج لانها كانت تمثل خير تمثيل عقلية الشعب فى المجتمع الغربى الوسيط وقتذاك · وقد خصص كتابـا كامـلا منها للقديس بندكت ، بينما احتوت الكتب الاخرى على معلومات مختلفة فيها من الاهمية بقدر ما فيها من المتعة والتسـلية · ولا يعتبر هذه المحادثات نوعا من التأمل والتفكير او العبادة ، وانما هى اقرب ماتكون الى التاريخ او تدوين للاحداث والذكريات · ويكشف جريجورى فى محادثاتـه عن احتقاره للادب اللاتينى · اذ قال فى مستهل تاريخة عن حياة القديس بندكت ما يلى :

"DESPECTIS ITAQUE LITTERARUM STUDIIS . . .
SANCTAE CONVERSATIONIS HABITUM QUAESIVIT."

واما « عظاته » فلها هى الاخرى شهرتها النى لا تنكر · وكانت مصدرا أساسيا للوعاظ فى العصور التالية يستمدون منها مادتهم ·

وهكذا بدأ نجم الأدب اللاتينى القديم والتراث الكلاسيكى بصفة عامة فى الافول فى الغرب الاوروبى ، حتى اذا كانت سنة ٥٢٩ نجد أنـه تحددت فيها شخصية ومعالم الادب الوسيط فى العصر المسيحى المبكر· ففى تلك السنة اغلق الامبراطور جستنيان مدارس أثينا الفلسفيـة القديمة ، كما اسس القديس بندكت ديره المعروف فى مونت كاسينو · ولهذا بطبيعة الحال دلالته ومغزاه ·

ولكن على الرغم من معاداة المسيحية الرومانية الكاثوليكية لكل مايمت الى الحضارة الرمانية والتراث الكلاسيكى القديم بصلة ، فلم تعدم تلك الحضارة وذلك التراث من ان يجد الانصار والمؤيدين · وقد ساعد ذلك ـ الى حد ما ـ على حفظ جانب من التراث الرومانى من جهل البرابرة وتعصب المسيحية العظيم ويصبح فى خبر كان · فعملوا جاهدين على المحافظة عليه وانقاذ ما يمكن انقاذه منه ، ومن امثال هؤلاء كاسيودوروس وأيزودور ·

النهضة العلمية فى القرن الثامن

هكذا ادت غزوات البرابرة وظهور المسيحية الى تدهور التراث الرومانى القديم فى الغرب الاوروبى ، وبخاصة الادب اللاتينى · ويكشف عن هذا المؤرخ المعروف ادوراد جيبون فى مقدمة كتابه « سقوط وانهيار الامبراطورية الرومانية » عندما ما تعرض لفترة الانتقال من القديم الى الوسيط ، اذ قال أنه انما يمسك قلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط الذى تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة · واستمر هذا التدهور حتى أواخر القرن السابع عندما ظهرت نهضة عظيمة فى ايرلندا كان على رأسها الكنيسة والاديرة الايرلندية اذ حملت ايرلندا مصباح العلم والمعرفة فى ذلك العصر المظلم الذى القى بظلاله الكثيفة على دول الغرب التى كانت مرتعا خصيبا للفوضى والاضطراب فى كافة مناحى الحياة · وكانت النتيجة ان حفظت ايرلندا الكثير من مظاهر الادب الكلاسيكى من العبث او الضياع · وقد أدت هجرات الايرلنديين الى انجلترا وباقى دول الغرب ، الى ذيوع تلك النهضة العلمية وانتشارها فى القارة ·

وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فى اخريات القرن السابع وخلال القرن الثامن فى شخص كل من المؤرخ المعروف بيده BEDE (٦٧٥ ـ ٧٣٥) والفيلسوف الكوين AL,CLIN (٧٣٥ ـ ٨٠٤) ويستحق كل منهما تخصيص كلمة سريعة عنه ·

كان بيده أحد تلاميذ بيسكوب ، وتثقف على يديه ، وقرأ تآليفه واشعاره الدينية والعلميــة التى كان قد احضرهــا معــه من روما الى انجلترا ٠ وجعلته هذه الثقافة التى تشبع بها فوق مستوى معاصرته وتفكيرهم ٠ واصبح يمثل بحق خلاصة النتاج الفكرى لغرب اوروبا فى الفترة الواقعة بين زوال الحضارة والتراث الرومانى القديم عقب غزوات البرابرة وبين قيام النهضة الكارولنجية بأحياء الامبراطورية الرومانية ايام شارلمان تحت اسم « الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة » ٠ وقد قضى بيده حياته فى ديرجارو JARROW منكبا على القراءة والدراسة والتحصيل ٠ كما امتاز بحاسة تاريخية اصيلة لم تكن معروفة فى مثل هذا العصر المبكر ، حيث لم يكن من السهـــل التمييز بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الخيالية ٠ وقد ألف كتـــابا اسمه « التاريخ الكنسى للامة الانجليزية THE ECCLESIASTICAL HISTORY OF THE ENGLISH PEOPL فرغ منه سنة ٧٣١ ٠ وتناول تاريخ الجزيرة البريطانية وشعبها فى العصر الانجلو سكسونى واعتمد عليه كثير من المؤرخين المتــأخرين والمحــدثين المتخصصين فى هــذا الموضوع ٠ وقد انفرد الكتاب المذكور بمكانة خاصة بين جميع التواريخ التى الفت فى العصور الوسطى ٠ اذ اعتمد بيده فى اخباره عن الانجلو سكسون فى انجلترا قبل الغزو الدانى على مصادر قديمة مفقودة لم تصلنا فحفظ لنا مادتها مما يضفى على كتاباته صفة الوثائق الرسمية٠ كذلك اعتمد على مشاهداته الشخصيــة والثقــات من شهود العيــان لأحداث ذلك العصر ٠ فضلا عما تضمنه الكتاب من افكار كانت تعتبر جديدة وقتذاك فيما يتعلق بضرورة تقدم الجنس البشرى عن طريق العلم والدين ٠ ولهذا اعتبر كتابه مصدرا أساسيا لاغنى عنه فى دراسة تاريخ انجلترا فى ذلك العصر وتطور المجتمع المسيحى ونظمه الأولى فى الجزيرة ٠ ويعتبر بيده نفســه أول مفكــر انجليزى حر استطــاع ان يخرج من ظلمات العصور الوسطى ، وأن يتحدث الى العالم الجديد فى موضوعات شتى متنوعة وفى دقة ووضوح ٠ وبلغ من أهمية هــذا

الكتاب ان قام بترجمتــه الملك الفريــد السكسونى من اللاتينيــة الى الانجليزية السائدة فى عصره ٠

وعلى هذا فأن اعمال بيده تمثل فى الواقع الفكر والعلم فى عصره وهو فى كتاباته وقراءاته لم يخرج عن المصادر والاصول التى كانت شائعة وموجودة وقتذاك وقد خلف لنا موهبة منطلقة متحررة من كل القيود والعوائق ولم يترك ناحيــة فى تــاريخ انجلترا او الكنيســة الانجليزية الا وطرقها ٠ وبالرغم من انه كانت تعوزه موهبة التخيل والتأمل ، الا انه يتحدث بثقة عن عصره ٠ لقد احتل بيده مكانة كبيرة بفضل شخصيته وعقله اللذين يتميزان ببساطتهما ، وليس عن طريق خصوبة فى الخيال أو مقدرة فى الاسلوب والكتابة ٠

واذا عدنا قليلا الى الوراء لعرض اعمال بيده ، نجد ان كتاباته الاولى كــانت فى قواعــد اللغــة وعلم البيــان ٠ وكان فى هذا ينهج كاسيودوروس وايزيدور ٠ ومن مؤلفاته التاريخية التى خلفها لنــا بالاضافة الى « التاريــخ الكنسى » كتاب « حيــاة القديس كثبرت » LIFE OS OT ST. CUTHBERT الذى الف جانبا منه بالشعر وجانبا بالنثر ، وكذلك « حياة رهبان » ديرى ويرماوث وجارو "LIVES OF THE ABBOTS OF WEARMOUTH AND J ARROW وله أيضا تعليقات على الكتاب المقدس ومجموعة من المواعظ التى اصبحت هى والمصادر التى استقى هو نفسه منها امثال مؤلف اوجسطين وجيروم وجريجورى الكبير ، مصدرا للعظات الدينية التى وضعت فيما بعد ٠

لم تكد تمضى ايام على وفــاة بيده حتى خرج الى العالم شــاعر يكاد يبز بيده فى شهرته ٠ ونعنى بذلك الكوين ALCUIN (٧٣٥ — ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصــل بين النشــاط الفكرى فى الجزيرة البريطانية وايرلندا بين دول الغرب الاوروبى وغالة ٠ ويمثل الكوين النهضة الادبية والعلمية فى عصر شارلمان خير تمثيل ويقول و٠ ب كير أن مؤلفاته التى وضعها لاتصل بحال الى مرتبة شهرته كمعلم ٠ وانــه

لم يكن يتمتع بالفكر المستقل الذى كان يتمتع به بيده • ولم يتناول اى موضوع عن رغبة صادقة واشباعا لفنونه العلمى • وتكاد ان تكون جميع افكاره وارائه سطحية • وهو فى أشعاره متأثر الى حد بعيد بالشاعر فورتوناتوس • وقد عالج فى اشعارة النواحى التاريخية • نذكر منها تاريخ حياة القديس ويلبيرورد LIFE OF ST. WILLIBRCRD وتاريخ يـورك HISTORY OF YORK وهو يشبه فورتونـاتوس فى أن قصائده التاريخية تقل واهميتها عن رسائله وحكمه التى ضمنهـا فى مقاطع شعرية موجزة • وهى تلقى ضوءا على تاريخ حياة الشاعر نفسه وعصره • ولعل ابرز قصـائد الكوين التى وضعها عن الشـتاء والربيـــع •

النهضة الكارولنجية فى القرن التاسع :

فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ تم تأسيس الامبراطوريـة الرومانية الغربية المقدسة • وتتويج شارلمان امبراطورا عليها • وقـد ساعد اسـتقرار الاحـوال فى الغرب بعد فتـرة طويلـة من الفوضى والاضطراب ، على رقى الحضارة والثقافة وانقاذ الادب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها خلال القرون السابقة وكان نفوذ شارلمان العظيم وشخصيته من اهم اسباب تدعيم النهضة العلمية والادبيـة فى ذلك العصر •

يقول المؤرخ لامونت LA MONTE أن بلاد الفرنجة كانت فيما يتعلق بأمور العلم والثقافة العامة ، اقل بكثير من مستواها عن ايطاليا أو بريطانيا ولذا عزم شارل على أن تنتهى بلاد الغال ، وان تفوق جيرانها أن كان ذلك ممكنا فاهتم اهتماما خاصا بحركة العلم والتعليم واحيـاء الدراسات الادبية ، بالرغم انه لم يكن عالما او متعلما بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة • فأهتم شخصيا بجمع الكتب القديمة التى ظلت باقية ولم تعد عليها عادية الزمن من مؤلفات اللاتين فى ايطاليا وغيرها من دول الغرب واستدعى الى بلاده بمدينة اكس لاشابل كثيرا من علمـاء

والفلاسفة اللاهوتيين ، ومن بينهم ثيودولف الاسبانى THEODOLPHUS أرق شعراء ذلك العصر ، وبطرس البيزوى PETER OF PISA المتخصص فى النحو وقواعد اللغة اللاتينية والمؤرخ بولوس الشماس PAUL THE DEACON وكانت صرامة الشمال أكثر من يحتملها، فتركه واستقر فى مونت كاسينو وممن جلبهم ايضا باولينوس من اكويليا PAULINUS OF AQUILEA وهو ثمرة نتاج الحضارة الايطالية اللمباردية . هذا فضلا عن سكرتيره اينهارد EINHARD وقد استدعى شارلمان هؤلاء وغيرهم للاشتغال بأمور التعليم فى مدرسة البلاط المشهورة التى أسسها فى قصره لتعليم ابنائه وابناء كبار رجال حاشيته . وقد عهد بادارتها الى الكوين ALCUIN الذى استدعاه من يورك بانجلترا والذى يمثل بحق الثقافة كانت تشبع من اديرة لورثمبريا تلك الأديرة التى احتفظت بمستوى ثقافى المستوى فاق الذى بلغه الشمال الاوروبى . ولقد خدمت هذه الفئة المختارة التى جلبها شارل من دول الغرب الى جانب مهتمهم التعليمية باعتبارهم سفراء ملكيين . فعين ثيودولف ممثلا اسقفا على اورليانز وكان موضع ثقته .

وبالرغم من أن شارلمان كان متقدما فى السن وقتذاك ، وبالرغم من كثرة اعماله ومشاغله وحروبه ، الا انــه لم يجد غضاضة فى أن يجلس الى جانب صبيان القصر الامبراطورى فى هذا المعهد الاول من نوعه فى تاريخ المجتمع الغــربى الوسيط ، ليستـزيد من نور العلم والمعرفـــة .

وتبدو ثمار اعمال هذا الرعيل من العلماء فى التالى : فى انهيارد مؤرخ حياة شارلمان ، وفى سمارجدوس SMARCDUS وهربانوس ماوروس HRABANUS MAURUS وغيرهم من العلماء والمعلمين الذين نقلوا النهضة العلمية الى تلاميذهم وفى جيل احفاد شارلمان واحفـاد احفاده اصبحت غالة هى مركز النشاط الثقافى فى الغرب . فقـــد

فقد كان قادة الغرب فى الناحية العلمية هم جون سكوتوس أريوجينا JOHN SCOTOUS ERJJJGENA ولوروس أوف غزبير OF FERIERES
وأجوبارد أوف ليون AGOBARD OF LYONS LUPUSR
وسدوليوس سكوتوس SEDULIUS SCOTUS وهنكمار أوف ريمز HINCMAR OF RHEIMS

ولم تقف النهضة الكارولنجية عند مدرسة البلاط ، وتثقيف فئة قليلة مختارة • اذ اصدر شارل قوانين كنسيـة تقضى بضرورة وجود مدرس اجرومية فى كل كاتدرائية ، ووجود استاذ للاهوت فى كل كاتدرائية اسقفية لتعليم الشباب بالجهات المختلفة •

وجدير بالملاحظة أنه بينما ارسل شارل الى انجلترا فى طلب الكوين لنشر العلم فى غـــالة فى اوائل القرن التاسع ، ارسل الملك الفريد الانجلوسكسونى من مقاطعة وسكس الانجليزية فى نهاية ذلك القرن فى طلب العلماء من غالة لاعادة تثقيف انجلترا •

وعند التعرض للنهضة الكارولنجية ، نجد أن التاريخ احتل فيها مكانه مرموقة اذ انتعشت حركة التدوين التاريخى • فكتب بولس اللمباردى « تاريخ اللمبارديين » كما وضع اينهارد باللاتينية مؤلفه عن تاريخ حياة شارلمان VITA KAROLI وهو يعتبر المصدر الادبى الاساسى فى هذا الصدد • والعيب الوحيد فيه أن مؤلفه تقيد بمنهج المؤرخ الرومانى سوتوينوس SUETONIUS (٦٩ ـ ١٤١) • ووضع كاتب اخر يسمى أدلهارد ADELHARD مؤلفا باللاتينية عن النظام فى البلاط الامبراطورى DE ORDINE PALATI فقد ولم يصلنا ولكن من حسن الحظ أن احد رؤساء اساقفة ريمز RHEIMS فى القرن التاسع ويدعى هنكمار HINCMAR احتفظ لنا بالمادة الاساسية المكتاب

المفقود فى رسالة لاتزال باقية الى اليوم ولم تهمل ايضا سير القديسين والاباء الاول فى ذلك العصر • هذا بالاضافة الى الكتب التاريخيـة التى تناولت اخبار الحروب ، مثل الكتاب الذى وضعه نيثارد NITHARD فى القرن التاسع تحت اسم « تاريخ الحروب الاهلية • »

وظهر فى ذلك الحين نوع جديد من التدوين التاريخى • ونعنى بذلك نظام الحوليات ANNALS الذى ظل قائما حتى نهاية العصر الوسيط، ولم تكن تلك الحوليات تتضمن مجرد وقائع أحداث فحسب، وانما كانت تشمل سرداً لاهم احداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حده • ونعرف ان هذا النوع من الكتابة التاريخية ظهر لاول مرة فى نورثمبرلاند NORTHUMBERLAND بانجلترا عندما كانت الاديرة تقوم بتدوين الحوادث اولا بأول • ويحتمل أن يكـون الكوين هو الذى نقـل تلك الطريقة فى التدوين الى غالة • وعندما ادرك شارلمان اهميتها ، امر الاديرة التى تدخل فى نطاق امبراطوريته باتباعها عند تسجيل الاحداث وكان لهذه الحوليات الديرية شأنها فى تدوين كثير من الاحداث والوقائع التاريخية الهامة ، التى كان من الجائز الا تصلنا لولا محافظة تلك الاديرة عليهـــــا •

والى جانب تلك الحوليات الديرية ، وجد نوع اخر من الحوليات الملكية التى تناولت تاريخ الكا رولنجيين • وكانت تدور تحت اشراف رجال البلاط •

وهكذا امتد تأثير النهضة الكارولنجية الجديدة الى شتى نواحى العلم والمعرفة • ومنها حركة تحسين الخطوط • اذ ان الخط اللاتينى الذى كان قد أصابه الفساد عقب غزوات البرابرة ، تطـور فى العصر تطورا واضحا وان ماوصلت اليه الحضارة الكارولنجية فى الآدب يعتبر فى الواقع خطوة أولى نحو الامام وفى سبيل التقدم بعد قرون طويلة

من الظلام والفوضى والاضطراب منذ سقوط الدولة الرومانية القديمه وانهيار الحضارة المدنية الرومانية واندثار التراث الكلاسيكى القديم •

واذا انتقلنا الى الشعر فى العصر الكارولنجى نجد أنه قد فاق النثر ، ولكنه مع ذلك فاقه كما لا كيفا • ذلك ان الاتجاه السائد كان يميل الى استخدام الشعر فى مختلف شئون الحياة • ولذلك كان معظم الادباء امثال بولس دياكولوس والكوين وثيودولف ممن يقرضون الشعر • ومن مآثر ذلك العصر انه خلف عددا كبير من القطع الشعرية من اغانى المآثر المعروفة باسم CHANSONS DE GESTE"وهى قصائد كتبت من عشرة مقاطع وكان الشعراء المتجولون الذين كان يطلق عليهم اسم TROUVERES أو JONGLEURS ينشدونها داخل القلاع وفى الاماكن العامة وهى تنقسم الى ثلاث مجموعات من القطع الشعرية تدور حول الشخصيات التاريخية•والمجموعة الاولى تتناول اعمال شارلمان واهم الاحداث التى تمت فى عصره ، ومن اهمها اغنية حج شرلمان LE PELERINAGE DE CHARLE MACNE واغنية رولان LA CHANSON DE ROLAND والثانية عصر جريوم دورانج CUILLAUME D, ORANGE والثالثة تدور حول عصر رينودى منتوبان RENAUD DE MONTAUBAN

ويرى المؤرخ جاستون باريس فى كتابه « الادب الفرنسى فى العصور الوسطى » أن الشعر الكارولنجى قد غلب عليه الطابع الدينى لان معظم ناظمية كانوا من رجال الكنيسة • هذا فضلا عن ان معظم شعراء ذلك العصر استوحوا قصائدهم من شعراء المسيحية الاسبقين امثال برودنتيوس وفورتوناتوس •

ومن اهم شعراء العصر الكارولنجى الراهب والافردسترابو WALAFRID STRABO الذى عاش فى النصف الاول من القرن التاسع ، والراهب سدوليوس سكوتوس الأيرلندى SEDULIUS SCOTUS (٨٤٨ — ٨٧٤) •

كان والافرد راهبا فى دير ريخناو REICHENAU وقد تشبه بالكوين فى قصائده التاريخية وغيرها • وله اشعار تدور حول الحكمة وقصائد غنائية ورسائل دينية ولكن افضل ما كتب على الاطلاق قصيدته المسماه HORTULUS وهى تتألف من سلسلة من القطع الشعرية السداسية الوزن يصف فيها نباتات حديقة ديره •

اما سيدوليوس سكوتوس فهو الشاعر اللاتينى الرئيسى فى منتصف القرن التاسع • وهو عالم ايرلندى متجول استقر به المطاف اخر الامر بمدينة ليبج بفرنسا وقد ألف مجموعة من الاغانى امتازت بدقة نظمها • ولم ينس موطنه الاصلى وانتصارات الايرلنديين على الشماليين التى قام بتسجيلها فى عدد من قصائده • ولعل اهم ما قام به سكوتوس هو صياغة بعض الاجزاء من الانجيل فى قالب شعرى •

وعلى الرغم من وفرة الشعر الكارولنجى فى النواحى الدينية والدينونة فان أهم ما يؤخذ عليه أنه لم يتعرض للحياة العامة والحياة الشعبية •

واذا تركنا النثر والشعر فى العصر الكارولنجى جانبا ، نجد أن ابرز ما يميز القرن التاسع هو العناية بالتراث الرومانى عامة والادب الكلاسيكى بصفة خاصة • ويكتفى أن ما نسخ فى ذلك القرن من المخطوطات الكلاسيكية القديمة يبلغ اضعاف مانسخ من تلك المخطوطات خلال القرنين العاشر والحادى عشر • ويرجع الفضل الاول فى ذلك الى الكوين رئيس مدرسة البلاط بمدينة اكس لاشابل فى عصر شارلمان • وكان أهم ما قام به فى هذا المصدد مراجعته للترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والى جانب الكوين وجد شخص اخر هو سرفاتوس لوبوس SERVATUS LUPUS الذى كان من كبار المعنيين بالاداب الكلاسيكية اللاتينية فى القرن التاسع •

ونظر لان شارل العظيم كان جرمانى الاصـــل فلم يهمل الادب الجرمانى · فوجه عناية اليه ، وحاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية واحتفظ بمجموعة من الاغانى والاشعار الجرمانية · وكانت تلك الاغانى تتناول موضوعات فى الحب والحرب · ولما كانت تحويه من عناصر وثنية فقد نبذتها الكنيسة اللاتينية حتى احرقها خليفة شارلمان وهـو لويس الصالح (٨١٤ ـ ٨٤٠) ولو كانت هذه الاغانى وغيرها من ادب الجرمان قد بقى ، لربما امكن الكشف عن بعض غوامضه وعن اللغـة الجرمانية ذاتها ·

الأدب في القرن العاشر :

اذا دققنا النظر فى النهضة الكارولنجية فى القرن التاسع نجد انها في الواقع اقتصرت على فرنسا وجانب من المانيا ، حيث توجـد امبراطورية الفرنجة وفيما عدا ذلك ، فقد اصاب الادب قدر كبير من التدهور · فبعد موت شارلمان اخذت امبراطوريته فى التصدع بسبب تقسيم الملك بين ابنائه ، الى ان انتهى الامر بمعاهدة فردان VERDUN سنة ٨٤٣ التى انقسمت الامبراطورية بمقتضاها الى ثلاثة أقســـام القسم الغربى ويشمل فرنسا، والشرقى ويشمل المانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما وظلت الامور غير مستقرة الى أن قامت اسرة السكســون بالمانيـــا (٩١٩ ـ ١٠٥٦) وبقيامهـا بعثت الفكـرة الامبراطورية من جديد ·

واعظم ملوك هذه الأسرة هو اوتو الاول (٩٣٦ ـ ٩٧٣) الذى نهج نهج شارلمان في الاهتمام بشئون العلم والتعليم · ومن كبار علماء عصره برونو رئيس اساقفة كولونيا الذى كان مهتما بالعلوم القديمة حتى تعلم اللغة اليونانية ، وكان مشجعا للعلم والمتعلمين ·

والى جانب برونو اسفرت النهضة الالمانية السكسونية ، عن ظهور عدد من العلماء ، نذكر منهم ويدوكند WIDUKIND الراهب بدير كوربى CORBEY وكذلك الكاتبة هرتسويث HROTHSWITH الراهبة فى دير جندرشايم GANDERSHEIM ويشبه ويدوكند فى تاريخه عن السكسون ، المؤلف بولس الشماس فى منهاجه وطريقته · فهو يكتب عن قومه فحسب · كما انه مولع بالقصص والاغانى الشعبية · وقد اهدى تاريخه الى ماتيلدا MATILDA ابنة اوتو العظيم · وأما الشخصية البارزة فى مؤلفه فهى شخصية الامبراطور السكسونى نفسه · وقد فرغ من كتابه سنة ٩٦٨ · واضيفت اليه زيادات طفيفة بعد وفاته سنة ٩٧٣ · وقد تعرض فى مستهل مؤلفه لعادات وتقاليد السكسون القدامى ويمكن للقارىء أن يلمس من ثنايا الكتاب بساطة الجرمان القدماء ، والتى احتفظ بها السكسون باعتبارها احد العناصر الجرمانية · فكان يوجد عندهم _ كما اشار المؤرخ بيده BEDE نظام سياسى مبسط يتساوى فيه جميع القادة ، وليس بينهم ملك ، اللهم الا فى اوقات الحروب فحسب · وأوضح ذلك ايضا المؤرخ كولتون فى مؤلفه « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة »لذلك حفظ لنا الكتاب شيئا من ادب الملاحم السكسونى · فليس من الصعب العثور فى مؤلفه على آثار من الروايات الشعبية · والى جانب ذلك يتمتع ويدكوند بموهبة المذكرات MEMOIRS وعندما ما تناول ويدكوند بالتحليل الموضوع الاساسى لمؤلفه ، وهو حياة اوتو الكبير ، اثبت مقدرته فى الكشف عن اعمال هذا الامبراطور والقاء الاضواء على شخصيته ·

واما هروتسويب فقد دونت مجموعة من الاشعار منها : « اعمال الامبراطور اوتو الأول · DE GESTIS ODDONIS I IMPERATORIS

وقد تحدث فيها عن أعماله حتى تتويجه امبراطورا سنة ٩٦٢ ٠ ووضعت كذلك عددا من القصص الدينية شعرا منها قصيدتها عن القديس جنجو لفوس ST. GINGULPHUS وثيوفليوس THEOPHILUS وغيرهما ٠ وقد لاقت قصة ثيوفيلوس الشيوع والرواج، وكانت متداولة بجميع اللغات٠

ومن الشخصيات البارزة في ايطاليا فى القرن العاشر لتبراند اسقف كريمونا LIUTPRAND OF CREMONA الذى كان يجيد اللغة اليونانية اجادة تامة حتى لقد اختاره الامبراطور اوتو الاول مبعوثا له الى القسطنطينية ٠ وكان ابوليتبراند يعمل من قبل السلك الدبلوماسي وزار العاصمة البيزنطية بوصفه مبعوثا من قبل الملك هيبوج HUGH ولم يمض وقت طويل على وفاة والده (حوالى سنة ٩٢٧) حتى ارسل وهو لايزال صبيا الى بلاط بافيا لتلقى العلم ٠ وكان لتبيراند لايزال فى البلاط بعد سقوط هيبوج واعتلاء برنجار BERENGAR العرش ٠ وفى سنة ٩٤٩ ارسله برنجار فى مهمة الى الامبراطور البيزنطى قسطنطين بوفيرو جنتيون Constantine porphyrogentius ولكنه تعرض بعد عودته لاتضطهاد برنجار وزوجته ويلا WILLA ولجأ الى اوتو العظيم وفى سنة ٩٦١ اصبح اسقفا على كريمونا ٠ وكان له دور فى الاتصالات التى تمت بين اوتو والرومانيين ٠ وقام بترجمة خطبة الامبراطور الالمانى التى القاها فى روما سنة ٩٦٣ ٠ وفى السنة التالية قام بكتابة تاريخ رحلة اوتو الى ايطاليا ٠ وفى سنة ٩٦٨ ذهب ثانية الى القسطنطينية للاتفاق مع الامبراطور البيزنطى نقفور فوكاس على موضوع الزواج بين ابنة الامبراطور المسماه ثيرفالو وبين اتو الصغير وبعد حياة حافلة بالاعمال الضخمة توفى ليتبراند سنة ٩٧١ او ٩٧٢ ٠

وهكذا نرى أن حياة ليتنبراند كانت حافلة ٠ فقد شاهد الاحداث بنفسه وعاش فيها ٠ وكان على صلة بكبار رجال عصره،وموضع ثقةالكثيرين

منهم • وابدى مقدرة وكفاءة فى المسائل السياسية • وسجل لنا ذلك كله فى أبحاث وكتب • ومع ذلك فلا تخلو كتاباته من القدح الدعابات الفكاهية ونجد مثلا لأهاجيه عندما تعرض ليونجار فى كتابه المسمى ANTAPODOSES واما عن دعاباته وتعليقاته اللاذعة فنجد مثلا لها عندما تعرض لاباطرة بيزنطة وبخاصة ليو بن بازيل •

واما فى فرنسا فقد لمع اسم مؤرخين هما فلودورد الريمى FLODOARD OF RHEIMS • ويعتبر فلودورد RICHER وريتشار (٨٩٤ ـ ٩٦٦) من اشهر مؤرخى القرن العاشر • وهو صاحب حوليات وتاريخ ريمز الكنسى HISTORIA REMENSIS ECCLESIAE ويتميز بمنهاجه الواضح وامانته ودقته فيما يكتب • وأما ريتشار فهو راهب بدير القديس ريمى ST: REMY على يد جربرت GERBERT وهو واضع مؤلف باسم التواريخ فى أربعة كتب ويتميز اسلوبه اللاتينى بصعوبته لاستعماله خليطا من الالفاظ والاصطلاحات الفنية والحربية والادارية •

الادب فى القرن الحادى عشر :

كانت اوروبا فى هذا القرن مسرحا لاحداث سياسية وحربية خطيرة صرفت انظار الناس عن الادب وكل ما يمت اليه بصلة • ففيه قام الصراع المعروف بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانية ، وما ترتب عليه من آثار وخيمة بالنسبة للسياسة الاوروبية • وفيه أيضا قام النورمان بنشاطهم التوسعى المعروف فى صقلية وجنوب ايطاليا وانجلترا • وفى اخرياته كذلك قامت الحركة الصليبية بتوجيه من البابوية وتحت رعايتها للاستيلاء على الارضى المقدسة • كل هذه الاحداث وغيرها لم تتح للادب الفرصة للازدهار بعد نهضة فى القرنين السابقين •

وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن الحركة الادبية بصفة عامة كانت فى ركود اذا استثنينا ميدان الدراسات التاريخية • فقد ظهر بعض المؤرخين ومنهم ادم اوف برمين ADAM OF BREMEN والراهب برونو BRUNO

الادب فى القرن الثانى عشر :

اذا كان الظلام الدامس قد عم الغرب الاوروبى لقرون عديدة منذ سقوط الدولة الرومانية بسبب الظروف التى نشأت عن غزوات البرابرة وتدفق الجرمان من الشمال فى قلب الامبراطورية الرومانية • وهدم ذلك الجهاز العتيد فى النظم والحضارة واذا كان الادب اللاتينى والتراث الكلاسيكى القديم قد اندثر او توارى فترة من الوقت اللهم الا من بعض الأدباء والمؤرخين الذين ظهروا بين الحين والحين فأننا نجد أن هذه الحالة من الركود ، وبخاصة فى الناحية الادبية ، لم تستمر الى ملا نهاية • اذ احتفظت الكنيسة اللاتينية التى كانت معقل التفكير ومنبع الحركات الادبية فى ذلك الحين بطابع علمى على قدر مفهوم الناس فى العصور الوسطى • ففيها بدأت النهضة العلمية الأولى التى اشتهرت باسم نهضة القرن الثانى عشر • ذلك أن الكنيسة كانت تجتذب لخدمتها والعمل بين جدرانها كل من تتوسم فيه الاستعداد للبحث والدراسة والتحصيل • كذلك عنيت الاديرة منذ الاصلاح البندكتى بالعلم والكتابة والادب • فكنا نجد فى معظمها المكاتب الاثرية والنساخ المهرة والكتاب المبرزين من بين هؤلاء الرهبان انفسهم المهتمين بالشئون العلمية • وفى داخل هذه الاديرة خصصت اماكن للمعنيين بشئون الكتابة والنسخ والقراءة والتأليف • وكانت مثل هذه القاعات العلمية تحمل الاسم اللاتينى SCRIPTORIA

واذا كان الاصلاح البندكتى قد اعتنى بالادب والعلوم ، كذلك

لم يغفل الاصلاح الكلوني امرهما • فلم يهمل القائمون على امره هذه النزعة الادبية والعلمية • فشجعوها ، وألحقت بمعظم الاديرة المدارس لتعليم الاطفال الذين أعدهم اباؤهم للدخول فى سلك الكهنوت والتدرج فى وظائفه أو للدخول فى خدمة الحكومة والقيام بالاعمال التى كانت تتطلب القراءة والكتابة مثل المحاماه والطب وغير ذلك •

وظهرت كذلك خلال القرن الثانى عشر كثير من الجماعات الرهبانية مثل الاخوان الفرنسسكان والاخوان السسترشيان وغيرهما • وقد وصلت تلك الجهود الادبية التى بدأها من سبقهم حتى أصاب الكثير من بين اعضائها بسهم وافر فى الاداب ومختلف العلوم • وقامت على اكتاف هؤلاء نهضة القرن الثانى عشر ، حينما احتكت الاذهان والعقول بين العنصر الرجعى من المفكرين الذى يعبر عن الفكرة الدينية المتزمتة ويمثله القديس برنارد اوف كليرفو ، وبين العنصر المجدد من المنادين بتحرير الفكر ويتزعمه الفيلسوف بطرس ابيلارد — زعيم الفكر الحر وتحرير الذهن من التقاليد العتيقة البالية •

يتضح لنا مما سبق أنه نشأ عن أحتكاك الفكر بين عنصرين متابينين من المفكرين ، يقظة شعوب الغرب الاوروبى • فضلا عن النهضة العلمية والفكرية التى عمت مدارس الغرب • وقد احتل النشاط الادبى والدراسات الانسانية ، جانبا بارزا من هذه النهضة • فتم الرجوع الى الادب اللاتينى الكلاسيكى والعمل على احيائه بالرغم من الضعف الذى اصابه فى القرون السابقة للاسباب التى أسلفناها وبدأت هذه الحركة فى مدينة ريمز على يد شخص يدعى جربرت GTRBERTOF RHEIMS ويعتبر الممثل الحقيقى للثقافة اللاتينية قبل عصر الفلسفة المدرسية والفكر الحر • وتكشف رسائله عن اهتمامه بموضوعات عديدة • فضلا عن تعمقه فى الفلسفة وعلم البيان • كما انها تلقى ضوءا كافيا

على الحياة فى هذا العصر • ويتضح اهتمام جربرت بالعلم من مراسلاته وطلب تزويده بكتب معينة وكثرة اطلاعه وقرأته •

وقد انتقلت هذه النهضة الادبية من ريمز الى مدينة شارتر على يد احد تلاميذه جربرت هو الاسقف فلبرت FULBERT والى مدينة تورز على يد اسقفها هيلدبرت HILDBERT المتوفى سنة ١١٣٣ والذى امتازت قصائده بسلامة اسلوبها وجمال تعبيرها • وهو يعتبر من اعظم شعراء عصره اذ كتب فى معظم فنون الشعر مثل الرثاء والمديح فضلا عن الموضوعات الدينية •

وقد وجد فى القرن الثانى عشر بعض المتزمتين من رجال الدين الذين نادوا بمحاربة الادب الكلاسيكى القديم بحجة انه من مظاهر الوثنية ، مقتفين فى ذلك خطى البابا جريجورى العظيم • ولكن امثال هؤلاء كانوا قلة فى ذلك الحين ،ولم تكن افكارهم الضيقة لتؤثر على النهضة الجديدة التى انطلقت من عقالها نتيجة الظروف والمؤثرات التى استجدت على مسرح الاحداث وقتذاك • وعلى هذا لم تكن هذه الفئة الرجعية خطر على الادب الكلاسيكى الذى نادى اصحاب الفكر الحر بالرجوع اليه والاستفادة منه • فظهرت كتابات باللغة اللاتينية لها قيمتها ووزنها مثل الفيلسوف ابيلارد وجربرت اوف ريمز واشعار هيلدبرت اسقف تـــورز •

وكانت الأديرة البندكتية ــ حسبما اسلفنا ــ من اهم المراكز التى اعتنت بالدراسات الكلاسيكية القديمة • ولعل ذلك يرجع الى عدة اسباب ، منها أنها كانت اقدم الاديرة التى اسست فى الغرب • كمـا انتقل اليها تراث النهضة الكارولنجية • ثم انها تشارك الهيئات الديرية الجديدة فى الاهتمام بما يتعلق بالشئون الدينية فحسب • ولكنها

ظلت المكان الذى حافظ على الدراســات الكلاسيكية الرومانية من الضياع . ويكفى أن نعرف أنه وجد فى كل دير نواة لمكتبة ومكان لنسخ الكتب زود بالادوات اللازمـة للتحـرير والعنايـة بالاداب والعلـوم والابحاث ، حتى يتسنى لكل من يتوسم فى نفسه الاتجاه للناحية الادبية أن يواصل نشاطه فى هذا الميدان . وعلى هذا يمكن القول بأن الديرية البندكتية قامت بأكبر خدمة للحضارة الفكرية والادبية فى العصور الوسطى اذ احتفظت مكتباتها ، بالاضافة الى ما تقدم ، بكثير من أمهات الكتب الكلاسيكية القديمة التى كانت معرضة للفقدان والضياع أثناء غارات المتبربرين على الغرب والتخريب الذى اصاب المدن الرومانية واثناء محاربة الكنيسة المسيحية لكل مايمت للتراث الرومانى القديم بصلة باعتباره تراثا ضارا عديم الفائدة من وجهة النظر المسيحية . ففى تلك الاديرة التى كانت دور للعلم ، واصل النساخ والمؤلفون تحرير الكتب التاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التى مازال الكثير منها متداولا الى اليوم .

ولقد تمت هذه النزهة الادبية فى اغلب الاديرة فى وقت كان الناس فيه فى الغرب يغطون فى جهل عميق ، ولا يفهمون معنى العلم ، وكانت الامية شائعة بين الجميع . وبمرور الزمن تأسست المدارس فى تلك الاديرة لتثقيف الناس . وهكذا اصبحت تلك المدارس الديرية معاهد علمية يشتغل فيها الكثير من الرهبان بالتأليف والنسخ والمحافظة على التراث الادبى القديم الذى اهملته القرون السابقة .

واذا انتقلنا الى ميدان البلاغة نجد أن انشاء الرسائل احتل المكانة الاولى فى القرن الثانى عشر . اذا ازدهر فن تدوين الرسائل فى كـل من بولونيا وفرنسا . وقد كتبت باسلوب لاتينى رفيع ، وبخاصة تلك التى ترجع الى عهد الملك الفرنسى فيليب اغسطس . ويزيد قيمة تلك

الرسائل انها تلقى الضوء على الاوضاع السائدة فى ذلك العصر الذى دونت فيـــه ٠

واما عن الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر ، فلم يكن بأقل شأنا من النثر ٠ اذ بلغ درجة كبيرة من الوفرة تنوع موضوعاته وقوة اسلوبه ، وقد تأثر هذا الشعر بكل من الشعر الكلاسيكى من ناحية الطابع الدينى الذى اوحت به المسيحية من ناحية اخرى ٠ ويبدو الاثر الرومانى القديم فى اشعار هلدبرت ، بينما يتضح الطابع الدينى فى اشعار ابيلارد (١٠٧٩ ــ ١١٤٢) وماربود MARBODE (١٠٣٥ ــ ١١٢٣) ، وفى القصائد التى تتناول الموضوعات الدينية مثل سير الرسل والقديسين والقصص المستوحاة من الكتاب المقدس ٠

ويقول الكاتب جاستون باريس ان الترانيم الدينية كانت فى الواقع اخصب انواع الشعر فى العصور الوسطى ٠ اذ ان طبيعـــة العصر كانت تشجع مثل هذا النوع من الشعر الذى كان يدور معظمه حول القصة الخالدة المتعلقة بالله والانسان كما وردت فى الكتب المقدسة ٠ وكانت مثل هذه الترانيم فى الكنائس فى ايام الاحاد والاعياد والمواسم الدينية ، وكان الناس يحفظونها عن ظهر قلب ٠

والى جانب هذا النوع من الشعر وجد ايضا الشعر الغنائى وكان يدور حول تمجيد البطولة وسير الابطال ، ويعبر عن جمال الطبيعـــة وعن مختلف العواطف الانسانية ٠ وقد امتاز النوع من الشعر بطابعه الدينوى الذى يدعو الى التمتع بالحياة ٠ وكان الطبيعى أن تحـــارب الكنيسة الكاثوليكية مثل هـــذا الشعر الدنيوى لتعارضـــه مع روح المسيحية ٠ فحاربته حربا لاهوادة فيها ، وانزلت اشد انواع العقاب

باصحابه والداعين اليه ولكن هؤلاء الشعراء الدنيويين لم يسكتوا بل اتخذوا من مفاسد الكنيسة ورجال الدين مادة خصيبة لاشعارهم الغنائية • ولم يسلم البابا نفسه من سخريتهم وتهكمهم عليه • وكان مثل هذا الشعر الفكاهى الساخر يلقى الشيوع والزواج فى كل مكان بالغرب الاوروبى • ومن أبرز شعراء ذلك العصر الشاعر هيوج اوف اوليانز الذى عاش فى النصف الاول من القرن الثانى عشر • وقد درس فى باريس ثم قام بالتدريس فيها فيما بعد ، وتعمق فى الدراسات الكلاسيكية • وكان على معرفة بأوزان الشعر اللاتينى القديم • كل هذا ساعده على نبوغه فى قرض الشعر الخفيف الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه •

الأدب الشعبى وأشعار الملاحم :

لقد اقتصر حديثنا حتى الان على الادب اللاتينى ، ذلك ان اللاتينية كانت لغه العلم والادب والكنيسة فى العصور الوسطى • ولكن هذا لا يعنى ان عامة الناس لم يكن لهم آدابهم الشعبية الخاصة بهم فلم يكن العامة على علم او معرفة باللغة اللاتينية التى كانت فى الواقع مقصوره على فئة قليلة من المثقفين من رجال الدين او ممن أعدوا ليدخلوا فيما بعد فى سلك الكهنوت او تولى الوظائف الحكومية • وكانت اللغة التى يتفاهم بها العامة اما اللغة اللاتينية الدراجة او العامية او اللغة الجرمانية بلهجاتها المختلفة او باللغات المحلية الوطنية • وفيما يختص باللغة الجرمانية ، فقد كان للعناصر الجرمانية التيوتونية التى استقرت فى الغرب الاوروبى آدابها الشعبية التى حفظتها عن طريق الرواية الشفوية • وكانت تتألف من عناصر واساطير يتناقلها الناس جيلا بعد جيل • ذلك ان اللغة الجرمانية لم تكن صالحة للكتابة ، وانما كانت لغة حديث وتفاهم فحسب • ولهذا لم تصلنا اية آثار ادبية مكتوبة عن

الاداب الشعبية للعناصر الجرمانية التى استقرت فى الغرب بعد زوال الامبراطورية الرومانية وكل ما نعرفة انهم كانوا يعشقون سماع الاشعار والاغانى فى بلاط الملوك والنبلاء ، والتى تعتبر فى الحقيقة الاثر الوحيد الذى يمثل الادب الشعبى فى العصور الوسطى المبكرة . وقد حفظ هذا التراث عن طريق النقل الشفهى او التدوين التاريخى فى فترة متأخرة على غرار نظام الحوليات . كذلك استقى مؤرخو القبائل الجرمانية مثل جوردانيس JORDANES الذى كتب عن القوط وبولس مؤرخ اللمبارديين والفرنجى المجهول الذى كتب عن اعمال شارلمان استقى كل هؤلاء معلوماتهم التى أمدونا بها عن القبائل الجرمانية من شعر اندثر ولم يعد له وجود . وقد كان لهذا الادب الشعبى اسلوبه وطابعه الخاص الذى يروى سير الابطال القدامى .

وفى صدد الكلام عن الشعر الغنائى الشعبى ، يحسن ان نتوقف لحظة عند انجلترا ايام الانجلو سكسون . فقد طلب الملك الفريد تعليم ابنائه الشعر الغنائى الانجلوسكسونى الذى كان يتضمن ابياتا فى تمجيد البطولة والتغنى بها . كما اهتم الدهلم ALDHEIM اسقف شيربنورن SHERBORNE فيما بين عامى ٧٠٥ و ٧٠٩ بقرض الشعر الشعبى الدارج . والدهلم من معاصرى المؤرخ بيده . وكان اسلوبه مصطنعا مليئا بالكلمات الطنانة الجوفاء والتشبيهات والجناس الحرفى والتزويق والمحسنات اللفظية . وتعتبر رسالته التى دون بعضها شعرا وبعضها نثرا عن احدى العذارى من اهم انتاجه الادبى . وكان معاصرة القديس جوثلاك ST: GUTHLAC فى فترة صباه ملما بفنون الحرب والقتال التى استوحى اصولها من سير الابطال السابقين التى قرأ عنها فى اشعارهم . كذلك كان القديس دستان ST: DUNSTAN المعروف بولعه بالشعر الشعبى من سلالة الملك الفريد السكسونى . والى امثال هؤلاء يرجع الفضل فى الابقاء على تلك الاثار الادبية التى

حافظ فيها مؤلفوها على روح الشعر الوثنى والتى لم تتعرض للنواحى الدينية اطلاقا ٠

والى جانب ذلك يوجد شعر شعبى تناول موضوعات اخرى من اهمها المراثى والاناشيد الحزينة والمديح واستهدف هذا النوع من الشعر استلهام الحكمة والمعرفة من احـداث المـــاضى ٠ وقد اندثر معظم هذا التراث لعدم تدوينه ولم يبق منه الا شذرات مبعثرة حفظها لنا بعض الكتاب المسيحيين المتأخرين ٠ وهناك ايضـــا الشعر المتعلق بالحكـم والامثال السائرة ، وهو يتضمن اقوال الحكماء والمفكرين ووردت فيه اشارات الى الطقوس الدينية القديمة التى كانت سائدة بين القبائل الجرمانية ٠ ومما ساعده على بقاء روح الشعر الوثنى فى الادب الشعبى اهتمام النبلاء والعائلات الحاكمة بالاحاديث والروايات المتوارثة شفاهة عن امجاد اسلافهم ٠ وكان العامة يجدون متعة كبيرة فى الاستماع الى مثل هذه الاشعار التى لاتخلو من المبالغة ٠ ولقد لقيت هذه الاشعار الغنائية الشـــيوع والرواج بين كافـــة الطبقـــات ٠ ولم تنشر عن طريق النسخ وإنما بواسطة شعراء الاغانى المتجولين ٠

والى جانب هذا الشعر الشعبى الذى تميز بالروح الوثنية القديمة وجد أيضا نوع آخر من الشـــعر الشعبى الدينى الذى لعب دورا فى خدمة المسيحية ٠ وكان له اسلوبه وطريقته ومنهجه الخاص به فكتب الشعراء فى موضوعات تدور حول الحكمـــة الالهية واسرار الخالق والاعياد والصوم ٠ وكان الشاعر يعبر عن احاسيسه وانفعـالاته بأمانة وصدق فى مثل هذا الشعر الغنائى وفى القصائد والاناشيد ٠ وتتضمن الشعر كذلك شروحا وتفسيرات للعهد القديم واخرى عن سير القديسين والقديســـات ٠

وقد وجد ايضا ادب شعبى نثرى بقصد الترفية والتسلية لاشأن

له بالأدب الدينى وهو ما يعرف بـأدب الخرافات والاساطير · وهى مستمدة من الاساطير الاغريقية التى ترجع الى العهود الاولى للمسيحية· وقد ظهر هذا النوع من الادب واضحا فى انجلترا نذكر منه خطاب الاسكندر الى ارسطو LETTER OF ALEXANDER TO ARISTOTLE

وعجائب الشرق **MARVELS OF THE EAST** ونجد فيهما حديثاً

شيقا ممتعا عن عجائب المخلوقات التى كان الناس وقتذاك يعتقدون انها تعيش فى بلاد بعيدة نائية ، ومن هذه المخلوقات ذلك الرجل الذى يروى ان له اذنان بلغ من كبرهما وضخامتهما انه كان يفترش احداهما ويلتحف بالاخرى · ولم يكن مثل هذا الادب النثرى فى يوم من الايام وسيلة فعالة للتثقيف او لنشر العلم والمعرفة ، وانما كان وسيلة للترفيه والتسلية حسبما اوضحت دوروثى هوايت لوك DOROTHY WHITELOCK « فى مؤلفها » THE BEGINNINGS OF ENGLISH SOCIETY"

وكيفما كان الامر فقد كانت مثل هذه الآداب الشعبية – سواء اكانت شعرا ام نثرا وسيلة هامة من وسائل الكشف عن حياة الطبقة العامة ونظمها وعاداتها وتقاليدها ومعيشتها وطرق تفكيرها ·

ولكن بظهور اللغات الوطنية المحلية او اللغات الرومانسية المنبثقة عن اللاتينية والتى كانت نواة للغات الاوروبية الحديثة فى الغرب ، لم يعد الادب الغربى لاتينيا خالصا · بل أصبح لكل دولة من دول الغرب أدبها الوطنى الخاص بها · وكانت الاصول التى استقت منها تلك الآداب المختلفة مقوماتها هى التراث اليونانى والرومانى القديم والمسيحية والعناصر الجرمانية والعرب · وكان التراث الكلاسيكى العامر بالقصص والاساطير هو اقدم منبع للاداب الوطنية فى المجتمع الغربى الوسيط · وبظهور المسيحية وتأسيس الكنيسة اللاتينية اصبح الكتاب المقدس هو الاخر مصدر الالهام الادبى لما تضمنه من سير واقاصيص دينية ·

وتعتبر اشعار الملاحم الغنائية من أهم الميادين التى ظهرت فيها الاداب الوطنية الناشئة فى أخريات العصر الوسيط • وهناك رأيان على طرفى نقيض يتعلقان بتلك الملاحم الغنائية • اذ يوجد فريق من المؤرخين يرى أنها ترجع الى القرنين التاسع والعاشر حيث كان يوجد نوع من الاغانى والقصص الشعرية التى أفاد منها كتاب الحركة الصليبية فى اخريات القرن الحـــادى عشر • فحولوها الى ملاحم متماسكة لمـــا كان فيها من عناصر تتحدث عن البطولة والمعارك التى أبلى فيها القادة والانتصارات التى احرزوها • وكان الغرب وقتـــذاك احوج ما يكون الى مثل هذا النوع من الادب الغنائى لحث الهمم للاشتراك فى هـــذه الحروب • اما الفريق الاخر فيرى أن ملاحم العصور الوسطى كانت عملا مبتكرا فى القرن الثانى عشر وليست تحويرا او جمعا لأعمـــال سابقة • ولعل هذا الرأى هو الاقرب الى الصواب ، اذ أن اللغـــات المحلية الوطنيـــة كانت قد بلغت فى ذلك الوقت درجة من القوة والنضج تسمح لها بالتعبير عن مختلف المشاعر والاحاسيس فى قصائد وقصص متازت بحيويتها وخصبها •

ومن اهم الملاحم الغنائية اغانى المآثر De Geste "CHANSONS ومنها «قصيدة حج شارلمان» و «اغنية رولان» "CHANSON DE ROLAND"

وتمتاز هذه الملاحم بأهميتها الفائقـــة لكل من المؤرخ والاديب واللغوى فقد انعكست فيها صورة حية للمجتمع الاقطـــاعى وفارس العصور الوسطى والحياة الدينيـــة • وكان شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) هو الشخصية الرئيسية التى اتخذتها تلك الملاحم موضـــوعا لها • لقد احتل مكانة بارزة فى اغانى المآثر التى كتبت باللغة الوطنية وذاعت ذيوعـــا كبيرا فى عصر الحـــروب الصليبية لما كانت تحض عليه من الاستبسال فى القتال حتى الموت •

وتعتبر اغنية رولان بلاشك من أهم الملاحم الشعرية التى عرفهـــا

العصر الوسيط وتدور حوادث الانشودة الاصلية فى عهد شارلمان نفسه. اذ تغنى المؤلف ببطولته هو ورجاله فى حروبهم ضد العرب فى اسبانيا . وهذه الملحمة من نوع الاناشيد التاريخية حيث ينسج المؤلف حول بعض الشخصيات والاحداث التاريخية قصة تدور حول البطولة وتمجيدها والتى يبدو طابع الخيال والمبالغة فيها وانشودة رولان هى أول ماوصلنا من الانتاج الادبى الفرنسى ، ومدونة باللغة الفرنسية القديمة التى كانت منتشرة فى شمال فرنسا وقتذاك . وهى تنقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الأول ويدور حول خيانة جانلون من رجال شارلمان والقسم الثانى يتحدث عن موت القائد رولان والقسم الثالث والاخير يسمى العقاب والمقصود بذلك العقاب الذى انزله شارلمان بجانلون جزاء خيانته .

واحداث القصة كما وردت فى الانشودة الأصلية لها نصيب من الصحة التاريخية ولكنها تحولت زمن الحروب الصليبية الى اسطورة شعبية لعب فيها الخيال دورا كبيرا فصوروا شارلمان فى صورة محارب صليبى فى حروب مستمرة ظافرة ضد العرب وبذلك شوهوا الانشودة الاصلية القديمة بما أدخلوه عليها فى أواخر القرن الحادى عشر من آراء افكار تحقيقا لغايات معينة . وقد تناول هذه الانشودة بالدراسة والبحث والتحليل كثير من المؤرخين الغربيين الحديثين وعلى رأسهم كارلس ديفز فى كتابه عن شارلمان ، وجاستون باريس فى مؤلفه عن الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى .

كذلك ظهرت فى هذا الوقت بالذات اسطورة حج شارلمان الى الاراضى المقدسة وزيارته للقسطنطينية العاصمة البيزنطية والتقائه بكبار المسئولين فيها - وذلك بقصد ايقاظ النعرة الدينية فى نفوس مسيحيى الغرب ودفعهم لنجدة اخوانهم اللاتين فى الشرق . ويقول جاستون باريس ان هذه الاسطورة عبارة عن قصيدة باريسية الاصل ترجع الى اواسط القرن الحادى عشر . وتكاد تكون الانتاج الادبى الوحيد

الذى وصل الينا من هذا التاريخ المبكر فى شكله الاصلى دون ان تمتد اليه يد التحوير او التعديل .

وكان الغرض من مثل هذه الاغانى والاناشيد هو حث الناس على الاشتراك فى الحروب الصليبية او تشجيعهم على زيارة الاماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين وروما . ويبدو أن جانبا كبيرا من هذا التراث كتبه رجال الدين واستغلته الكنيسة اللاتينية كنوع من انواع الدعاية الدينية فى ذلك الزمن . وقد اتخذت هذه الاشعار شكل ملاحم غنائية الامر الذى ساعد على انتشارها وتدوالها بين الناس .

والى جانب الملاحم المشار اليها اعلاه ، توجد مجموعة من اشعار الملاحم المنظومة باللغات الوطنية الناشئة وهى التى تعرف باسم اشعار الملك ارثر KING ARTHUR وهى تتضمن نوعا من الاساطير والخرافات وسير البطولة دون تماسك تاريخى فيما بينها . ويوجد اكثر من شخص يحمل اسم ارثر فى عصور مختلفة تماما مثل شخصية بطرس الناسك الغامضة المشهورة فى تاريخ الحملة الصليبية الاولى . واذا عدنا الى ارثر نجد أن صيته قد ذاع فى انجلترا بأعماله وبطولاته ورحلاته ومغامراته وحروبه وانتصاراته ضد الاعداء ، مثلما ذاع صيت شارلمان فى فرنسا . واصبح مادة خصيبة لكتاب القصص والروايات . وقد ظهرت اشعار الملك ارثر حوالى سنة ١٢٠٠ ، وهى تصور المجتمع الاقطاعى بعد أن هذبته وصقلته الفروسية بادابها وتقاليدها وتبين كيف ان الفروسية اصبحت وظيفة مقدسة تباركها الكنيسة، وكيف ان الفرسان اصبحوا جنود الله . وقد غدت هذه المجموعة الشعرية مصدرا والهاما لكثير من القصص الخيالى الذى ساد فى المجتمع الغربى الوسيط .

والى جانب الملاحم الغنائية واغانى المآثر وقصص الملك ارثر ، وجد نوع اخر من الشعر الغنائى المدون باللغات الوطنية ويعرف بشعر التروبادور او الشعر البروفنسالى نسبة الى اقليم بروفانس بجنوب فرنسا وهو يدور حول المرح والحب العنيف. وقد انتشر هذا اللون من الشعر

في جميع انحاء الغرب الاوروبي ،مثل الشعراء المتجولين بشمال فرنسا الذين كانوا يعرفون باسم التروفير TROUVERE وكان لمثل هـذا الشعر اثره في رفع مستوى الفرسان في الغرب .

كذلك انتشر في اوروبا فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر نوع اخر من الشعر القصص امتاز بقصصه القصيرة التي تغلب فيها روح الفكاهة والبعد عن التكلف في الاسلوب ، وهي تمثل ادب العامة وتعبر عن الذوق الشعبي . وهناك ايضا التمثيليات الدينيـــة التي لم يكن لها وجود قبــل القرن الحادي عشر ، ووجدت داخل الكنيســـة واستمدت موضوعاتها من الكتب المقدسة . وقد ظهرت هذه التمثيليات الدينية في وقت كانت قد نضجت فيه اللغات الوطنية كالايطالية والفرنسية والاسبانية وغيرها . وادى بطبيعـة الحال الى ادخال كثير من الفاظ تلك اللغات الوطنية في اللغة اللاتينية نفسها . وبمرور الزمن اصبحت التمثيليات تستهل بافتتاحية لاتينية ، ثم تستمر بعد ذلك باللغة الوطنية وصارت بعد ذلك تتم كلها باللغة الوطنية . وكانت هذه التمثيليات في بادىء الامر ذات طابع ديني بحت ، ولكنها بعد ذلك انصرفت عن الموضوعات الدينية ، واصبحت تتناول موضوعات دينوية . وكـــان هذا يعني ان التمثيلية لم تعد دينية بعد ان انفصلت عن الكنيســـة واصبحت عملا دنيويا بحتا . وتناول الدكتور سعيد عاشور باسهاب تطور الشعر التمثيلي في العصور الوسطى في الجزء الثاني من مؤلفه « اوربا العصور الوسطى » .

الأدب الايطالي ودانتي اليجييري :

يستحق الادب الايطالي في نهاية العصر الوسيط تخصيص كلمة سريعة عنه . فهو يلقي ضوءا كافيا على تاريخ تلك الفترة من الـزمن في نواحي الفكر والدين والسياسة والاجتماع . وهو مرآة تنعكس عليها تيارات ذلك العصور واتجاهاته ومثله ومبادئه . فالأدب الايطالي

من الآداب العالمية الذى سجل التغيير الذى اصاب الغرب الاوروبى فى فترة الانتقال من الوسيط الى عصر النهضـــة الذى مهد بدوره للعصر الحـــــديث ٠

ونستهل القول أن اللغة اللاتينية الفصحى كانت اللغة السائدة اثناء قوة الدولة الرومانية القديمة ٠ فكانت لغة الادب والعلم والثقافة والحديث ، الى جانب كونها لغة الدين والكنيسة الرومانية ٠ والى جانبها وجدت اللغة اللاتينية العامية التى تكونت على مراحــل عديدة استغرقت فترات زمنية غير قصيرة ٠ وقد تأثرت الى حد بعيد بالظروف المحلية فى مختلف انحاء شبه الجزيرة الايطالية ٠ واللاتينية العامية تختلف عن اللاتينية الفصحى فى انهـــا لم تراع اطـــلاقا قواعد اللغة واجروميتها وقوة العبارة ومكانتها وجزالة اللفظ والاسلوب ٠ وقـــد انتقلت هذه اللغة مع فتوح روما الى باقى اوروبا حيث تأثرت باللهجات المحلية الموجودة فيها ٠ ثم اضيفت اليها فيما بعد لهجات الجـــرمان البرابرة الذين اغاروا على الامبراطـورية الرومانية فى أخريات ايامها ٠ وكانت النتيجة من هذا الخليط العجيب هى ظهور اللغات الرومانيتسية فى بلدان الغرب ، وبخاصة فى انجلترا وفرنسا واسبانيا ٠

وفى الوقت الذى ظهرت فيه هذه اللغات والاداب المحلية فى جميع ارجاء الغرب الاوروبى ، تأخر ظهورها فى ايطاليا ٠ ذلك ان تلك الدول تمكنت من التخلص بسهولة من النفوذ اللاتينى الرومانى ، مما هيأ الجو لان تنشأ بها لغات وآداب محلية خاصة بها ٠ ولكن الامر على العكس من ذلك فى ايطاليا اذ لم يكن بوسعها ان تخلق لغة وأدبا خاصين بهـــا، لأنها كانت مهد اللغة والحضارة اللاتينية الرومانية ٠ فضـــلا عن ان ظروف ايطاليا واحوالها الداخلية لم تسمح لها فعلا فى التفكير المبكر فى خلق لغة وأدب لها مثلما حدث فى باقى دول الغرب ٠

لكل هذا لم تنجب ايطاليا عبقريات ادبية مبدعة فى فترة العصور

الوسطى المبكرة · وان كان هذا يعنى انهم ظلوا بمنأى عن بقية شعوب الغرب وقتذاك · فما لاشك فيه انه كان للايطاليين انتــاجهم الادبى · ولكنه كان انتاجا عاديا غير ممتاز وساعد على ذلك عدة عوامل سياسية صرفت الايطاليين عن الاهتمام بالنواحي الادبية ، منها الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانيـــة وكذلك جهاد المـــدن اللمباردية فى سبيل الحصول على استقلالها ·

وعلى أيه حال ، فقد كان من نتيجة تأخر ظهور اللغة والادب فى ايطاليا ان ظهر الادب الايطالى فجأة كقمة من القمم التى نشرت شعاعهـــا فى كافة ارجاء الغرب فى اخريات القرون الوسطى ·

ولقد سبقت ظهور اللغـة الايطاليـــة الناشـئة والادب الايطالى الرفيع ، عدة مراحل وعوامل ساعدت هى الاخرى على نموه وتطوره · من ذلك المنظومات الشعرية التى كتبها الايطاليون بادىء الامر باللغة الفرنسية او باللغة البروفانسية نسبة الى مقاطعـــة بروفانس جنوبى فرنسا · ثم ظهر خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر نوع من الشعر الدينى والقصص الشعبى باللهجةالايطاليةالمحلية·وفى القرن الثالث عشر وجدت حركة القديس فرنسيس وتلامذته الذين دونوا شعرهم الدينى التصوفى باللغة الايطالية الجديدة · ثم ظهرت بعد ذلك مدارس ادبية عديدة ، منها مدرسة صقلية وكان شعرها بلغة صقلية العامية التى تأثرت بألفاظ لاتينية وفرنسية وبروفانسية · ثم مدرسة بولونيا وكان شعرها مدونا باللغة التوسكانية (الفلورنسية) ويمتاز شـعر هاتين المدرستين بطابع الجفاف وان كان يعبر احيانا عن النون العاطفى وتأتى بعد ذلك مدرسة الشعر الحديث التى تميزت بالشعر الاخلاقى الفلسفى الى جانب الشعر العاطفى · ومن شعراء هذه المدرسة الشاعر جويدو كافلكانتى GUIDO CAVALCANTI الذى كان صديقا حميما لدانتى ، والشاعر تشينودابستويا CINO DA PISTOIA من شعراء اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر ومن اهم

قصائد كافلكانتى قصيدته المشهورة باسم (اغنية المنفى) التى يصف فيهـا لوعة فراق حبيبته بسبب النفى · بينما يمتاز دابستويا بشعره الرقيق العذب عندما يحلل النفس تحليلا دقيقا صادقا ، وهى فى دور الحب ، ويبدو ذلك واضحا فى قصيدته المسماه (اللعنات) ·

ومن الشخصيات التى مهدت للادب الايطالى بالاضافة الى ماتقدم شخصية برونتو لاتبينى BRUNETOL ATINI الذى عاش فى القرن الثالث عشر وهو استاذ دانى اليجييرى · وتعبر قصيدته المسماه (الكنز الصغير عن الشعر الرمزى التعليمى ، وتعتبر ممهدة للكوميديا الالهية ·

كل هذا مهد للعبقرية الايطـالية ، ونعنى بذلك دانتى اليجييرى DANTE ALIGHIERI (١٢٦٥ — ١٣٢١) · وقد صاحب ظهوره بروز اللغة الايطالية وقتذاك كلغة صالحة للكتابة والتعبير الادبى ، سواء اكان شعرا ام نثرا · وكان من حسن حظ تلك اللغة انها وجدت وقتذاك تشجيعـا من الامبراطور فردريك الثانى الذى ضم بلاطه العديد من الشعراء الايطاليين الذين استخدموا لغتهم الوطنية فى الكتابة بدلا من اللغة اللاتينية ، والذين كان لهم فضل ابتكار نوع جديد من القصائد القصيرة الغزلية المعروفة باسـم "SONNET"

وكيفما كان الامر فقد كان دانتى من اعظم العباقرة الذين انجبتهم ايطاليا حتى انه يعرف باسم (ابو الادب الايطالى) وقد وضعت عنـه مئات المؤلفات بمختلف اللغات تكشف عن نواحى العظمة والنبوغ فيه ، وتلقى ضوء واضحا على شخصيته وعصره · لقد كان بسيطا ساذجا متواضعا ، وان بدا فى بعض الاحيان صارما جاف المظهر بسبب ظروف حياته الخاصة · وكان يتمتع بقدرات متعددة · فكان شاعرا وسياسيـا ورجل حرب ، كما كان يحب المرح والموسيقى والرسم · وقد عرف كل انواع الحب ، واشتهر بحبه العميق لبياتريس ، ذلك الحب الذى اثر فيه طوال حياته ، واليه يرجع الفضل فيما تركه لنا من تراث خالد لا يموت · ومما يؤخذ عليه ان حياته التعسة جعلته يتذلل للاغنيـاء

والامراء ، ويستجدى عطفهم واحسانهم وكان يقضى جانبا كبيرا من وقته فى الدراسة والتأمل والتفكير والكتابه والتمتع بالطبيعة وجمالها ٠

والى جانب ذلك نجد هناك بعض التعارض فى آراء دانتى وافكاره لعل ذلك يرجع الى انه جمع ثقافته من عناصر مختلفة متنوعه تركت اثرها فى حياته وتصرفاته ٠ فكان ملما بتراث اليونان والرومان القدماء، الى جانب تراث اليهودية والمسيحية والاسلام ٠ وقد افادت حياة الذل والشقاء التى عاشها دانتى فى أن اكسبته من ضعفه قوة ومن ذله عظمة ومن فشله نجاحا ٠ بمعنى ان صعاب الحياة خلقت منه هذا الرجل العظيم الذى استمد عظمته من نواحى النقص فى شخصيته ٠ وبالاضافة الى ذلك فقد كان دانتى يمثل العصر القديم بتراثه الكلاسيكى والعصر الوسيط بأفكاره ومثله ومبادئه ٠ كما كانت عنده عناصر حديثة تبدو فى مهاجمته للكنيسة ومباذلها ، مناداته بمبدأ الفصل بين السلطتين الزمنية والدينية ٠

واذا انتقلنا الى حياة هذا الرجل والتى تركت اثارها الواضحة فى انتاجه الادبى ، فنجد انه ولد سنة ١٢٦٥ ٠ ومات ابواه وهو لايزال صبيا صغيرا ٠ ولا نعرف الكثير عن سنى حياته الاولى ٠ وكل ما نعرفه ان تيتمه المبكر جعله يشعر بالالم والحرمان والحاجة الى من يعطف ويحنو عليه ويتضح هذا من اشعاره واثاره الادبية ٠ فكان يحلو له ان ينادى فى الكوميديا الالهية بالابن ، وان ينادى من هم اكبر منه سنا امثال فرجيل والقديس بطرس وادم بيا ابى ٠ وفرجيل هو الشاعر اللاتينى الذى اتخذه دانتى فى الكوميديا دليلا ليقوده فى مراحل الجحيم ، وهو الذى يعزه ويقدره ٠ ودانتى فى هذا انما كان يعوض الحرمان الذى قاساه فى حياته المبكرة ٠ ولعل اهم النواحى البارزة فى حياة دانتى هو حبه لبياتريس BEATRICE الذى عبر عنه فى كتابه المسمى (الحياة الجديدة) VITA NUOVA ونعرف منه انها كانت متزوجة من شخص بارز فى المجتمع الفلورنسى ، غير مزودة بالثقافة العالية ،

ولم تستطع فهم دانتى وتقديره حق قدره . ولم يقدر لها أن تحب دانتى وقد ماتت وهى لا تزال فى شرخ الشباب . ومع ذلك فقد ازداد حب دانتى لها قوة وعمقا فجعلها اقرب الى الالهة منها الى البشر ، ورمزا للحب السامى والفضائل الحسنة والمعرفة الالهيـــة .

لقد كانت حياة دانتى فى الواقع سلسلة متصلة متلاحقـــة من المتاعب والفشل . فضلا عن المصاعب والتجارب والمحن التى مر بها . ولقد فشل فى حبه الاول لبياتريس ، وفشـــل فى حياته السياسيـة كمواطن فلورنسى ، وانتهى الامر بنفيه بعيدا عن الوطن . وفشل فى حياة المنفى نفسها ، وعاش معظم حياته فقيرا متشردا . ومع ذلك فقد كان لهذا الفشل اهمية كبـــرى بالنسبة لدانتى اذ كان امرا ضروريا لنضوجه الفكرى ، وتعـــويض النقص الذى كان يشعر به ، ممثـــلا فى هذا الانتاج الرفيع الذى خرج به علينا وخلد اســـمه فى سجـــل التـــــاريخ .

وهكذا ظلت حياة دانتى سلسلة متتابعة من البؤس والشـــقاء والالام الى أن توفى سنة ١٣٢١ بعد اصابته بمرض الملاريا .

لقد كانت هذه الحياة القاسية التى عاشها هى التى الهبت احساسه ومقدرته فى الخلق والابداع الشعرى الذى يتكشف فيما خلفه لنا من تراث خالد يتوجه تحفته الشعرية الرائعة (الكوميديا الالهية) التى تنقسم الى ثلاثة اقسام هى الجحيم والمطهر والفردوس . وهى تعبـــر عن شخصية دانتى نفسه . فهو بارز فى كل سطر فيها ، حيث يصور نفسه ويصور بياتريس وحبه لها . وهو فى ذلك انما يحاول تخليـــد نفسه عن طريق الادب . وهناك ايضا كتابه المسمى (الحياة الجديدة) الذى يصف فيه بعض مميزات بباتريس وأثرها الروحى فى شخصه وفى المعجبين بها ووضع ايضا باللاتينية دفاعا عن اللغة الايطالية الوطنية تحت اسم DE VULGARI ELOQUENTIA ضمنه اقتراحاته وتوصياته للنهوض باللغة الايطالية والعمل على توحيد لهجاتها المختلفة حتى تصبح

أداة فعالة لها قيمتها ووزنها في التعبير الادبي·وقد عمد الى كتابة البحث باللاتينية حتى يتسنى لجمهور المثقفين قراءته · ومما خلفه لنا ايضا رسالته عن الملكية DE MONARCH IA وهي الاخرى مكتوبة باللاتينية ·

ولعلنا نخلص مما سبق أن دانتي اليجييرى عاش في عصر تغير وانتقال من الوسيط الى الحديث ، حيث كان كل شيء في تغير دائم مستمر ولم يكن هناك امر ثابت على حاله · وقد عاش وسط زوابع واعاصير سياسية واجتماعية وعاطفية خلقت منه شخصية متميزة بذاتها· فقد كان في مؤلفه الكوميديا الالهية الذى كتبه باللغة الايطالية المعاصرة بدلا من اللاتينية ، يلخص فيها ما وصل اليه التاريخ الوسيط ، ويبدأ فيها ايضا بذر بذور الفكر الحديث في القرن الرابع عشر - انما يعتبر ممثلا للعالم الوسيط من ناحية واول شعراء العصر الحديث من ناحية أخرى ·

الموضوع الثامن عشر

التعليم والمدارس والجامعات

حركة التعليم فى العصور المظلمة حتى بداية حكم شارلمان :

ذكرنا فيما سبق أن العصور الوسطى شغلت عشرة قرون من الزمان أو يزيد ، وأنها تبدأ عادة سنة ٤٧٦ م بسقوط الامبراطورية الرومانية أمام جحافل المتبربرين ، وتنتهى فى سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى أيدى الأتراك العثمانيين . وبسقوطها ينهار فى الواقع آخر صرح من مؤسسات التاريخ الوسيط . ولقد بدأت العصور الوسطى بداية سيئة لم يكن لها يد فيها ، وقت كانت فيه الدولة الرومانية فى طور الاحتضار ، ولم يكن هناك بد من أن تبدأ على هذا النحو ،عندما انهالت جحافل المتبربرين فى جوفها تكتسح أمامها كل شيء . ولهذا نظر اليها بعض المؤرخين الغربيين الحديثين على أنها عصور تأخر وجمود وظلام ، وعلى أنها عصور برودة وخمول واستكانة ليس فيها من نور العلم والمعرفة شيء يذكر ، وكيف لا وقد قامت غزوات البرابرة الجرمان فى التاريخ الأوروبى على أنقاض الحضارة الرومانية الزاهرة وحلت محلها . ويرى المؤرخ المعروف ادوارد جيبون فى مقدمة مؤلفه المعنون (تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية) ، انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة حافلة بحوادث التدهور والانحطاط الذى تغلبت فيه البربرية والدين على العلم والحضارة) . وهو يعنى بذلك قضاء العناصر الجرمانية المتبربرة والمسيحية على العالم الرومانى وحضارته .

لقد أوجدت غزوات البرابرة وانهيار العالم الرومانى حالة من الفوضى والاضطراب والانهيار فى شتى مرافق الحضارة . اذ قضت على معالم المدينة الرومانية وأحلت محلها حضارة قبلية بدائية لحد ما تتعلق بالعنصر الجرمانى الغازى . ولذلك يطلق كثير من المؤرخين على الفترة المبكرة من هذه العصور ، والتى تمتد من سنة ٤٧٦ م الى سنة ٨٨٧م بالقرون المظلمة ، وعلى رأسهم و.ب.كير وجيبون . ولذلك أخذت

الحضارة الرومانية المرتبطة بالثقافة اللاتينية تنكمش تدريجيا من دول الغرب الأوروبى ، وأغلقت المدارس أبوابها ، وعم الجهل • وكان كل ما تبقى من حضارة الرومان هو بقايا ذابلة انبعثت من المؤسسات الدينية والديرية التى أخذت تنتشر بسرعة فى الغرب فى ذلك الحين •

ومع ذلك لا يجب أن نفهم مما تقدم أن العصور الوسطى المبكرة كانت خلوا تماما من حركة التفكير ومن النهوض العلمى • حقيقة شمل اوروبا بعد سقوط الدولة الرومانية ظلام دامس كنتيجة طبيعية للحال التى نشأت عن غزوات البرابرة وتدفق الجرمان من الشمال والشرق فى قلب تلك الامبراطورية وهدم نظامها العتيق فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والفكر والثقافة • ولكن هذه الحالة لم تستمر الى مالا نهاية • فقد كانت الكنيسة اللاتينية هى معقل التفكير ومنبع الحركات الادبية ، واحتفظت بطابع علمى على قدر مفهوم الناس وقتذاك، الى جانب نشاطها فى العلوم الدينية والمعارف الدنيوية • وقد اجتذبت لخدمتها عددا كبيرا من الناس الذين ذاع صيتهم وبرزت شهرتهم •

ومن هنا أصطبغ التعليم فى هذه الفترة المبكرة بصبغة دينية واضحة • فهو مرتبط بالمسيحية التى كانت قد تأصلت جذورها ، وأصبحت الدين الرسمى فى الغرب بعد القضاء على الوثنية القديمة وعبادة الاباطرة • وترتب على ذلك ظهور نهضة تعليمية فى ظل الكنيسة الجديدة التى قامت بانشاء المدارس فى الأديرة لخدمة أغراضها الدينية فحسب • وكان هذا يعنى دخول الغرب فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وارتباطه بالثقافة اللاتينية • وهكذا أخذت المدارس الديرية تنتشر فى طول البلاد وعرضها لتعليم الصغار الذين يقع عليهم الاختيار ، لكى يصبحوا قساوسة بعض المعارف والعلوم الدينية • اذ أقتصر التعليم فيها على تلقين الطلاب ما يؤهلهم للعمل فى سلك الكهنوت فحسب ، فكان عليهم دراسة اللاتينية وأسفار الكتاب المقدس والموسيقى

والألحان الدينية اللازمة لأداء الخدمات والطقوس الشعائرية ، وما الى ذلك • ومع أن هذه الدراسات قد اصطبغت بالصبغة الدينية البحتة . الا أنها كانت تستلزم على سبيل المثال تعليم رجل الدين تعليما دنيويا يتخذه أساسا لثقافته الدينية، ومنها قواعد الحساب والرياضيات والفلك والهندسة ، حتى يتسنى تحديد التواريخ والاعياد وما الى ذلك مما يتعلق بالشئون الدينية •وقد استغرق قيام هذه الدراسات وتأصلها وقتا غير قصير • وجدير بالذكر أن هذه الدراسات كانت مستقاة من تآليف ثلاثة كتاب عاصروا المرحلة الاخيرة من مراحل الحضارة الرومانية القديمة هم بيوثيوس Boethius وكاسيودورس Cassiodorus ومارتيانسوس Martianus

وكانت المعلومات التى كتبها هؤلاء فى الحساب والهندسة والفلك سطحية غير عميقة ، بعكس الدراسات المتعلقة بالنحو والبلاغة والجدل • وقد شمل النحو فقه اللغة اللاتينية وقواعدها • وظلت الدراسات اللاتينية الكلاسيكية هى الأساس لتعليم هذه اللغة • وظل طلاب العلم فى تلك العصور يطالعون مؤلفات فرجيل Virgil واوفيد OVid وبليني Pliny وشيشرون Cicero وسالوست Sallust وغيرهم من أعلام الشعر والنثر عند الرومان القدماء ـ ظلوا يطالعون مؤلفاتهم ليتعلموا البلاغة وقواعد النحو اللاتينى • وكان للجدل والمنطق أهمية كبرى فى تلك العصور ، اذ سمحت الكنيسة لرجالها بالتوسع فى دراستهما ليتسنى لها اقناع الخارجين على تعاليمها واجتذاب الناس الى حظيرتها ، أى أنها استخدمت الجدل والمنطق لخدمة الدين الجديد •

النهضة الكارولنجية فى عصر شارلمان (٧٦٨ ـ ٨٢٤م) :

عاش الغرب الأوروبى قرونا طويلة من الفوضى والظلام منذ انهيار الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الخامس على أيدى الجرمان

البرابرة ، الى أن تم أحياؤها من جديد فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠م فى عهد الامبراطور شارلمان تحت اسم (الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة) ٠ وكان استقرار الأحوال فى هذه الامبراطورية من العوامل التى ساعدت على رقى الحضارة والثقافة وازدهارهما ٠ ويرجع الفضل الى شارلمان فى احياء هذه النهضة المبكرة التى ارتبطت باسمه وشخصه اكثر من ارتباطهما بالعصر الذى عاش فيه ٠ وثمة فريق من المؤرخين يرى أن الحركة الجامعية فى الغرب انما ترجع أصولها الى نهضة شارلمان فى القرن التاسع ، وان كان هناك كثير من الجدل حول هذه المسألة ٠

لقد كان شارلمان حاكما عظيما رتب أمور دولته أحسن ترتيب ، بما يتفق وروح العصر الذى عاش فيه وتلك الدولة الشاسعة التى كونها بحروبه وفتوحاته الواسعة ٠ كذلك حالفه التوفيق فيما يتعلق بادارة تلك الدولة المترامية الأطراف ، باستعانته بالحكام المحليين ، وربط الحكومات المحلية بالحكومة المركزية ، مما أدى الى وجود حالة من الاستقرار فى الغرب بعامة وفى غالة بخاصة فى هذا العصر ٠ وانعكس ذلك على حالة الأمن التى سادت الامبراطورية ٠ فازداد الرخاء ، وعظمت الثروة كنتيجة مباشرة للقضاء على الأحوال المضطربة التى سادت الغرب فى القرون السابقة ٠ ولاشك أن نفوذ شارلمان نفسه كان من العوامل التى ساعدت على انعاش هذه الحركة ، كما كان من دواعى ازدهار الحضارة والثقافة فى هذا العصر ٠ فانتعشت الفنون بعد أن أسدل انهيار الدولة الرومانية عليها الستار ٠ كذلك بدأ الفن المسيحى يزدهر من جديد ، وعلى وجه الأخص فى العمائر الدينية التى بدىء فى تأسيسها ، وكان من أهمها الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى التى شيدها شارلمان فى عاصمة امبراطوريته وهى

مدينة آخن Achen ، والتى ظهر فيها تأثير الأساليب القديمة والبيزنطية معا • فأنتجت نوعا جديدا من الفن والمعمار لا هو بالقديم ولا هو بالبيزنطى • واصطلح العلماء والمؤرخون على تسميته بالفن الرومانى الحديث Romanesque ، وهو الفن الذى يرجع الى القرن التاسع الميلادى ، والذى تطور مع مرور الوقت وانتهى به الأمر فى غرب أوروبا الى أسلوب آخر من أساليب المعمار هو الأسلوب الوسيط البحت المعروف بالفن القوطى Gothic Art الذى تظهر فيه العناصر الجرمانية وروح الذوق الوسيط •

هذا فيما يتعلق بالفن وهو مرآة للنهضة الكارولنجية • أما عن حركة العلم والتعليم ، فقد اهتم بها شارلمان اهتماما كبيرا بالرغم من أنه لم يكن عالما أو متعلما بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة • وتعتبر هذه النهضة من أبرز مظاهر عصر شارلمان • ولم تشمل عاصمته فحسب ، وانما امتدت لتشمل بقية أجزاء الامبراطورية•ومن الامور التى ساعدت على ظهور هذه النهضة المبكرة استقرار الأحوال نوعا ما فى غالة وبقية الغرب الأوروبى ، وقيام مدنية جديدة لا هى رومانية خالصة ولا هى جرمانية خالصة ، وانما رومانية جرمانية فى نفس الوقت • يضاف الى ذلك شخصية شارلمان نفسه وحبه للعلم وتشجيعه له • ويرجع اهتمام شارلمان بالحركة العلمية أن غالة فى عصره كانت فى أمور العلم والتعليم دون مستوى بقية أجزاء الغرب الأوروبى • وصمم شارلمان على أن تتفوق غالة على جيرانها • فاستدعى الى عاصمته الكثير من علماء عصره المبرزين من الغرب ، وبخاصة من اسبانيا وايطاليا وانجلترا ، وذلك لتثقيف أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته • وهكذا استدعى الى بلاطه الفلاسفة واللاهوتين من أمثال الشاعر ثيودولف الاسبانى وبطرس البيزوى المتخصص فى النحو وفقه اللغة والمؤرخ

بولس اللومباردى والمفكر الكوين الانجليزى ، للاشتغال بأمور التعليم فى مدرسة البلاط التى أسسها فى قصره ، وعهد بتدبير أمورهـا الى الكوين • وكان شارلمان مع تقدم سنه وكثرة أعماله ومشاغله وحروبه ، لايجد غضاضة فى أن يجلس الى جانب صبيان القصر فى هذا المعهد ليستزيد من نور العلم والمعرفة • وكانت هذه المدرسة بمثابة مركز علمى متنقل ، اذ أمر شارلمان أن تصاحبه حيثما حل وأينما ذهب ، حتى فى رحلاته وأسفاره وحروبه • وكثيرا ماكان يدخل فى حوار روحى مع مدير المدرسة ، ويشجع الطلبة على المذاكرة وتحصيل العلم • والمعروف أن هذه المدرسة لم تكن من خلق شارلمان تماما • اذ سبقه الى ذلك شارل مارتل الذى أسس مدرسة الفروسية • ومع ذلك كانت مدرسة البلاط التى أسسها شارلمان تختلف عنها ، اذ اتسعت دائرة الانتساب اليها ، كما لم تقتصر الدراسة فيها على تعلم فنون الحرب والقتال انما امتدت لتشمل كافة المعارف والعلوم •

كذلك اهتم شارلمان بجمع الكتب القديمة من بين البقية التى لم تعد عليها عادية الزمن من مؤلفات اللاتين فى ايطاليا وغيرها من الأقطار • واهتم ايضا بالمكتبات ، وعمل على احياء الدراسات الدينية والأدبية والفلسفية والتاريخية • كذلك وجه عناية خاصة الى المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، وعمل على رفع المستوى الثقافى للرهبان الذين أخذوا يهملون أصول العلم والتعليم • ونلمس ذلك من خطاباته الى رجال الدين يستحثهم فيها على التزود بالثقافة الأدبية ومواصلة العلم والتعليم الى جانب الاهتمام بالشئون الدينية والأمور الروحية • وقد نص فى هذه الخطابات على ضرورة الاعتناء بالنطق السليم والكتابة الصحيحة الخالية من الأخطاء • كذلك دعا الى تدريس الفنون الحرة بجميع الكنائس •

وعند التحدث عن النهضة الكارولنجية ، نجد أن التاريخ يحتل

مكانا بارزا فيها • لقد انتعشت حركة التدوين التاريخي في عصـــر شارلمان ، وتقدم فن الكتابة التاريخية • ومن كتب التاريخ التي ترجع الى عهده كتاب انهارد Einhard المعنون « حيـــــاة شارلمان » Vita Karoli ، وهو المصدر الأدبي الأساسي في هذا الموضوع • وقد كتب شخص آخر يدعى اذلهادر Adelhard مؤلفا عن نظام حكومة الدولة De Ordine Palati • وقد ضاع أصل هذا الكتاب المخطوط في عصر متقدم ، ولكن أحد رؤساء أساقفة ريمز في القـرن التاسع واسمه هنكمار Hincmar احتفظ بمـــادته الأساسية في رسالة موجودة حتى اليوم • ولاشك أن تأثير هذه النهضة الجديدة قد امتد الى كثير من مرافق الحياة والعلم ، منها حركة تحسين الخطوط • اذ تطور الخط في هذا العصر تطورا معروفا عند علماء الخطوط •

والخلاصة أن النهضة الكارولنجية كان لها أكبر الأثر في تطور الحياة الفكرية في الغرب ، وفي احياء اللغـــة اللاتينية والدراسات المتعلقة بها • ولكن يجب ألا نبالغ في تقدير ماوصلت اليه الحضـــارة الكارولنجية في الفنون والآداب والعلوم ، ويجب أن ننظر اليها كأول خطوة متواضعة نحو الامام ، وحركة طيبة في سبيل التقدم بعد عصور شملها الظلام الحالك منذ سقوط الدولة الرومانية وانهيار الحضارة والمدنية العظيمة المرتبطة بها •

نشأة الفكر الحر في العصور الوسطى منذ وفاة شارلمان حتى القرن الثاني عشر :

لم يلبث الغرب أن عاد الى حالته الأولى من الفوضى والركـــود والخمول المذهني بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م ، وتقسيم دولتـــه الواسعة بين خلفائه • فساد الظـــلام حتى أخريات القرن العـــاشر تقريبا ، حيث تعطلت الحياة الفكرية تعطلا يكاد أن يكـــون تاما ، وذلك باستثناء المدارس التابعة للمؤسسات الدينية التي ظلت تؤدي

رسالتها الثقافية كما كان الحال من قبل . وقد سميت هذه الفتـرة باسم العصر البندكتى نظرا لما قامت به أديرتها من نشاط واضح فى ذلك الوقـــت .

واعتبارا من القرن الحادى عشر بدأت اوروبا تدخل فى فتـرة استقرار جديدة فى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصـادية ، بعد أن خفت غزوات الجرمان ، وبعد أن استرد المجتمع أنفـــاسه اللاهثة . وكان من أهم الآثار المترتبة على ذلك الانتعاش التـدريجى الذى أصاب النهضة الفكرية.وأخذت الحياة العلمية الجديدة تستمد أصولها من النهضة الكارولنجية . فنجد مثلا أن نظم التعليم ومناهجه تنمو على نفس الأســـاس الذى قامت عليه المدارس الدينيـــة أيام شارلمان . وبانتهاء القرن الحادى عشر وبداية القـــرن الثانى عشر ، كانت هذه الحركة المدرسية قد ازدهرت وأصبحت الأســاس الـــذى انبثقت منه الجامعات الأوروبية فى أخريـات العصور الوســـطى . ولاخلاف أن هذين القرنين كانا يمثلان ثورة شاملة فى شتى مـرافق الحياة الأوروبية ، ثورة فى الحياة الديرية وفى الفنون وفى النواحى الدينية والفكرية . وتميزت هذه الفترة بالاحتكاك الفكرى بين الغرب والحضارة العربية عندما تدفقت المعارف والعلوم العربية واليونانيه الى أوروبا عن طريق مراكز الاشعاع الثقافى الأربعة وهى : الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا وبلاد الشـــام ومصر . وأقبل الأوربيـــون يرتشفون منها حتى ضاقت بهم المدارس الدينية ، فقامت الجامعات لتحتضن هذه المدارس الجديدة وتشملها برعايتها وتشجيعهـــا ، حتى غدت منارا للعلم تخرج منها الشباب المثقف المستنير من العلمـاء والمفكرين ورجال الدين الذين نادوا بالفكر الحر والمناقشة الحرة .

وعلى هذا يمكن القول ان النهضة العلمية الأولى التى اشتهرت باسم نهضة القـــرن الثانى عشر بـــدأت أول مابدأت فى المؤسسات

الدينية · فقد أخذت الأديرة تعنى بالكتابة والأدب ، واحتوت أغلبها على المكاتب بين جدرانها ، وعلى مهرة النساخ والكتاب من بين الرهبان للعمل على تحقيق اتجاهاتهم العلمية · وقد خصصت أمكنة فيها للمهتمين بشئون الكتابة والنسخ والقراءة والتأليف عرفت باللاتينية باسم Soriptorium - a · ويلاحظ أن القائمين على الاصلاحات الدينية فيما بعد وأهمها الاصلاح الكلونى ، لم يهملوا هذه النزعة الأدبية ، بل شجعوها حتى نمت وانتعشت ، وألحقت بالكثير من الأديرة الكلونية المدارس لتعليم الأطفال من بين أولئك الذين أراد أباؤهم أن يدخلوهم فى سلك الكهنوت أو فى خدمة الحكومة · وفى تلك الأثناء واصلت الجماعات الرهبانية الأخرى التى نشأت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مثل السسترشيان Cistercian Order والفرنسسكان Franciscan Order والدومينيكان Domincan order وغيرها ، نشاطها العلمى حتى أصاب الكثير من بين رجالها بسهم وافر فى الفلسفة والقانون ومختلف العلوم · وقامت على أكتاف بعضهم نهضة القرن الثانى عشر ، حينما احتكت الأذهان والأفكار والعقول بين العنصر الرجعى من المفكرين وبين العنصر المجدد من القائلين بالتفكير الحر · فكانت هذه هى أول نهضة علمية بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح ظهرت منذ انهيار الدولة الرومانية القديمة ، وكان لها الفضل فى نشأة الجامعات فيما بعد ·

المفكرون والدعاة الى تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر :

لقد نشأت هذه النهضة كنتيجة طبيعية لاحتكاك الفكر بين عنصرين متباينين من المفكرين · ويمثل هذين العنصرين أصدق تمثيل شخصيتان من أهم الشخصيات التى ملأت العصور الوسطى ضجيجا وجدلا ، هما شخصية القديس برنارد أوف كليرفو St. Bernard الذى يمثل الفكرة الدينية المتزمتة القديمة والذى قامت نظرياته على

أساس الكنيسة وعالميتها ، فكان بحق أصدق ممثل للتفكير الديني الوسيط . أما الشخصية الثانية فهي شخصية بطرس ابيلارد زعيم الفكر الحر وتحرير الذهن من التقاليد البالية في تلك القرون الغابرة التي سيطرت فيها الكنيسة على تفكير الفرد وعقليته وعلى مقدراته وحياته الخاصة والعامة ، بحيث لم يكن من السهل عليه الافلات من تلك الدائرة العنيفة المغلقة التي وضعته فيها والتي عاش اسيرها قرونا طويلة .

يعتبر القديس برنارد من الشخصيات البارزة التي نشأت في أحضان جماعة الاخوان السسترشيان . عاش في الفترة من سنة ١٠٩١ الى سنة ١١٥٣م . وكان من أشد المناصرين للنظام البندكتي بعد ادخال الاصلاحات الجديدة عليه . وكان متصوفا موغلا في انكار ذاته. أسس ديره المشهور في مدينة كليرفو وأصبح رئيسا له . وان استعرض تاريخ العصر الذي عاش فيه يبين بجلاء أن جانبا كبيرا من أحداث النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي كانت تدور حول شخصيته. ولكي ندرك نفوذه الكبير في عصره ، نذكر على سبيل المثال من نشاطه أنه هو الذي حسم النزاع البابوي الذي قام سنة ١١٣٠م ، وهو الذي قضى على الانقسام الكنسي في الغرب باعادة البابا الى كرسيه في روما. وكان البابا ايوجين الثالث من تلامذته . وفي ذلك العصر الذي امتلاء بضجة الحروب التوسعية التي عرفت باسم الحروب الصليبية ، كان القديس برنارد هو الداعية للحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م بهدف الاستيلاء على الرها التي كان قد استعادها عماد الدين زنكي من الصليبيين سنة ١١٤٤م . واليه أيضا يرجع تأسيس جماعة من أهم الجماعات الرهبانية المحاربة في تاريخ العصور الوسطى ، وهي جماعة الفرسان الداوية Templars .

لقد كان هذا الرجل عملاقا من عمالقة الفكر ، وامتد نفوذه وأثره

امتدادا يكاد لا يدركه العقل · وان هذه الأعمال الضخمة التى التهمت كل وقته لم تشغله عن العناية بأمر الدرس والكتابة والتأليف ، بدليل ماتركه من رسائل ومؤلفات جمعت بين البلاغة والتفكير والمنطق · ولكن يجب أن نعرف جيدا أن أساس تفكيره كان الدفاع عن تعاليم الكنيسة اللاتينية واستئصال شأفة كل ما ينم عن الهرطقة أو الخروج عن تعاليم الكنيسة · فكان حماسه الزائد للأفكار والمثل والمبادىء الدينية القديمة المتزمتة مدعاة لاصطدامه مع زعيم من أكبر زعماء حركة تحرير الفكر الانسانى فى القرن الثانى عشر ، ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق ، ونعنى به الفيلسوف بطرس ابيلارد ·

يعتبر بطرس ابيلارد (١٠٧٩ ـ ١١٤٣ م) زعيم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر ، وهو صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة فى كل شىء حتى فى طبيعة المسيح نفسه · درس فى مستهل حياته على أئمة العلم فى عهده ، ومنهم وليم أستاذ المنطق فى مدرسة باريس ، وانسليم اللاهوتى وغيرهما · وكان ابيلارد يثير عاصفة قوية من الجدل فى أى مكان يحل به · وكثير ماينتهى النقاش بتفوقه على أساتذته بعد أن يبين لهم نقط الضعف فى فلسفتهم · وانتهى به الأمر الى تأسيس مدرسة خاصة فى أحد أحياء باريس · ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد اكتظت بطلاب العلم من جميع أنحاء اوربا · ونجح الى حد كبير فى تدعيم أفكاره ومبادئه بين الطلاب · ولكنه بعدئذ أحب تلميذة له أسمها هلويز Heloise وحدث بينهما ما دفعه الى ترك باريس حيث أعتنق الرهبنة بدير القديس دينس St. Denis ولكنه استمر فى المحاضرة والمجادلة على أساس سياسة الشك والتشكك فى كل الأمور حتى فى طبيعة المسيح وما الى ذلك من المسائل الخطيرة واضطرت الكنيسة بعد أن وجدت خطر ابيلارد يشتد عليها الى محاكمته أمام محكمة سواسون Soissons سنة ١١٢٢م ، وحكمت عليه بالهرطقة وابعاده من ديره ·

وظل ابيلارد شريدا فترة من الزمن الى ان حل بمنطقة كوينسي Quincy بمقاطعة شامبانيا . وهناك بنى لنفسه كوخا وكنيسه صغيرة من القش . ولم يمض وقت طويل تبعه عدد كبير من تلامذته الأولين الذين استمروا حوله ينصتون الى تعاليمه ومحاضراته . وازداد أتباعه ومريدوه من المشتغلين بالعلم والتعليم . فلم تجد السلطات الدينية بدا من العفو عنه . وأخذ يتدرج ثانية فى سلك الكهنوت حتى أصبح رئيسا لدير القديس جيلداس St: Gildes بمقاطعة بريطانى الفرنسية . ولكنه وجد ألا حياة له بين عدد من الرهبان الافظاظ الذين يكرهون العلم والتعليم ، فهرب من ديره وعاد مرة ثانيــة الى باريس ليقضى شطرا من حياته فى الجدل الحامى والنقاش الشديد مع القديس برنارد . وكان ابيلارد لا يعبأ بالتقاليد الدينية والشائعة فى القرون الوسطى المبكرة ، ولايخش المجاهرة بالشك فى التعاليم المسيحيــــة أيا كانت . وكانت فلسفته تقوم على الشك حسبما أسلفنا . فالوصول الى الحقيقة فى نظرة لايتأتى الا عن طريق التشكك والمعارضة . ووجدت الكنيسة فيه هذه المرة خطرا يهدد كيانها وسلطانها ، وحكم عليه البابا انوسنت الثانى بالهرطقة . وظل طريدا الى أن حصل على مأوى فى دير كلونى الرئيسى حيث عكف بقية حياته على الدرس والمحاضرة .

ومن أهم مؤلفاته التى خلفها لنا كتابه المعروف باسم (نعم ولا) "Sic et Non" الذى قدم له بكلمة عن تفسير الكتاب المقدس . وقد ضمنه فلسفتة الشهيرة ، وقدم فيه موضوعات خصبة للبحث والمناقشة كما جمع فيه الآيات التى يبدو فيها التناقض وعدم الانسجام من الكتاب المقدس بقصد المقارنة دون محاولة التوفيق بينها .

ويبدو مما تقدم أن الحزب الرجعي بزعامة القديس برنارد قـد احرز انتصارا مؤقتا على حركة تحرير الفكر التى نادي بها بطرس ابيلارد اذ صمدت قوة فلسفته فى الاجيال التالية . ويكفى أن تلامذته وصلوا

الى مراكز عليا فى الكنيسة اللاتينية ، ومنهم تلميذه بطرس اللمباردى الذى شغل منصب أسقفية باريس ، ووضع مؤلفا باللاتينية باسم (كتاب الجمل) "Liber Sentiae" ضمنه الكثير من مبادىء استاذه ، وأصبح عمدة فىدراسةاللاهوات فى الفترة الباقية من القرونالوسطى . ويعتبر (كتاب الجمل) أوفى من كتاب (نعم ولا) ، اذ حاول فيه مؤلفه التوفيق بين مختلف الآيات المتناقضة فى الكتاب المقدس ، حتى عدا هو الكتاب الذى يرجع اليه علماء اللاهوت . وكان هذا الكتاب فى القرن الثالث عشر قد أغنى بالمرة عن دراسة الكتاب المقدس .

وكان من الدعاة الى تلك الحركة الجديدة التى دعت صراحة الى تحرير الفكر من كل القيود بما فى ذلك القيود الدينية وتعاليم الكنيسة اللاتينية الى حد الهرطقة فى بعض الأحيان ، هو برنجار التورى Berengar of Tours وهو أحد المعلمين بكاتدرائية مدينة تورر بجنوب فرنسا . وقد تشكك هذا الرجل فى أمر الجسد المقدس والدم المقدس المعروف بالأفخارستية Eucharist ، وهى العقيدة الشائعة بين الناس القائلة بأن القربان والنبيذ ينقلبان فعلا الى الجسد المقدس والدم المقدس . ولما كان فيما ينادى به برنجار تهديدا خطيرا للعقيدة نفسها ، فقد انبرى له رئيس أساقفة كانتربرى ، وهو من الحزب الدينى المحافظ ويسمى لانفراتك Lanfranc واضطر برنجار تحت الضغط والتهديد الى سحب اعتراضاته على العقيدة المسيحية .

بعد ذلك قام شخص آخر يدعى روسيلينوس Roscellinus (١٠٥٠ - ١١٢٠ م) ، الذى يعتبره البعض رسول نهضة القرن الثانى عشر ، والذى افتتح أزهى عصور الفلسفة المدرسية وقتذاك Scholasticism وقد أخذ هذا المفكر - شأنه شأن غيره من المفكرين الغربيين وقتها - فى تطبيق أساليب العقل والمنطق فيما يتلقونه

من دراسات لاهوتيه · فهاجم مبدأ الثالوث الأقدس Trinity وهو فكرة الاله الواحد ذى الصـــفات الثلاثة · ونتيجة لذلك أدين رسيلينوس بتهمة الهرطقة ·

وقد تصدى له القديس انسليم Anselm (١٠٣٣ — ١١٠٩م) أحد رؤساء أساقفة كانتربرى الذى قامت فلسفته على أساس تقبل الايمان دون جدل أو مناقشة · فوضع عدة مقالات باللاتينية عن طبيعة الله ، أهمها تلك التى تسمى ، لماذا تجسد الله فى شخص انسان ؟ وأوضح فيها فلسفته المعروفة فى أن العقيدة يجب أن تتقدم الفكر عند الانسان وعلى هذا يصبح الشك فى طبيعة الثالوث أمرا باطلا ·

وخلاصة القول ان هؤلاء المفكرين وغيرهم قد أسهموا بنصيب كبير فى الربط بين مبادئهم التى نادوا بها وبين نظريات علم اللاهوت وقد ترك ابيلارد بصفة خاصة ، أثرا عميقا فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية ، وبلغت الحركة الدراسية فى أيامه مرحلة الارتباط بالحركة الجامعية الناشئة · وبالرغم من أن أولى الجامعات الأوروبية لم تظهـــر الا بعد جيل من وفاة ابيلارد ، فقد كان ابيلارد هو صاحب الفضـــل الأول فى اثارة موجة من النشاط الفكرى ، وهى التى هيأت الجـــو لظهور جامعة باريس فيما بعد · لقد أصـــبح كتاب (نعم ولا) الذى بحث فيه عددا من المسائل اللاهوتية بطريقة جدلية فلسفية ، أصبح نموذجا لمن خلفه من اللاهوتيين والفلاسفة فى دحض آراء معارضيهم · وهكذا أصبحت طريقة السؤال والجواب هى الطريقة المثلى فى التدريس بالجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى المتأخرة · كذلك كان ابيلارد هو الرجل الذى استهل الحركة الجامعية فى أوروبا الغربية · · ذلـــك أن المدارس الديرية بعد أن أغلقت أبوابها فى وجه الطلاب العلمانيين بعد حركة انسيلم المعروفة ، لتتجه هؤلاء الطلاب الى المدارس الكاتدرائية

التى كانت أكثر ميلا نحو الطابع العلمانى • وكانت مدرسة كاتدرائية باريس التى قام ابيلارد بالتدريس فيها ، وهى النواة التى انبثقت منها أولى الجامعات وأعظمها فى غرب اوروبا ، الا وهى جامعة باريس •

وشاءت الظروف أن صاحبت شهرة ابيلارد العلمية فى باريس ، ارتفاع شأن هذه المدينـة فى الناحيتين السـياسية والاقتصاديـة ، فأصبحت محطا لطلاب العلم يفدون اليها من مختلف بـلاد الغرب لفترة غير قصيرة من الزمن • وأصبحت تتمتع بهذا المركز العلمى المرموق الذى وضع أساسه ابيلارد الى أن ظهرت مجموعة أخرى من الجامعات الأوروبية وعندئذ بدأ الضغط يخف بعض الشىء عن باريس وجامعتها •

نشأة الجامعات الأوروبية وانتشارها فى أوروبا

العلم والتعليم في العصور الوسطى والمراحل التى مر بها :

أ) الكنيسة اللاتينية والتعليم فى العصور الوسطى :

اذا تحدثنا عن التعليم فى أوروبا فى العصور الوسطى ، فأول ما يتجه النظر اليه هو الكنيسة اللاتينية التى كانت تعتبر المشعل الذى أضاء ظلمات القرون الاولى من تلك العصور حسبما أسلفنا . فقد ارتبطت بها حركات الاصلاح التى ظهرت فى أوروبا من وقت لاخر ، وأصبحت بحكم مركزها فى الغرب المهيمنة على التعليم منذ البداية . وكانت معاهد العلم من ملحقات الكاتدرائيات والأديرة والكنائس الكبرى فترة غير قصيرة من الزمن . وكان من الطبيعى أن يرتبط تأسيس مثل هذه المدارس المبكرة بالدين . فلم يكن الغرض الأصلى منها هو اعداد أفراد الشعب لمواجهة مطالب الحياة الدنيا ، وانما كانت وسيلة لاعداد النشىء والصغار لكى يصبحوا قساوسة فيما بعد ويخدمون فى سلك الكهنوت . ولذلك أضحى التعليم فى تلك القرون المظلمة التى استهل بها التاريخ الاوروبى الوسيط صفحته هو تفهم الدين وتلاوة الصلوات وقراءة الكتب المقدسة وشرحها وتفسيرها والقيام بالطقوس والخدمة الدينية الكنسية . وكان الأساقفة ورؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة بحكم مراكزهم هم نظار هذه المدارس ومديريها بل ومؤسسيها .

وقد ارتبطت مناهج الدراسة فى تلك المدارس بما يحتاج اليه الطالب لتفهم العلوم اللاهوتية ، والقيام فى النهاية بواجبه كرجل من رجال الدين . ولذلك كانت الأجرومية وقواعد اللغة اللاتينية هى أول المواد وأهمها ، والتى اعتنى المعلمون بتدريسها لطلابهم . ويأتى بعد ذلك المنطق والجدل ، أى العلوم الكلامية للاستعانة بها فى اجتذاب الخارجين ، هذا ، الى جانب قواعد الحساب والفلسفة . وكان التلميذ يتلقى أحيانا دروسا فى فن الموسيقى وقواعد الغناء حتى يتمكن من

أداء التراتيل الكنسية • ويجب أن نفهم أن كل هذه المواد والمعارف الدنيوية كانت مجرد أداة لتفهم الدين فحسب ، وان كانت قد ساعدت فيما بعد على تطور الفكر البشرى وتحرره من القيود العتيقة التى عاش أسيرها عدة قرون نتيجة الضروف التى ألمت بأوروبا عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط • وقد عبر عن هذا التفكير القديس اوجسطين أوف هيبو . Augustine of Hippo فى القرن الرابع ، وردد صدى هذا القول في القرن الثالث عشر الميلادى القديس بونافنتورا Bonaventura بقوله : « ليس من المستطاع فهم الكتب المقدسة بدون دراسة مختلف العلوم دراسة علمية » •

ب ـ المدرسة الوسيطة :

لقد اقتصر العلم في تلك القرون المبكرة على طائفة معينة هى التى أعدت فى الغالب لكى تعمل فى السلك الدينى حسبما أسلفنا • ولهذا كان الاقبال على المدارس محدودا • أما الطبقات الفقيرة فلم يكن بوسعها ارسال أبنائها الى هذه المدارس فى أول الأمر • ولذلك اضطر المشرفون عليها الى تخفيض مصروفاتها حتى تصبح في متناول هذه الطبقات ، خاصة وأن الطبقات الشريفة لم تتجه الى العلم واعتبرته أمرا لايناسب مقامها • فصناعتها الفروسية والقتال والحروب الاقطاعية التى شغلت نفسها بها ، ولم يكن فى القراءة أو الكتابة مايشرفها أو يرفع من قدرها • مثال ذلك احدى مدارس أجرومية اللغة فى اكسفورد بانجلترا حيث كانت حياة الطالب من معاش وتعليم تكلفه حوالى ثمانية بنسات فى الاسبوع فى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٠٠ و ١٣٤٧ م • وحتى هذا المبلغ الضئيل لم يكن فى متناول الطلاب وقتذاك بسبب الغلاء الفاحش • وبلغ الأمر أن أقفرت تلك المدرسة من طلاب العلم اقفارا يكاد أن يكون تاما ، حتى اضطر أولو الأمر فيها الى تخفيض هذا المبلغ الى حوالى النصف • ومع ذلك فقد ظل الاقبال على المدرسة محدودا حتى فكرت الكنيسة فى اصدار تشريعات القصد منها مساعدة الطلبة ماديا لمواصلة دراساتهم •

وكان العمل فى هذه المدارس جافا قاسيا ، فلم يكن هنـــاك اجازات دراسية للراحة بالمعنى المفهوم ، انما اقتصرت تلك الاجازات على الأعياد العامة وأيام القديسين التذكارية · فواجب الطالب الأول هو العمل الدائب المستمر ، وحتى لايعطى فرصة اذا مامنح اجـــازة طويلة لاقلاق الراحة العامة فى المدن · أما العقاب فكان بدنيا قاسيا ، حيث يضرب الطالب المذنب ضربا شديدا ويودع سجن المدرسة المظلم الكئيب · وكان مدرس العصور الوسطى لايرى الا والعصا عى يده · أما الألعاب فكانت محرمة تحريما باتا ، اذ اقتصرت مهمة الطـالب على التحصيل العلمى · ولم يهتم المدرسون باثبات حضور الطلبـــة أو غيابهم عن المدرسة ، فقد كان ذلك موكولا للطلبة وأوليـــاء امورهم الذين يهمهم مصلحة أبنائهم · وكان المدرسون يحصلون مرتباتهم من المصروفات التافهة التى يدفعها التلاميذ · وعلى ذلك لم يزد المرتـــب السنوى الذى كان يأخذه المعلم عن عشرة جنيهات ·

ج ـ مدارس القصور والفروسية :

وبالاضافة الى المدارس الدينية ، كان هناك نوعان من المـــدارس المحدودة العدد هما : مدارس القصور ومدارس الفروسية · أما عن مدارس القصور فقد بدأها شارلمان بتأسيس مدرسة البلاط فى أوائل القرن التاسع وأحضر اليها كبار الفلاسفة والمعلمين من الغرب لتثقيف أبنائه وأبناء حاشيته · فاجتذب اليها المعلمين من انجلترا ومختلـف أنحاء القارة الأوروبية · وممن قام بالتعليم فيها الفيلسوف الكوين الانجليزى ، وبولس وباكونوس الايطـــالى ، وكلمنت الايرلنـــدى وثيودولف الاسبانى · والواقع أن الهدف من مثل هذا النـــوع من المدارس هو الاشراف على أنجال الامبراطور وأبناء كبار رجال الحاشية · وبالرغم من أن شارلمان لم يكن متعلما تعليما عاليا ، الا أنه كان رجلا مستنيرا · ويذكر الرواة والمؤرخـون أنه كان يحضر بنفســه بعض

الفصول التى تعقد فى مدرسة القصر ، ويناقش الأساتذة ويناقشونه مناقشة علمية ، ويتلقن العلم على أيديهم مع أبنائه وأبناء حاشيته ٠

وقد نهج الفريد الكبير ملك انجلترا الأنجلوسكسونى (٨٧١ ـ ٩٠١ م) نهج شارلمان ، عندما أسس فى أواخر القرن التاسع مدرسة القصر لأبنائه وأبناء حاشيته وغيرهم من كبار رجال الدولة ٠ وقد استدعى اليها العلماء والأدباء والمفكرين من المانيا وفرنسا ليستعين بهم على تثقيف نفسه وشعبه ، ومن بين هؤلاء الأسقف آسر الغالى Asser the Welshman الذى عاش فى القصر الملكى ٠ وهكذا نجح الفريد فى تكوين طبقة من المثقفين عملت على نشر العلم والمعرفة فى سائر أنحاء الجزيرة البريطانية ٠

هذا عن النوع الأول من هذه المدارس ، أما النوع الثانى فهو مدارس الفروسية ، ويقال ان شارل مارتل هو أول من أسس هذا النوع من المدارس فى أوائل القرن الثامن ٠ وكانت مهمتها قاصرة على تربية النشىء تربية بدنية واعدادهم لكى يصبحوا فرسانا محاربين ٠ وكانت مقصورة على طبقة الأشراف فحسب ٠ وكان غرضها هو تدريب الطلبة على الأعمال المتعلقة بالفروسية وركوب الخيل واستعمال السيف فى المبارزة والطعان ، وغير ذلك من الشئون العسكرية التى تتعلق بأعمال الحرب والقتال ٠

الأدوار التى مرت بها الجامعة منذ البداية الى أن اكتملت شخصيتها :

لاخلاف أن تأسيس الجامعة بمعناها المعروف فى كل العصور يعتبر من أهم الآثار الفكرية التى انتجتها العصور الوسطى المتأخرة فى دوائر العلم والتعليم ٠ اذ ليس هناك فيما سبق من القرون الماضية أيام اليونان والرومان القدماء مايدل على وجود مثل هذه الفكرة الجامعية التى عرفناها لأول مرة فى العصور الوسطى ٠ وان التاريخ

القديم بكل ماوصل اليه من الرقى فى شتى نواحى الحضارة الفكرية لم يكن فيه جامعة واحدة بالمعنى الذى نفهمه ·

فالجامعات ، اذن ، بشكلها ونظمها هى من مخلفات القـــرون الوسطى فحسب · وهى تعبر بحق عن روح تلك العصور التى نشأت ونمت وترعرعت فى ثناياها · وكان يطلق عليها فى العصور الوسطى باللاتينية اسم « المدرسة العامة » Studium Generale أى المكـان العام الذى يستقبل طلاب العلم الوافدين اليه من جميع الجهـــات ، حيث يتلقون قسطا من الدراسات العليا على أيدى أساتذة مختصـين · وقد شاع لفظ المدرسة العامة عند مستهل القرن الثالث عشر الميلادى، وهو الذى يعبر عن الجامعة فى معناها الحديث · وهى بذلك تختلف عن المدارس المحلية المحـدودة السالف الاشـــارة اليها مثل المـــدارس الدينية بمختلف أنواعها ومدارس القصور و الفروسية ·

وجدير بالذكر أن هذه الجامعات ، شأنها شأن أى ظاهرة من ظواهر العصر الوسيط وأى حركة من حركاته ، لم تنشأ من العـدم ، ولم تظهر طفرة واحدة فى محيط العلم · اذا كانت نتيجة طبيعية لعدة عوامل وظروف توالت على مرور الأجيال الى أن انتهت بغرس النواة الجامعية التى أخذت تنمو نموا تدريجيا بطيئا مستمرا ، الى أن نشبت وترعرت وأخيرا نضجت واكتملت بمختلف كلياتها ومناهجها ومدرسيها وأنظمتها وتقاليدها العلمية والتعليمية ·

ويمكن تلخيص الأدوار التى مرت بها الجامعة فيما يلى :

الدور الأول : المدارس العامة الملحقة بالكنائس والأديـــــرة والكاتدرائيـــــات :

يقع الدور الأول من تاريخ نشأة الجامعات فى المدارس العـامة الملحقة بالكنائس والأديرة والكاتدرائيـات ، وهى التى شجعها كبـار

رجال الدين لتثقيف الطلاب ثقافة دينية بحتة. كذلك لقيت هذه المدارس عناية العلمانيين من الحكام والملوك والأباطرة منذ أيام شارلمان الـذى كان أول من قام بتأسيس مدرسـة القصر ، واستمع الى الكثير من الدروس التى ألقيت فيها . ثم أمر بتأسيس مدرسة بكل دير ، وأباح التعليم فى تلك المدارس لمن يرغب فيه بدون مقابل ، وكان ذلك فى أوائل القرن التاسع الميلادى . وسار على خطاه الملك الفريد السكسونى فى أخريات ذلك القرن . وقد ازدهرت بعض هذه المدارس ورجحت على غيرها ، وذاع صيتها نتيجة لظهور أساتذة أكفاء فيها ، مما دفع طلاب العلم من كل حدب وصوب الى الاقبال عليها لتلقى العلم على أساتذتها . وبذلك اتسع نطاقها وعظم شأنها . هذا، بينما تدهورت بعض المدارس الأخرى التى لم تسمح لها الظروف الوقوف على قدميها ، وانتهى بها الامر الى الزوال .

الدور الثانى : المعهد العلمى :

تلا تأسيس المدارس فى الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية ، ازدهار تلك المدارس ونموها فى الدور الثانى ، حيث تحولت المدرسة الكنسية أو الديرية أو الكاتدرائية الى معهد علمى كبير بفضل أساتذته الذين يحاضرون فيه . فكلما ارتفعت مكانة الأساتذة العلمية كلما ارتفع شأن المعهد الذى يحاضرون فيه ، كما حدث مثلا فى عهد الفيلسوف بطرس ابيلارد صاحب فلسفة الشك الشهيرة حينما أخذ يحاضر فى باريس ، وقام القديس برنارد بتفنيد آرائه وتعاليمه ومقارعته الحجة بالحجة . فهرع اليهما آلاف الطلاب من الدول والممالك المجاورة يستمعون اليهما مما لم تألفه باريس من قبل . وهكذا أخذ الاقبال يتزايد على تلك المعاهد لتلقى العلم ، وبخاصة خلال القرن الثانى عشر الذى يرتبط بقيام النهضة الفكرية الأولى ، وهو القرن الذى بدأت الجامعات تظهر فيه ظهورا واضحا .

الدور الثالث : انشاء اتحاد الطـــلاب :

أخذ عدد الطلاب فى تلك المعاهد يزداد زيادة مطردة ، فقد بلغوا الألوف المؤلفة فى باريس وحدها · وهذا نفس مايمكن أن يقال بالنسبة للمدن الجامعية الهامة · وازاء ذلك قرر الطلبة أن ينشئوا فيما بينهم اتحادا Unit أو نقابة Guild ، على نســـق ماكان جاريا فى العصور الوسطى بين طوائف التجار والعمال والصناع ، حتى تكــون بمثابة شخصية معنوية تنظر فى مشاكلهم وترعى شئونهم ومصالحهم ، حتى يتسنى لهم مواصلة الاشتغال بالعلم والتعليم فى راحة وهدوء ·

الدور الرابع : الاعتراف الرسمى بكيان الجامعة :

أما الخطوة الرابعة والأخيرة فى تكوين الجامعات الأوروبية فكانت عبارة عن الاعتراف الرسمى بكيانها وشخصيتها من جانب السلطات الدينية والدنيوية على السواء·وبذلك أصبح للجامعة من الحقوق الخاصة كوحدة مستقله ما يضمن لها تنظيم أمور التعليم فيها ، ومنح الدرجات العلمية ، وما الى ذلك مما يضمن لخريجيها حق ممارسة التدريس اما بالدخول فى السلك الكنسى أو الانضمام الى خدمة الحكومة · ونضرب مثلا لذلك بجامعة باريس التى منحها فيليب اوغسطس ملك فرنســا والبابا الرومانى انوسنت الثالث المراسيم حوالى سنة ١٢٠٠م · فقد نص مرسوم البابا جريجورى التاسع الذى منحه لتلك الجامعة ســنة ١٢٣١م على ضرورة الاهتمام والتدقيق عند اختيار الاساتذة للعمل بالجامعة ، حتى لايقع الاختيار الا على الأكفاء فحسب ، وذلك حفاظا على المستوى العلمى للجامعة هذا فضلا عن تنظيم شئون الطلبة فيما يتعلق بالمحاضرات وعددهـــا ومواعيدها والاجـــازات والزى المميز والتشريعات الخاصة بحمايتهم ، وغير ذلك من الامتيازات ·

أشهر الجامعات الأوروبيــة

وكيفما كان الامر ، فقد وجدت فى أوروبا فى مستهـل القرن الثالث عشر الميلادى ثلاثة مراكز علمية جامعة تمتعت بشهرة عالمية ، وتخصصت كل منها فى ناحية ، برزت فيها • الأولى وهى جامعة باريس وقد اشتهرت باللاهوت والآداب ، والثانية هى جامعة بولونيا بايطاليا واشتهرت بالقانون • أما الثالثة فهى جامعة سالرنو وتخصصت فى الطب ، وظلت تتمتع بشهرة واسعة فى هذا الميدان زهـاء قرنين من الزمان • وفيما يلى عرض مركز لتاريخ جامعتى باريس وبولونيا ، لما كان لهما من أثر فى نشأة وتطور بقية الجامعات التى عرفتها اوروبا منذ أواخر القرن الثانى عشر •

١ ـ جامعة باريس :

لقد ولدت هذه الجامعة داخل نطاق أسقفية باريس ومدرستها • واتخذت منذ البداية طابعا دينيا واضحا ، اذ اتجهت فى دراستها نحو اللاهوت والفلسفة شأنها فى ذلك شأن بقية الجامعات فى شـمال أوروبا • وقد تعددت الروايات حول الأصول الاولى لجامعة باريس • فمن قائل انها ترجع الى مدرســة القصر فى عهد شارلمـان فى القرن التاسع ، ومن المؤرخين من ربط بينها وبين المدارس التى قام بطرس ابيلارد بالتدريس فيها فى القرن الثانى عشر مثل مدرسة كاتدرائية نوتردام ومدرسة القديسة جنيفيف ومدرسة كنيسة القديس فيكتور • وقد اختلفت آراء المؤرخين الغربيين الحديثيين أمثال راشدال Rashdall وهاسكنز Haskins حول هذه الروايات ومدى صحتها • وهى لازالت تحمل الكثير من الدراسة والبحث والاستقصاء •

والمهم أن باريس اكتسبت شهرة علمية كبيرة منذ أيام الفيلسوف ابيلارد ، وازداد عدد الوافدين اليها من مختلف أنحاء الغرب من طلاب

المعرفة • كما ازداد بالتالى عدد الأساتذة اللازمين لتعليم هذه الأعداد الغفيرة من الطلبة ، حتى انتهى الامر بقيام رابطة أو نقابة أو جامعة Universitas وهى لفظ كثر استعماله فى اوروبا وقتذاك • وكانت مهمة هذه الرابطة هى تنظيم أمور هؤلاء الأساتذه وعلاقتهم بعضهم ببعض من ناحية وعلاقتهم بالمجتمع المحيط بهم من ناحية أخرى •

وكان على المدرس الراغب فى التدريس الحصول على ترخيص بمباشرة مهنته من أمين الكاتدرائية فى باريس المكلف بالاشراف على شئون التعليم داخل حدود الأسقفية • وقد استغرق قيام نقابة الأساتذة وتبلورها فترة غير قصيرة من الزمن ، وهى التى غدت حجر الزاوية فى بناء جامعة باريس نفسها • وعلى ذلك فان هذه الجامعة لم تنشأ بين يوم وليلة ، وانما كانت نتيجة لتطور تدريجي بطىء مستمر • واستتبع ذلك اتجاه طبيعى نحو الاعتراف بالطلبة فى باريس كهيئة لها كيانها وحقوقها وامتيازاتها المعترف بها • وكان ينظر اليهم على أنهم من رجال الدين باعتبارهم مرتبطين بمدارس تابعة للمؤسسات الدينية • ولهذا السبب تمتعوا بالحصانة والامتيازات التى تمتع بها باقى الأفراد المرتبطين بالكنيسة •

وقد كان لثورة سنة ١٢٠٠م التى قام بها طلاب باريس أثرها فى منح جامعتهم المزيد من الامتيازات ، وكان سببها اعتداء بعض أهالى المدينة عليهم • ولكن محافظ باريس نكل بالطلبة ، فالتجأ اساتذتهم الى فيليب اوغسطس ملك فرنسا يناشدونه رفع الظلم الذى وقع على الطلاب وعليهم • وخشى فيليب آن يهجر الاساتذة وطلاب العلم باريس الامر الذى يترتب عليه حدوث كساد اقتصادى فى المدينة ، فأمر بحبس وعقاب المعتدين • وكذلك منح فى نفس العام براءة للجامعة بأن تتولى الكنيسة محاكمة أى طالب تقبض عليه السلطات المدنية فى تهمة أو جريمة ما • وطلب من المواطنين احترام حقوق الطلبة وحسن معاملتهم واشترط على المحافظ الجديد مراعاة امتيازات الجامعيين • وان هذه

البراءة وان لم تنص رسميا على الاعتراف بالجامعة ، الا أنها اعترفت ضمنيا بقيام هيئة من رجال العلم لهم حقوق يجب مراعاتها ٠

وأما عن رابطة الأساتذة التى كانت أساس جامعة باريس فقد مرت بعدة خطوات تحولت فيها من مجرد جامعة تربط بين أفرادهـــا مظاهر عامة مستقاة من العرف والتقاليد الى جامعة لها وضعها القانونى المعترف به من حيث تسجيل نظمها فى شكل لائحة ، ومعاملتها كاتحاد معترف به ، واعطائها حق تعيين الموظفين الاداريين لتصريف شئونها ، وأن يكون لها خاتم رسمى تختم به أوراقها ٠ وقد تم ذلك فى أوائـــل القرن الثالث عشر عند ما صدرت لائحة مدونة من عدة مواد لرابطـــة الأساتذة ، وعندما أصدر البابا انوسنت الثالث مرسوما يعترف فيـــه رسميا بجامعة باريس كهيئة تتبادل التمثيل مع غيرها من الهيئات ، وحق أساتذتها فى تكوين نقابة تضمهم وفى تعيين مندوب عنهم فى البلاط البابوى ٠ وكانت هذه التطورات التى مرت بها نقابة الأساتذة فى باريس فى النصف الاول من القرن الثالث عشر هى التى أدت الى مولد الجامعة نفســـــها ٠

ولا يعنى ذلك أن الطريق كان ممهدا تماما أمام هذه الجامعـــة الناشئة ٠ فقد كان من حق أمين كاتدرائيـــة باريس ـ وبخاصـــة فى السنوات الأولى لمولد الجامعة ـ ليس فقط الترخيص لمن يريد مزاولة التدريس بها ، وانما أيضا حرمان من يشاء من الأساتذة المعترف بهم من مزاولة هذه المهنة ٠ كما كان له الحق فى توقيع الجزاءات على رجال العلم العلمانيين واصدار التعليمات الخاصة بتنظيم شئون الأســـاتذة والطلاب على الســـواء ٠ هذا فى الوقت الذى أصبح فيه للأســاتذة نقابة تحمى أعضاءها من استبداد أمين الكاتدرائية ونفوذه الواسع ٠ وهكذا وجدت سلطان متنازعتان منفصلتان هما : أمين الكاتدرائـــية ونقابة الاساتذة ، وكل منهما تحاول الافتئات على حقوق الأخرى ٠ وكثيرا

ما استنجد أساتذة باريس بالبابا الذى وقف الى جانبهم فى اكثر من مناسبة مدافعا عن حقوقهم ضد أمين الكاتدرائية ٠

ومن التطورات الهامة التى شهدتها جامعة باريس فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ، نظام الأروقة الجامعيـــة التى شملت أساتذة الآداب دون ســواهم ٠ فانقســموا الى أربعة أقســـام هى : الفرنسيون ، والرومان والبيكارديون والانجليز ٠ وكان لكل رواق منها رئيس خاص بها ، ثم أصــــبح لها فيما بعد رئيس عام بخلاف الرئيس الخاص بكل رواق على حدة ٠ وتطورت هذه الأروقة ونمـــا نفوذها حتى صار لها الحق فى اختيار مدير الجامعة ٠

ومع أن جامعة باريس كانت تنقسم الى أربع كليات هى : اللاهوت والقانون الكنسى ، والطب ، والآداب ، وعلى الرغم من أن الكليـــات الثلاث الاولى كانت أعلا مستوى من كليه الآداب ، الا أن الكلية الأخيرة كانت أسبق فى تنظيم شئونها مما حقق لها نوعا من الزعامة على الكليات الأخـــرى ٠

وقد حدث تطور جديد فى هذه الجامعة عندما قام النزاع بينها وبين أهالى مدينة باريس والملكية الفرنسية سنة ١٢٢٨ / ١٢٢٩ م ٠ وانتهى الأمر بانتصارها بفضل تدخل البابوية وظهورها كقوة جديدة لها الحق فى وضع اللوائح الخاصة وعقاب الخـــارجين على نظـامها ٠ كما وضعت قيود حـدت من سلطـة كـل من أسقف باريس وأمـين كاتدرائيتها ٠ وهكذا ظلت الجامعة تحصــــل على العديد والمزيد من الامتيازات ٠ ففى سنة ١٣٤٥م حصلت من البابا انوسنت الرابع على حق جديد يقضى بعدم محاكمة الطلبة أمام المحاكم الكنسية التى تقـع بعيدا عن باريس حتى لايتعطلوا عن دراستهم فيما يتعلق بالقضايا ذات الصبغة الدينية ٠ كما منحهم الملك الفرنسى نفس الحق فيما يتعلق

بالقضايا المدنية . وأمام هذه الامتيازات المتتالية التي حصلت عليها الجامعة ، أخذت سلطة أمين كاتدرائية باريس فى التضاؤل والانكماش أمام مركز مدير الجامعة الى أن زالت فى أواخر القرن الثالث عشر .

وفى القرن الرابع عشر تعرضت جامعة باريس لضغط جديد لم يكن مصدره تعسف أمين كاتدرائية باريس وأسقفها أو التدخل البابوى كما كان الحال فى الدور الاول من تاريخها ، انما تدخل الملكية الفرنسية ذاتها فى شئونها . فقد كان الغرب الأوروبى فى هذا الوقت يمر بفترة تغير وانتقال من مفاهيم وفلسفة وأفكار العصور الوسطى المبكرة الى أوضاع جديدة مغايرة . اذ بدأت الكنيسة اللاتينية تفقد سلطانها وهيبتها ، كما أخذ النظام الاقطاعى فى التخلخل لتحل محله المدينة بسكانها الأحرار الذين أخذوا يمارسون نشاطا تجاريا وصناعيا . وحل الاقتصاد النقدى محل الاقتصاد الاقطاعى ، وظهرت الملكيات المستبدة تحاول سلب بقايا رجال الاقطاع نفوذهم وسيطرتهم . وفى ظل هذه الظروف التى استجدت على مسرح الأحداث فى الغرب ، كان موقف الملكية الفرنسية من جامعة باريس بعد أن أصبحت تتمتع بامتيازات كبيرة . ففى أواسط القرن الخامس عشر صدر أمر ملكى بخضوع الجامعة لأحكام برلمان باريس والمثول أمامه لاستجوابها فى القضايا المتعلقة بها . فكان هذا بمثابة ضربة قوية موجهة لكبريائها القصد منها الحد من الاعفاءات والحقوق والامتيازات العديدة التى كانت تتمتع بها . وقد ترتب على ذلك انكماش تلك الحقوق والامتيازات التى كانت تتمتع بها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وساعد على هذا التطور الذى طرأ على روح العصر الوسيط فى قرونه الأخيرة .

وشهدت تلك الجامعة زوال البقية الباقية من مظاهر نفوذها فى عهد الملك لويس الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣ م) ، عندما حرم على رجالها الاشتغال بالسياسة ، وأمر بتطبيق أحد القوانين المهملة الذى ينص على أن يشترك مندوب من قبل الملك فى عملية انتخاب مدير

الجامعة . وأخذت الدولة تتدخل فى الشئون الداخلية للجامعة الى أن أمر لويس الحادى عشر سنة ١٤٧٤م بأن يكون مدير الجامعة خاضعا لنفوذه لايعصى له أمرا . وقد تلقت الجامعة الضربة الأخيرة أيام لويس الثانى عشر (١٤٩٨ ـ ١٥١٥م) عندما حرمت من حق الاضراب .

وهكذا تم خضوع جامعة باريس للتاج الملكى الفرنسى بعد أن زالت فى القرن السادس عشر أخر بقايا امتيازات العصر الاقطاعى فى الغرب الأوروبى . وهكذا بعد أن تقلت التأييد والتشجيع من كل من البابوية والامبراطورية ، طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلقت الضربات القوية المتتالية من الملكية الفرنسية اعتبارا من القرن الرابع عشر وحتى نهاية العصر الوسيط .

٢ ـ جامعة بولونيا :

قبل التحدث عن نشأة جامعة بولونيا والمراحل التى مرت بها ، يجدر بنا أن نمهد لذلك بكلمة عن نشاط الدراسات القانونية فى ايطاليا وأثرها بالنسبة للجامعة .

المعروف أن الدراسات الفلسفية واللاهوتية والدينية قد ارتبطت حسبما أسلفنا بقيام جامعة باريس نتيجة لظروف خاصة أحاطت بالحركة الفكرية فى فرنسا . أما الدراسات القانونية فقد كان مسرحها ايطاليا حيث الحضارة الرومانية والتعليم الرومانى اللذان لم يندثرا طوال العصور المظلمة . وجدير بالذكر أن التعليم فى ايطاليا لم يكن حكرا على المدارس الكنسية وحدها ، بعكس الحال فى فرنسا . فقد وجد فى شمال ايطاليا الكثير من الأساتذة العلمانيين الذين لايمتون الى الدين بصلة ، ولا يخضعون للكنيسة ورقابتها . كما درج النبلاء هناك على تزويد أبنائهم بقسط من التعليم . ولهذا السبب كان جمهور المتعلمين فى ايطاليا من العلمانيين بعكس الحال فى البلاد الواقعة

شمال جبال الألب حيث كان العلم قصرا على رجال الدين وخاصة فى فرنسا والمانيا وانجلترا ·

لقد صحب الاختلاف الفكرى بطبيعة الحال اختلاف فى مواد الدراسة بين شمال أوروبا وجنوبها فى العصور المظلمة · فبينما اهتمت البلاد الواقعة شمال الألب بالجدل والمنطق والمشاكل المتعلقة باللاهوت ، اهتمت ايطاليا بالنحو والبلاغة · ولم يخل ذلك من فائدة فيما يتعلق بصياغة الوثائق الرسمية واعداد الفرد للاشتغال بالمحاماة أو كتابة الدعاوى أو العرائض · أما المنطق فقد استخدموه لخدمة الدراسات القانونية · كل هذا جعل الايطاليين يقبلون على دراسة القانون · وترتب على ذلك بعث واحياء حركة قانونية ارتبطت باسم المشرع ارنريوس Irenrius ومدرسة بولونيا · ولهذا السبب عبر النشاط الفكرى الذى شهده المجتمع الغربى الوسيط فى أخريات القرن الحادى عشر تعبيرا سياسيا دنيويا فى ايطاليا وتعتبر دينيا لاهوتيا فى البلاد الواقعة شمال الألب ·

ولقد ظلت المدرسة الرومانية القديمة حية قائمة فى ايطاليا وبخاصة فى السهول الشمالية · ولهذا السبب ظل القانون الرومانى هو الآخر حيا لم يندثر طوال العصور المظلمة الى أن قامت المدن فى القرن الثانى عشر تدافع عن استقلالها ضد سيادة الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة · ولكن ليس معنى هذا أن الناحية الروحية كانت أمرا منسيا فى ايطاليا فقد ظهرت جلية فى الصراع العنيف بين الامبراطورية والبابوية ، وما ثار حوله من آراء ونظريات ومجادلات فقهية ·

على أية حال ، لقد أدت الظروف الى وجود نهضة كبرى فى الدراسات القانونية فى ايطاليا ارتبطت فى التاريخ باسم ارنريوس

ومدرسة بولونيا للقانون،والتى كانت قائمة فعلا قبل عصره،واشتهرت بدراساتها الأدبية والقانونية بحيث اجتذبت اليها عددا من طلاب العلم الذين كانت تستهويهم مثل هذه الدراسات . ولقد كانت شهره ارنريوس ومحاضراته فى القانون الرومانى من العوامل الهامة التى هيأت الجو لذيوع صيت مدينة بولونيا ومدرستها فى كافة أنحاء أوروبا. هذا ، بالاضافة الى موقعها الجغرافى كمركز لالتقاء الطلاب الوافدين من البلاد الواقعة شمالى جبال الالب أوجنوبها . وقد مرت مدرسة بولونيا بعدة خطوات الى أن أصبحت كبرى مدارس القانون فى ايطاليا، منها الاهتمام بموسوعة الامبراطور البيزنطى جستنيان المعروفة بأسم (مجموعة القوانين المدنية) ، ثم القيام بدراسة مصادر القانون ، ثم دراسة القانون كعلم قائم بذاته بعد أن أتسعت دائرته وأصبح له أساتذته وطلابه المنقطعون له .

وكما اهتم ارنريوس باحياء القانون الرومانى ، كذلك اهتم زميله جراشيان Gratian باحياء القانون الكنسى فى تلك المراسيم التى أصدرها فى منتصف القرن الثانى عشر . ولم يصدر جراشيان مراسيمه فى هيئة مجموعة قانونية ، وانما فى شكل مرجع للطلاب امتاز بطابعه المدرسى . وكانت هذه المراسيم بطبيعة الحال سندا للبابوية فى صراعها العلمانى مع الامبراطورية .

وخلاصة القول انه كما كان لارنريوس الفضل فى الفصل بين دراسة القانون والفنون الأخرى ، كذلك كان لجراشيان الفضل فى الفصل بين القانون الكنسى وعلم اللاهوت . وقد كان لكل هذا أهميته فى تطور النظام الجامعى فى بولونيا بعد أن تضافرت جهود العلمانيين والكنسيين للنهوض بمدرستها لتصبح احدى جامعتيين رئيسيتين وضعتا أساس الحياة الجامعية فى اوروبا فى العصور الوسطى المتأخرة .

لعلنا نخلص مما سبق أن مدرسة بولونيا قد تزعمت النهضة القانونية فى ايطاليا . كما كان من أبرز أساتذتها قبل ان تتبلور فى شكل جامعة ارنريوس وجراشيان . كما كان أول اعتراف رسمى بالأساتذة والطلاب الذين يدرسون فى مدارس شمال ايطاليا فى سنة ١١٥٨ م ، عندما أصدر الامبراطور الالمانى فريدريك بارباروسا براءة تضمنت بعض الامتيازات للاساتذة والطلاب فى المدن اللمباردية بصفة عامة . علما بأن هذه الوثيقة لم تنص صراحة على قيام رابطة رسمية للطلبة أو الأساتذة . وكانت أول اشارة فى وثائق العصر الى قيام تلك الرابطة ترجع الى سنة ١٢١٥م . ولم تأت سنة ١٢١٩ م حتى كان نظام الدرجات العلمية قد اكتملت صورته فى بولونيا . ومنذ ذلك الحين كثرت الاشارات فى مصادر العصر التى تثبت اعتراف كل من الامبراطورية والبابوية بجامعة بولونيا .

وجدير بالذكر أن جامعة بولونيا اشتهرت بأنها (جامعة طلبة) ، لأن اتحادات الطلبة فيها كانت تسيطر تامة على الجامعة وشئونها . بينما تحكم أساتذة بولونيا فى كل مايتعلق بامتحان الطلاب والسماح لهم بالتدريس أو الدخول فى رابطة هيئة التدريس . وقد ساعدت ظروف البيئة على نشأة اتحاد الطلبة فى بولونيا ، وهى تنحصر فى تمسك الأسر الشريفة فى ايطاليا بالتراث العلمى القديم ، واهتمام الناضجين من ذوى المكانة والثروة بالدراسات القانونية . ولذلك كان الأستاذ فى بولونيا مجرد محاضر أستأجره عدد من السادة طلاب العلم . وساعد على تطور هذا الاتحاد الوضع السياسى للمدينة الايطالية التى نشأت فيها هذه الجامعة . اذ حرمت على نزلائها المغتربين التمتع بالحقوق المدنية التى منحتها لابنائها . ولذلك أراد طلاب العلم الوافدين على بولونيا أن يعوضوا داخل الجامعة ما يفتقدونه داخل محيط المدينة، فسعوا الى فرض سيطرتهم على أساتذتهم .

وقد قبلت السلطات الحاكمة الوضع الخاص باتحادات الطلبة لما يترتب على وجود أعداد غفيرة من الطلاب من رواج اقتصادى فى المدينة وباتت هذه الاتحادات تتمتع بحقوق معترف بها ، وصارت تخضع لقوانينها الخاصة لا لقوانين المدينة . وساعد على ذلك عاملان ، أولهما فكرة (القانون الشخصى) وهو أن تعيش مختلف العناصر داخل أسوار مدينة واحدة على أن تخضع ما فيها لقانونها الخاص ، وثانيهما أن الجامعة ، سواء فى بولونيا أو غيرها من البيئات الجامعية ، لم تكن الا نوعا جديدا من أنواع النقابات التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى . لذلك أخذ الطلاب المغتربون فى بولونيا يتكتلون فى هيئة نقابات ترعى حقوقهم . علما بأن هذه الاعتبارات لم تنطبق على مواطنى مدينة بولونيا نفسها من الطلبة والأساتذة الذين ظلوا خارج نقابات الجامعة لا يتمتعون بصوت يعبر عن رغباتهم . ولذلك اقتصرت هذه الاتحادات على الطلاب المغتربين فقط . وكان الالمان هم أول من أحسوا بحاجتهم الى الترابط لرعاية مصالحهم ، ثم نحا نحوهم بقية الطلبة الغرباء . وفى أوائل القرن الثالث عشر كان يوجد فى جامعة بولونيا أربعة اتحادات للطلبة أخذت تتطور الى أن تداخلت فى اتحادين كبيرين فى أواسط القرن الثالث عشر ، الاول يضم الطلبة الوافدين من البلاد الواقعة شمالى جبال الألب . بينما يضم الثانى الطلبة الوافدين من باقى الأقاليم الايطالية .

ولما كان أساتذة جامعة بولونيا فى المراحل الاولى من نشأتها من مواطنى بولونيا يتمتعون بحقوقها ويساندون السلطات الحاكمة ضد الطلبة الغرباء ، فقد أدى ذلك كما رأينا الى أقصاء الاساتذة عن عضوية النقابات الجامعية واستبعادهم عن ادارة شئون الجامعة ، مما جعلهم فى نهاية الامر تحت سيطرة الطلبة وتحكمهم . وأخذت اتحادات الطلبة تنمو تدريجيا ، ولم يأت القرن الثالث عشر حتى كان هناك مدير أو رئيس لكل اتحاد يوجه اموره ويرعى مصالح أعضائه . ولم تلق

هذه النقابات مقاومة من السلطات الحاكمة في بولونيا • وكانت المعارضة الحقيقية التى لقيتها من جانب أساتذة القانون بها الذين نادوا بأنهم يجب أن يكون لهم وليس للطلبة الحق فى وضع النظم والقوانين الخاصة بالجامعة • ولم تثمر نداءات أساتذة بولونيا أمام اتحادات الطلبـــة التى كانت تتطور وتزداد قوة ونفوذا حتى أصـــبحت بمرور الوقت تسيطر سيطرة تامة على أساتذتها •

ولكن يجب أن نفهم أن الغرض الاساسى من قيام اتحادات الطلبة فى بولونيا هو حماية مصالح المغتربين ، وأن احتكاكهم بالاساتذة كان نتيجة لمطالبة هؤلاء الاساتذة القيـــام بما يقـــوم به اتحاد الطلبة • هذا ، مع ملاحظة أن الطلبة ، لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى توجيه النشاط العلمى بالجامعة الذى كان من اختصاص الأساتذة وحدهم دون غيرهم•

وفى القرن الرابع عشر اندمج الاتحـــادان الخاصان بالطلبة فى اتحاد واحد له نظمه الموحـــدة وله مدير واحد وخاتم تدمغ به الأوراق والقرارات الرسمية • وكانت اختصاصات مدير جامعة بولونيا ، وهو رئيس اتحاد طلبتها ، مستمدة فى أول الأمر من قوانين الاتحـاد ، ثم استمد نفوذه فيما بعد من لائحة الجامعة • وكان يتم اختياره عن طريق الانتخاب غير المباشر ، وكان يجب أن تتوافر فيه شروط معينـة • ولم يكن يتقاضى أجرا عن وظيفته سوى نصف قيمة الغرامات التى يحصلها من الطلبة المخالفين • ونتيجة لذلك أعرض الكثيرون عن قبول الوظيفـة المذكورة مما أدى الى تناقص أهميتها تدريجيا حتى تلاشت فى أواخـــر القرن الخامس عشر •

خاتمـــــة :

ان ماقيل عن نشأة جامعتى باريس وبولونيا وتطورهما ، يمكن تطبيقه على الجامعات الأخرى القديمـة ، والأدوار التى مرت بها الى أن

اشتد ساعدها واعترفت السلطات الدينية والعلمانية بها . فتكـونت في فرنسا ، مثلا ، جامعة تولوز سنة ١٢٢٣م،ومونبلييه سنة ١٢٨٩م ، واورليانز سنة ١٣١٢ م . أما في ايطاليا فيقال ان جامعة سالرنو بلغت أوجها في القرن الحادى عشر . ومن بين الجامعات القديمة في انجلترا جامعة اكسفورد التي اعترف الملك يوحنا بها بموجب مرســوم أصدره سنة ١٢١٤ م بايعاز من البابا انوسنت الثالث . كذلك وضع الملـك هنرى الثاني ملك انجلترا أساس جامعة كامبردج سنة ١٢٢٩ م عندما عرض على الطلبة المتذمرين من الدراسة في باريس أن ينتقلـوا الى كامبردج وأن يبدأوا لأنفسهم معهـدا خاصا بهم . لكن هذه الجامعـة لم تبلغ في الواقع مرتبة الجامعات الأخرى الا خلال القرن الخامس عشر عندما ساء حال جامعة اكسفورد بسبب الانقسامات الدينية في كلياتها ونزوح كثير من طلبتها الى زميلتها الأخرى المجاورة لها في كامبريدج .

على هذا النمط نشأت الجامعات العديدة في طول اوروبا وعرضها ، من أسبانيا غربا الى بوهيميا شرقا ، ومن انجلترا شمالا الى ايطـاليا جنوبا . وبلغ عدد هذه الجامعات حوالى ٨٠ جامعة في أخريات العصور الوسطى . وبما أن التعليم في تلك الجامعات كان كله باللغة اللاتينية ، وهي اللغة الرسمية والدينية التي سادت العصور الوسطى ، فقد أصبح اذن من السهل على طلاب العلم من أي أمة من الغرب أن يدرسوا على من يرغبون فيهم من كبار الأساتذة في أي جامعة بأي دولة .

وهكذا أصبحت الجامعات تحتوى طلابا من مختلف الأمم . وعلى ذلك قسم هؤلاء الطلاب أنفسهم الى طوائف أو الى أمم ، كما هو معروف في العصور الوسطى . ففي باريس كـان هناك أربع أمم أو طوائـف رئيسية هي : طائفة الفرنسيين ، وطائفـة النورمانديين ، وطائفـة البيكارديين ، وطائفة الانجليـز .

وقد ازدحمت هذه الجامعات بجماهير الطلبة ، فبلغ عددهم فى باريس خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر قرابة ٢٥ الفا حتى فاضت جموعهم من جزيرة فرنسا وهى الجزيرة الواقعة وسط نهر السين والتى قامت على ساحلها الجنوبى كاتدرائية نوتردام الشهيرة ، فاضت من هذه الجزيرة الى الضفة اليسرى من النهر التى تواجه الكنيسة المذكورة · وهذه الضفة وماقام عليها من معاهد ومبان ومساكن للطلبة هى المعروفة حتى اليوم باسم « الحى اللاتينى » Cartier Latin والحكمة فى قيام وازدهار الجامعة على هذا الجانب من النهر ترجع أولا لمواجهتها لكنيسة نوتردام المذكورة ، وثانيا الى أن تلك المنطقة كانت على الطريق المؤدية الى روما ، وهى الطريق التى كان يسلكها الحجاج لمقابر القديسين هناك · كذلك بلغ عدد طلبة اكسفورد فى حكم الملك هنرى الثالث حوالى ٣٠ ألفا ، وطلاب جامعة بولونيا بايطاليا فى القرن الثالث عشر حوالى عشرة آلاف · وقد يكون فى هذه الأرقام شىء من المبالغة لعدم وجود احصائيات دقيقة فى تلك الفترة من الزمن ، ولكنها تدل بوضوح على مكانة تلك الجامعة ومابلغته من شأن عظيم فى تلك القرون والأزمان ·

كذلك اشتهرت كل جامعة من هذه الجامعات بنوع خاص من الدراسات التى تتفق مع التقاليد المحيطة بالمنطقة التى نشأت بها ، ومع تخصص العلماء الذين حاضروا فيها · فنجد أن باريس تتفوق على غيرها فى الفلسفة واللاهوت ، بينما تتفوق كل من مونبلييه وسالرنو فى الطب ، وبولونيا فى دراسة القانون الرومانى بحكم مكانتها فى ايطاليا وتراثها القديم من الدولة الرومانية حسبما أسلفنا · واشتهرت تولوز واورليانز بدراسة القانون المدنى الذى لم يكن يدرس اطلاقا فى باريس ·

وكانت الجامعة تتكون عادة من أربع كليات هى كليات الآداب

واللاهوت والقانون والطب . وكان عمل كل كلية ، متصلا اتصالا وثيقا بكلية الآداب من الناحية التحضيرية . فكلية الآداب اقتصرت اذن على الدراسات التجهيزية لتوجيه الطلبة بعد ذلك الى التخصص فى المعاهد الأخرى .

وكانت مواد الدراسة فى كلية الآداب تنقسم الى مجموعتين أساسيتين هما : المجموعة الأولى وهى المجموعة الثلاثية Trivium والمجموعة الثانية وهى المجموعة الرباعية Quadrivium . وتشتمل المجموعة الثلاثية على قواعد اللغة اللاتينية وأصولها والمنطق والبلاغة . والمجموعة الثانية الرباعية فتتكون من الموسيقى والحساب والهندسة والفلك . ولم يكن الغرض الرئيسى من دراسة هذه العلوم مجرد تثقيف الطالب تثقيفا عاما وتهذيب فكره وتنسيق أسلوبه ، بل كان هدفها هو اعداد الطالب لدراسة العلوم اللاهوتية المتعلقة بشئون الكنيسة قبل أى اعتبار أخر . فاللغة مثلا مقصود بها تمكين الطالب من قراءة الكتب الدينية . وكان يقصد من قواعد اللغة تمكين الطالب من قراءة الكتاب المقدس وحياة القديسين ومختلف الصلوات والقداسات والشعائر فى الكنائس قراءة سليمة . أما الموسيقى فكان المقصود بها تعليم الطالب مايلزمه من أجل الاشتراك فى التراتيل الكنسية . والغرض من الحساب والهندسة والفلك تحديد تواريخ الأعياد الدينية ، وكان أهمها تاريخ القيامة وأيام الرسل والقديسين . وكان الغرض من المنطق والبلاغة فى المجموعة الثلاثية هو تقويم لسان الطالب لكى يتمكن من القيام بالوعظ والارشاد .

أما المحاضرات نفسها فكانت تلقى باللغة اللاتينية وهى اللغة الرسمية للكنيسة والدولة فى القرون الوسطى . وكانت تلقى على الطلبة وهم جالسون القرفصاء على أرض الحجرات المفروشة بالقش . وكثيرا ماكانت المحاضرة الواحدة تستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات بلا انقطاع وبدون اكتراث براحة الطالب البدنية أو الذهنية . ولما كانت الطباعة غير معروفة آنذاك ، والكتب كلها مخطوطة ونادرة ومرتفعة الثمن لحد أعجز الطلاب عن اقتنائها ، فقد اضطر الأساتذة الى اتباع

خطة املاء النصوص التى يكتبها الطلبة وسط الصفحات • ثم يضيفون بعد ذلك بين سطور مذكراتهم وعلى هوامشها العريضة ماتيسر من التعليقات والشروح من استاذ آخر ، وهكذا •

أما عن نظام الامتحان فقد كان قائما على المناقشة العلنية فى رسالة يكتبها الطالب باللغة اللاتينية • وكانت الدرجات العلمية التى تمنحها الجامعة هى :

١ - الاجازة المعروفة باسم الليسانس ، وتخول حاملها حق ممارسة التدريس فى المدارس الصغرى فى اوروبا •

٢ - الاجازات العالية التى تعطى لحاملها الحق فى المحاضرة بالكلية ، وأولها درجة الماجستير ، والثانية هى الدكتوراه فى الآداب أو القانون أو اللاهوت • وهذه الشهادة تختلف كثيرا عما نعرفه الآن فى معظم الجامعات نظرا لصعوبتها وقلة الفائزين بها ، لأن دكتوراه جامعات العصر الوسيط كانت تعطى حاملها الحق فى أن يصبح استاذا بالجامعة•

كذلك كان لموضوع الرسائل المقدمة فى العصور الوسطى طابعها الخاص • فهى تمتاز عادة بالروح الدينية الجدلية الاستقرائية وليست الاستنباطية الاجتهادية ، مثال ذلك رسالة عنوانها « محبة الله خير من معرفة الطبيعة » ، ورسالة أخرى « الايمان يسبق التفكير » ، وهكذا •

يتضح مما سلف أن الجامعة فى العصور الوسطى لم تظهر من العدم الى الوجود مرة واحدة ، وانما قامت فى بداية حياتها متواضعة بسيطة ، ثم نمت وكبرت وتوطدت أركانها بفضل أساتذتها واجتماع الألوف المؤلفة من الطلاب فيها ، قبل أن تعترف بوجودها السلطات الدينية والزمنية ، وقبل أن يتوفر لها من الهبات والعطايا من أهل البر والاحسان ومن محبى العلم مايضمن استقرارها وتهيئة الأماكن المناسبة لها •

وجدير بالذكر أن الجامعة المعنوية وجدت في الغرب الأوروبي في أخريات العصر الوسيط قبل الجامعة المادية • فلم يكن اسم الجامعة في بداية الأمر مقرونا بالمباني الفخمة ذات القباب والأبراج العالية ، ولم يكن مقرونا بما احتوته من فراش وأثاث وثير ، بل كان كيانهـا موقوفا على سعة علم المعلمين بها وقيمة محاضراتهم التي طالما كانت تلقى في الخلاء أو في أفنية الكنائس أو في سراديبها •

وهناك مسأله هامة من الضروري الاشـــارة اليها فيمـا يتعلق بموضوع نشأة الجامعات الأوروبية ، هي ماكان للعرب من فضل واضح في تنشيط الحركة الفكرية والجامعية في أوروبا • فمما لاشك فيه أن قسطا كبيرا من فلسفة الاغريق تسرب الى أوروبا وقتئذ عن طريق عرب الأندلس • كما انتقلت الفلسفة العربية وكثير من العلوم الاسلامية الى الغرب عن طريق اتصال الايطـــاليين بالعرب في جزيرة صقلية ، وفي جنوب ايطاليا • ويلاحظ أن أول ترجمة لاتينية لفلسفة ارسطو الـذي اعتبره كتاب العصور الوسطى معلمهم الأكبر ، جاءت عن طريق النصوص العربيـــة الشائعة بين المسلمـين ، تلك النصوص التي يرجع عهدها الى صدر العصر العباسي الذي بدأت فيه حركة الترجمة المشهورة ببغداد حين نقل الكتاب العرب كثيرا من تلك النصوص الهامة من اللغــــة الاغريقية الى العربية • وقد وصلت تلك النصوص مع العرب الى المغرب والأندلس ، وانتشرت من هناك في أوروبا حيث ترجمت تلك النصوص الاغريقية عن الترجمة للعربية في وقت كانت فيه الأصول الاغريقيـــة قـــد فقــــدت •

وأخيرا لايفوتنا في هذا المقـام أن نذكر أن أقـــدم الجامعات في العصور الوسطى ظهرت في الشرق قبل ظهورها في الغرب بوقت غـــير قصير ، عندما افتتح قاضي القضاة ابو الحسن علي بن النعمان القيرواني

دراسة فقه الشيعة بالجامع الأزهر فى اكتوبر سنة ٩٧٥ م فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى ، ذلك الجامع الذى أصبح مركزا لدراسة الفقه والعلوم العربية فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة ٠ وكانـت نشأته قبل أن تظهر الجامعات الأوروبية الى حيز الوجود بحوالى قـرن ونصف من الزمـــــان ٠

الموضوع التاســـــع عشـــــر

العوامل التى أدت الى التغيير الكبير فى طبيعة العصور الوسطى الأوروبية فى قرونها الأخيرة ، ومهدت لعصر النهضة .

أخريات العصور الوسطى ، هى تلك الفتـــرة من التاريخ التى تتميز بنوع من التحرر والانطلاق من أوضاع العصور الوسطى المبكرة ، ومن قيودها وأنظمتها وخصـــائصها وتعاليمها • فبالنسبة للبـــابوية يبدأ سلطانها فى التدهور والانحلال نتيجة عوامل عديدة ، وتقـــوم محاولات جريئة لاصلاح الكنيسة اللاتينية والعـــودة بها الى عصورها الأولى • ويبدأ رجال الفكر والعلم والأدب والفن والكشف والاختـراع ، فى الخروج على الكنيسة وأوامرهـا • وتظهر حركات الهرطقـــة التى يلاقى أصحابها شتى صنوف العذاب ، وتبدأ المدن والقومونات الجديدة فى الظهور ، مما يعتبر بشيرا ببداية عصر النهضة فى التاريخ الأوروبى• وان كان عصر النهضة نفسه يدين بظهوره لشىء ، فانما يدين بذلـــك لتلك القرون الأخيرة من التاريخ الوسيط ، التى بدأت فيها المفـــاهيم والمعايير الوسيطة فى التخلخـل ، والتى بدأت فيهـــا النفس البشرية محاولاتها الأولى للانطلاق من مختلف القيود ، ومن تلك الدائرة الضيقة التى وضعتها فيها الكنيسة والبابوية •

فهل تعتبر أخريات العصور الوسطى هى هذه النواحى وتلـــك التغييرات التى سبق الاشارة اليها ؟ أم هل هى عبارة عن ذلك التطـور الهائل فى الفن والأدب والسياسة والعلم والكشف والاختراع ؟ أم هل هى الخروج على الكنيسة وقيودها ؟ هل هى الاستكشافات الجغرافية ؟ أم هل هى التغيير فى كافة الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ؟ أم هل هى التمرد على الماضى ، والانطلاق الى آفاق رحبة ومجـــالات واسعة ؟ •

الواقع أنه لايمكن ارجاع هذا التغيير الكبير لسبب دون آخـــر ، أو لعامل بالذات دون عوامل أخرى • اذ يكاد يتفق جميع المؤرخين ، على أن هذه الفترة كانت نتيجة الانقلاب الهائل الشامل الذى مس أنظمـــة

العصر الوسيط وحضارته من جذورها ، وهزها هزا عنيفا حتى بدأت تتداعى وتنهار ، لتحل محلها أنظمة أخرى وحضارة جديدة مغايرة ٠

وعلى هذا ، فأخريات العصور الوسطى الأوروبية التى مهدت لعصر النهضة ، هى ثمرة قرون عدة عبرت فيها الانسانية حضارة وسيطـــة متوسطة الشأن ، لها صفاتها ومميزاتها وشخصيتها ، بالرغم من انهـــا لم تكن لترقى الى المدنية الرومانية فى التاريخ القديم ، أو مدنية التاريخ الحديث ٠ وهى ايضا ، تلك الروح الانسانية الفياضة التى قامت على أساس التحرر من قيود الماضى وأوضاعه ، والانطلاق نحو آفاق جديدة واسعة ، فيها من الحرية بقدر ماكان فى مستهل هذه العصور من كبت وضغط وحرمان ٠ وهى تلك الانطلاقة التى قامت على أساس تحـــــرر النفس البشرية من قيود الماضى ٠ وأخيرا هى الدماء الساخنة المتدفقة فى العروق ، وهى الحمى التى أصـــابت البشرية فى تلـــك الفترة من الزمن ، والتى نجمت عنها وترتبت عليها تلك الآثار الضخمة فى مختلف مناحى الحيــــــــاة ٠

فكيف تم ذلك ؟ وكيف ظهر فى حوالى القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر الميلادى ؟ وماهى أسبابه وآثاره ونتائجه ٠ ؟

لتفهم العوامل التى أدت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، الى تقلص نفوذ كل من البابوية والامبراطورية ، ومحاولة الخـــروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية ، وارتفاع أصوات حرة جريئة تطالب بالاصلاح الشامل فى شتى مرافق الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط ، والدعوة للرجوع الى الحضارة الرومانية القديمـــــة ـ يحسن أن نلقى نظـــرة موضوعية شاملة على أوضاع العالم وقتذاك ٠

لاشك أن من بين العوامل الرئيسية التى أدت الى هذا التغيـــير التدريجى ، ذلك النشاط الخارجى الذى حدث فى القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، نتيجة الاتصال المستمر بين الشرق والغـــرب ، على

أيدى العرب . وكان أول احتكاك بين شقى العالم فى أعقـــاب الفتح العربى . فلم يأت القرن العاشر حتى كانت صقلية وجنوب ايطـــاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية فى قبضة العرب ، ولم يبق الا أن يعبر العرب جبال البرانس ليدخلوا فرنسا نفسها . ثم كان ، بعد ذلك ، الهجوم الغربى المضاد ، الذى قامت به اوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر نتيجة الانقلاب فى ميزان القوى بين الغرب الأوروبى والشرق العربى ، والذى كان من آثاره أن استعاد أهل الغرب جنوب ايطـاليا فى النصف الأول من هذا القرن وصقلية فى النصف الثانى منه . هذا ، فضلا عن نضال الامارات المسيحية فى شمـال اسبانيا ضد العـــرب فى سبيل استرداد شبه الجزيرة الأيبيرية . وغير خاف أن هذه الحروب وذلـك الاحتكاك الدائم المستمر ، كانا سببا كافيـا فى زيادة تصـــادم الآراء والافكار ، وتبادل العلم والمعرفة . ولاشك أن الغرب قد استفاد فائدة كبرى عن طريق هذه المعابر العربية الثلاثة : صقلية وجنوب ايطـاليا والأندلس . وقد بلغ هذا الاحتكاك ذروته أثناء الحروب الصليبية ، التى امتدت من أخريات القرن الحادى عشر حتى أخريات القرن الرابع عشر . فكانت مصر والشام هما مركز الاشعاع الثقافى الرابع الـذى نهل منه الغرب .

ونشأ عن ذلك نشاط كبير . اذ عرف الصليب الهلال فى تلـك المرحلة من التاريخ . ونشأ عن الاحتكاك معرفة وأخذ واقتباس . فبدأ الغرب يأخذ من حضارة الشرق ونظمه بنصيب وافر . وعن طـريق مراكز الاشعاع الثقافى هذه ، نقل العرب الى الغرب التراث اليونانى القديم بالاضافة الى دراساتهم التحليلية لعلم اليـــونان وفلسفتهم . فكان من أهم آثار ذلك أن انتشر العلم وتفجرت ينابيعه ، وبدأ الناس فى الغرب يفيقون من غفوتهم التى دامت عدة قرون .

وكلنا يعرف حالة كل من ايطاليا وصقلية فى عهـد الامبراطور فريدريك الثانى (١٢١٥ ـ ١٢٥٠ م) ، الذى كان معجبا بالحضـــارة

العربية . فقد كان هذا الامبراطور على علاقة ودية طيبة مع الكامل محمد سلطان مصر الأيوبى وابنه الصالح نجم الدين أيوب ، كما كان يمتاز بوجهة نظر متسامحة فى عصر امتاز فيه الغرب الأوروبى بالتعصب الشديد فى هذه الناحية . ويرجع ذلك الى أنه نشأ فى صقلية ملتقى مختلف الأديان والأجناس والثقافات . فترك هذا كله أثره فى نفسه وفى مسلكه وتصرفاته . لقد كان هذا الامبراطور متأثرا بالأفكار والعادات العربية . كما كان معجبا بعلوم العرب وأخلاقهم ، وكان بلاطه موئلا للعلماء العرب ، وكثيرا ماكان يجتمع بمفكريهم . وفى هذا يقول المؤرخ تقى الدين المقريزى : « وكان هذا الملك عالما متبحرا فى علوم الهندسة والحساب والرياضيات . وبعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة . فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفى ، فكتب جوابها » . وكان من أثر ذلك أن اتهمته الكنيسة اللاتينية بالهرطقة ، واعتبرته خارجا عن تعاليمها ، لا لشىء الا لوجهة النظر المتسامحة التى اعتنقها وآمن بها ، وعمل على تحقيقها نتيجة احتكاك الغرب بالشرق وتأثره به .

وكما حدث احتكاك بين الغرب الأوروبى والشرق العربى ، كذلك اتصل اللاتين بالبيزنطيين قبل الحروب الصليبية وفى أثنائها . وعن طريق بيزنطة ، وصل التراث اليونانى القديم الى غرب اوروبا ، فأفاد منه الغربيون فائدة كبرى .

وفى أخريات العصور الوسطى ، حدث احتكاك بين الغرب والشرق مرة اخرى ، فيما يسمى بالحروب الصليبية المتأخرة . اذ قامت خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، حملات صليبية ضد مصر وفلسطين وشمال أفريقية ، لعل أهمها حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠ م ، وحملة نيقوبوليس

الشهيرة سنة ١٣٩٦ م ، التى لقى فيها أهل الغرب هزيمة ساحقة أمام قوات السلطان بايزيد الأول ٠

فكان هذا الاتصال الدائم [illegible] من الأسباب الرئيسية التى جعلت الفكر الأوروبى الوسيط ، يتحرر من القيود البالية الضيقة ، وينطلق نحو مجالات أخرى جديدة ٠ وخلاصة القول ، انه كان من نتيجة احتكاك الغرب بالشرق ازدياد النشاط الخارجى فى الغرب ، الذى أعقبه التقدم والرخاء وتجمع الثروة المادية فى أيدى الامارات التى اشتغلت بالتجارة ، وبخاصة الجمهوريات الايطالية ، مثل جنوه وبيزا والبندقية وفلورنسا ، التى كانت طرقا هامة للتجارة العالمية وقتذاك ؛ تلك الثروة التى ساعدت الى حد كبير على تقدم العلوم والفنون والآداب ، وبزوغ شمس الاصلاح ، وظهور النهضات الاوروبية فى أخريات العصر الوسيط التى كانت بشيرا ببداية عصر النهضة ٠

واذا كان الاحتكاك الدائم المستمر بين شقى العالم طوال العصور الوسطى ، قد ترتب عليه قيام نهضة ثقافية وانتعاش اقتصادى ، فى الغرب ، مما عجل بزوال تلك العصور بمثلها ومفاهيمها ، وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغايرة ، فان تطور الحالة النفسية للفرد فى اوروبا عبر تلك القرون ، كان – هو الآخر – من بين العوامل التى ساعدت على هذا التغيير الكبير فى طبيعة العصور الوسطى الأوروبية وتهيئة الجو لعصر النهضة ٠

لقد كان الفرد فى بداية العصور الوسطى يميل الى الخضوع والايمان المطلق دون وعى ودون فهم أو ادراك أو مناقشة ، وكان يتقبل كل شىء كقضية مسلم بها ٠ كان يصدق كل مايقال له ، ويخضع خضوعا أعمى للخزعبلات والأساطير والخرافات ٠ وكان ينظر الى الحياة نظرة غير واقعية ؛ فقد كانت تلك الحياة فترة مؤقتة زائلة لاقيمة لها على الاطلاق ٠ وكان التمتع بالجمال فى شتى صوره

يعتبر اثما وخطيئة • فلا يجوز للفرد أن يقدر جمال نفسه أو جمال الطبيعة ، بل حرم عليه أن يرسم الجنس البشرى بتفاصيله • لقد كانت عقلية العصر الوسيط المبكرة لاترى فى الحياة أى جمال • وكان لايهم الفرد الكفاح فى سبيل حياة أفضل ، وعيشة رغدة سعيدة ، وانما يكفيه الكفاف من العيش • كذلك خضع لآراء الكنيسة وتعاليمها خضوعا أعمى ، تلك الكنيسة التى أخذت تبعد عن تعاليم المسيحية الأصيلة ، التى تتمثل فى البساطة والطهارة ونقاء النفس والضمير ، وكان ذلك على أيدى رجال الدين أنفسهم ، وأصبحت هى الأخرى فى أمس الحاجة الى الاصلاح • ولم يكن بوسع الفرد الخروج من هذه الدائرة الضيقة المغلقة ، وكانت مجرد محاولته الافلات من هذا السجن الكبير يعتبر جرما يستحق عليه أشد العقاب • لقد كان الفرد الذى عاش فى القرون المبكرة من هذا العصر ، يصدق كل مايقال له دون تحليل أو تفكير ، ويعتبر أن الحياة الدنيا حياة زائلة ، وأنها مطية للدار الآخرة • ولذا يجب أن يعد نفسه لهذه الحياة الثانية ، حيث دار الخلد والنعيم المقيم • ومن خلال هذه النظرة الضيقة المحدودة ، تأخرت العلوم والآداب والفنون وكافة نواحى التقدم ، ووجد نوع من الكبت والضغط والحرمان ، فضلا عن الشعور بالملل والخمول والاستكانة والرضاء بالأمر الواقع ، والبعد عن الحياة العملية بما فيها من مظاهر الجمال والروعة •

ولكن بمرور الوقت وتطور الزمن والعقلية ، نتيجة الظروف سالفة الذكر ، أخذ هذا الفرد المغلق يتغير بالتدريج ، وأخذ يسأل نفسه لماذا يفعل هذا ويرتضى ذاك • كما أخذ ينظر الى الامور نظرة تختلف عن نظرة أسلافه اليها • وكان هذا ، فى الواقع ، بداية انقشاع الظلام ، وانبثاق الفجر الجديد • لقد شاهد رجل القرن الخامس تغييرات جوهرية فى الحياة والمجتمع ، تثبت أن القديم قد انتهى ، وأن عهدا جديدا له نظمه وتفكيره ومشاكله الخاصة به قد بدا • لقد

عاش فترة التغير والانتقال من القديم الى الوسيط • هذا ، بينما كان الانسان الذى عاش فى القرن السابع يعتبر فى صميم العصر الوسيط ، لاحول له ولا طول ، ويعتقد ويؤمن بكل شىء بدون فهم أو ادراك • ونجد أن الانسان الذى عاش فى القرن العاشر يبدأ فى التغير التدريجى البطىء ، من تقاليد العصر الوسيط الى عصر النهضة ، ويحاول أن يناقش الأسباب والمسببات ، ولا يتقبلها كقضية مسلم بها الا عن دراسة واقتناع • أما الرجل الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، فهو لايعتقد فى شىء الا بعد أن يفهمه ويقبله عقله • وأخيرا نجد أن الانسان الذى عاش فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أبعد مايكون عن العصر الوسيط المبكر وأقرب الى عصر النهضة • وعلى هذا ، يمكن القول بأن عقلية أخريات العصر الوسيط ، تختلف اختلافا بينا عن عقلية العصر الوسيط المبكر • ونتيجة لذلك ، أخرج العصر الوسيط فى قرونه الأخيرة عددا من الشخصيات البارزة التى دفعت عجلة التقدم الى الامام ، مثل الفيلسوف بطرس أبيلارد صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة فى القرن الثانى عشر : والكاهن الفرنسى أونوريه بونيه Honore Bonet (١٣٤٠ ـ ١٤٠٥ م) صاحب كتاب « شجرة المعارك » الذى يعطينا صورة نابضة بالحياة عن فرنسا فى الانتقال من الوسيط الى النهضة • وكذلك فيليب دى مزيير Philippe de Mezieres (١٣٢٦ ـ ١٤٠٥ م) الذى تتمثل فيه اتجاهات عصره ، والذى كشف فى خطاباته ومؤلفاته عن ذلك التغير الخطير فى أسس العصر الوسيط •

اذن ، فأساس التطور الخطير الذى طرأ على أهم صفات ومميزات العصور الوسطى الأوروبية فى قرونها الأخيرة ، انما هو أساس عقلى نفسانى نتيجة التزمت والكبت والضغط • فكان الموقف أشبه بالمرجل الذى يغلى والبركان الثائر الذى يوشك على الانفجار ، ليلفظ ما فى

جوفه . بل كان هذا بشيرا بظهور عهد جديد ، يقوم على أنظمة وحضارة مغايرة ، لما كان معروفا فى بداية العصور الوسطى .

واذا كان الاحتكاك المستمر بين الشرق والغرب ، وتجمع الثروة المادية فى أيدى الجمهوريات الغربية المشتغلة بالتجارة ، وتطور الحالة النفسية للفرد - اذا كان كل هذا من عوامل التغيير فى الانسان والمجتمع فى الفترة الأخيرة من القرون الوسطى ، فلاشك أنه كان للجهاز الكنسى البابوى دوره فى حركة التطور هذه . لقد انتهى الأمر بالكنيسة الرومانية أن أصبحت قوة يحسب لها ألف حساب ، وبلغت البابوية ذروة مجدها فى عهد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) الذى يعتبر خليفة هيلدبراند الحقيقى . اذ دانت له الدول ، وخاف الحكام العلمانيون سطوته ، وأصبحت الامبراطورية تحت رحمته ، بينما غدت انجلترا اقطاعا منه لملكها . وأذعن فيليب اوغسطس ملك فرنسا لأوامره ، حتى فيما يتعلق بشئونه وأحواله الخاصة . فضلا عن أن ملوك نافار وأراجون فى شمال اسبانيا كانوا يشاركون يوحنا ملك انجلترا فى اعترافهم بممالكهم اقطاعا بابويا . ووضع ملكا المجر وأرمينية فى الشرق ، أنفسهم وتيجانهم تحت رعايته وحمايته . وهكذا تحقق حلم هيلدبراند ، وأصبحت تعاليمه وسياسته التى رسمها لأسلافه حقيقة واقعة فى عهد انوسنت الثالث .

والباحث المدقق يجد أن البابوية قد أضرت المجتمع الغربى بقدر ما أفادته . حقيقة أنها قامت بدور لاينكر أثناء غزوات البرابرة . ونجحت فى ايجاد نوع من الأمن والطمأنينة بعد الفوضى التى عمت أوروبا بسبب تلك الغزوات ، ولكنها مع ذلك كانت لها مضارها من حيث سيطرة هيئة رجال الدين على كافة أهل الغرب واستبدادها بهم . وتطور الأمر حتى أن رجال الدين أنفسهم بعدوا عن التعاليم المسيحية الأصيلة التى تتمثل فى البساطة وطهارة النفس ونقاء الضمير . وأصبح

لرجال الدين مطامع دنيوية يسعون الى تحقيقها بشتى السبل والوسائل، وغدوا الواسطة بين الخالق والمخلوق ·

كل هذا قاد الجهاز الكنسى وعلى رأسه البابوات للدخول فى ميدان العمل السياسى · واضطر البابوات الى اتباع كافة الأساليب السياسية لتحقيق أغراضهم ومطامعهم ، فى الوقت الذى كانت تعوزهم فيه الوسائل الكافية لتحقيق تلك الأغراض والمطامع · فهناك اعتبارات معينة أضعفت من سلطة البابوية من الناحية الزمنية ، نذكر من بينها فكرة الوراثة والتسلسل فى الحكم تشبها بغيرهم من الحكام العلمانيين فى الغرب · كما أعوزتهم النظم الحكومية التى تعتبر من أهم مقومات الدول ، والتى تساعد بصفة عامة على تقوية نفوذ الحاكم · فلم يكن لها نظم حكومية ثابتة ، كتلك التى وجدت فى ايطاليا مثلاوفى غيرها من دول الغرب · وبذلك لم يكن بوسعها أن تحكم حكما مستقرا ناجحا · وأعوز البابوات ، أيضا ، السيطرة على رقعة من الأرض ، وتكوين دولة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة · لذلك سعوا للحصول على الأراضى والسيطرة عليها ، تشبها بالممالك الأخرى · وكانت النتيجة أن تحول البابوات تدريجيا من رجال دين الى رجال دنيا ، شأنهم شأن غيرهم من الأمراء والحكام العلمانيين · وأخذوا يعملون بكل الوسائل على توسيع سلطاتهم ومناطق نفوذهم ، واتخاذ كافة الأساليب لتحقيق هذا الهدف بما فى ذلك الدس والحرب والقتل ·

وترتب على ماتقدم دخول البابوية فى كفاح مرير مع الامبراطورية حول المسائل العلمانية ، ذلك الكفاح الذى شغل زهاء ثلاثة قرون من الزمان ، والذى أفقد البابوية مكانتها وأضعف من هيبتها ونفوذها ، بعد خروجها عن رسالتها الروحية الأصيلة ، والسعى لهدم الأباطرة واذلال الملوك · ومع مرور الزمن ، أخذت البابوية تثير فى أذهان الناس شكوكا حول قدسيتها ، فانفضوا من حولها وانصرفوا عن التضامن معها · وظهرت آثار ذلك عندما بدأ العالم نفسه يتغير أثناء فترة الانتقال من العصر الوسيط الى عصر النهضة · وهكذا ، بعد أن

كانت تلك البابوية فى عهد انوسنت الثالث مركز الدنيا وعاصمة العالم المسيحى ، أصبحت منفية فى مدينة افنيون جنوب شرقى فرنسا ، لمدة سبعين عاما ، وهى الفترة التى تعرف فى التاريخ باسم الأسر البابلونى ، نسبة الى أسر اليهود فى بابل • وأخذت البابوية تسير من سيء الى أسوأ ، عندما انقسم رجال الدين على أنفسهم فيما عرف بالشقاق الدينى الكبير فى الغرب • كل هذا أدى الى قيام حركة المجالس الدينية العامة ، لاصلاح ما فسد من حال البابوية ، والعودة بها الى سالف عهدها أيام هيلد براند وخليفته انوسنت •

وخلاصة القول اننا اذا وضعنا بابوية العصور الوسطى فى الميزان ، نجد أن خسائرها كانت أكثر من مكاسبها ، بانصرافها عن رسالتها الروحية ، الى العمل على تدعيم مركزها الدنيوى ، وبدخولها ميدان السياسة على حساب الاباطرة والملوك والأمراء ، الذين أذلتهم بأسلحة الحرمان واللعنة والنقمة والقطع ، التى كانت تستخدمها بغير حساب • وكان الناس فى الغرب قد أخذوا ينفضون شيئا فشيئا من حولها ، وكثرت الحركات التى أخذت تنادى باصلاحها • فلما قام مارتن لوثر بثورته على الكنيسة الكاثوليكية ، وجد له أتباعا كثيرين من بين أبنائها • ولاشك ، أن هذا كان من العوامل الرئيسية التى أدت الى انطلاق النفس البشرية من عقالها ، وتحررها من قيود العصر الوسيط المتقدم ، والانتقال بها آخر الأمر الى عصر النهضة ، الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة •

وأخيرا ، فان من العوامل الهامة التى قادت اوروبا من مفاهيم العصور الوسطى الى عصر النهضة ، تطور الحرية السياسية فى القرون الأخيرة من العصر الوسيط • وان ماأصاب أهم الأعمدة التى ارتكز عليها العصر الوسيط المبكر ، أصاب كذلك الحرية السياسية التى كان الفرد يتمتع بها • ففى عصر الاقطاع الذى امتد تقريبا حتى أواخر

القرن الثانى عشر ، كان نفوذ السادة الاقطاعيين من رجال الدنيا والدين كبيرا على أتباعهم · ذلك أن الاقطاع يقوم أساسا على العلاقة بين السيد والمسود ، وأساسها الأرض والعمل فيها بموجب واجبات التبعيــة الاقطاعية المفروضة على التابع ، والتى لم تكن تعرف أى حدود أو قيود· ويلاحظ هنا أن نفوذ أمراء الاقطاع فى ايطاليا بالذات كان أقل من نفوذ زملائهم فى باقى أرجاء الغرب · اذ كــان من مصلحة الأمير كسب ود رعاياه وعدم الاستبداد فى معاملتهم حتى يضمن اخلاصهم فى خدمته ·

وظهر بعد ذلك فى ايطاليا ، التى نأخذها كنموذج لأنها سبقت غيرها الى عصر النهضة ، النظام المعروف بالقومونات التى كانت تخضع لسلطة هيئة أرستقراطية · وهذا يعنى أنه بعد أن كان الفرد يخضــع فيما مضى لسلطة فرد واحد هو السيد الاقطاعى ، أصبح الآن أمــام استبداد غير محدد · وقد عانى الشعب كثيرا من جراء ذلك ؛ اذ ضحى بمصالحه على حساب مصلحة فئة من الطبقة الأرستقراطية · ووجــدت بعد ذلك الاتحادات ونقابات المهن والحرف ، التى كان ينضم اليها الأفراد من سكان المدن ، كل حسب ميله ومهارته وتجاربه وخبــراته · ومع ذلك ، فقد كان لها مضارها فى الحد من حرية الفرد وقتــذاك ، بسبب تدخلها فى شئونه العامة والخاصة تدخلا مباشرا ، جعله يسعى جاهدا للفكاك منهـــا ·

وبعد ذلك ، وجدت الفرصة مرة أخرى لظهور سلطة الحــاكم المستبد فى اوروبا ، فى أواخر القرون الوسطى · ويتمثــل هذا فى ظهور الملكية المستبدة ، بشكل أقوى من الأمــير الاقطاعى أو الهيــئة الأرستقراطية · ونجد مثالا واضحا لذلك فى فرنســا بوجه خاص · وأصبح الملك فى الميدان السياسى يتمثل بالقول المأثور « الدولــة هى أنــا » ·وهذا يشير الى وجود اتجاه نحو السلطــة الأوتوقراطية فى الميدان السياسى · وقد أوجد هذا الاستبداد حالة من الكبت والغليان · وهذا أدى بدوره الى محاولة تحطيم الأغلال والقيود · وهذا ماحــدث

بالفعل • اذ خدم الاتجاه الأوتوقراطى فى المجتمع الأوروبى فى العصر الوسيط ، الحرية السياسية وأدى الى ظهورها آخر الأمر ، فكان هـــذا ايذانا بنهاية عصر وبداية عصر جديد •

تلك هى أهم العــوامل ، من مبـــاشرة وغير مباشرة ، التى أدت مجتمعة متكاتفة متداخلة فى بعضها ، وفى تطور تدريجى بطىء مستمر . الى هز المجتمع الغربى الوسيط من أعماقه هزا عنيفا ، أدى الى اقتلاع الأسس التى ارتكز عليها فىالنواحى الاجتماعية والسياسيةوالاقتصادية والدينية والفكرية ، فى وقت كان كل شىء فيه فى تغير تدريجى ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله • وكانت الحصيلة النهائية هى أفول العصور الوسطى بكل ماتعنيه ، وظهور عصر جديد فى التاريخ الأوروبى •

مراجع

فى

تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها

اولا - مراجع عربيـة

ابراهيم احمد العدوى (دكتور) :

١ - المسلمون والجرمان : الاسلام فى غرب البحر المتوسط - القاهرة ١٩٦٠ ·

٢ - المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦١ ·

ابراهيم على طرخان (دكتور) : المسلمون فى اوروبا فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٦ ·

احمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج فى القرن التاسـع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) - القاهرة ١٩٦١ ·

اسحق عبيد (دكتور) :

١ - الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، مع دراسة فى « مدينة الله » - القاهرة ١٩٧٢ ·

٢- الفرسان والأقنان فى مجتمع الاقطاع - بنغازى ١٩٧٥ ·

٣ - محاكم التفتيش : نشأتها ونشاطها - القاهرة ١٩٧٨ ·

اسمت غنيم (دكتورة) : المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى - الاسكندرية ١٩٨٣ ·

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ - دراسات فى تاريخ العصور الوسطى - الاسكندرية ١٩٨٣ ·

٢ - دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى - الاسكندرية ١٩٨٣ ·

٣ - نشأة الجامعات فى العصور الوسطى - ط ٠ ثالثة - الاسكندرية ١٩٨٤ ٠

حسن حنفى حسنين (دكتور) : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : اوغسطين - انسيلم - توما الأكوينى - ترجمة وتقديم وتعليق د٠ حسن حنفى حسنين - الاسكندرية ١٩٦٩ ٠

حسن عثمان (دكتور) : سافونارولا الراهب الثائر - القاهرة ١٩٤٧

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ - اوربا العصور الوسطى - جزءان - القاهرة ١٩٥٩ ٠

٢ - الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٥٩

٣ - المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية - القاهرة ١٩٦٣ ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ومحمد انيس (دكتور) : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة - القاهرة ١٩٦٠ ٠

عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية - القاهرة ١٩٦٥ ٠

عبد الرحمن بدوى (دكتور) : فلسفة العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٢ ٠

على مظهر (دكتور) : محاكم التفتيش باسبانيا وفرنسا والبرتغال وغيرها - القاهرة ١٩٤٧ ٠

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

١ - الممالك الجرمانية في اوروبا في العصـــور الوسطى - الاسكندرية ١٩٧٥ .

٢ - دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخـر القرن العاشر الميلادى - الاسكندرية ١٩٨١ .

محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيافيللى : دراســة تحليلية محورها كتاب الأمير - ترجمة وتحليل وتعليق محمــد الزقزوقى - القاهرة ١٩٥٨ .

نظير حسان سعداوى (دكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى - القاهرة ١٩٥٨ .

نعيم زكى فهمى (دكتور) : دور اليهـود فى تجارة العصــور الوسطى بين الشرق والغرب - القاهرة ١٩٧١ .

وهيب ابراهيم سمعان (دكتور) : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٢ .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوســيط - القــاهرة ١٩٥٧ .

ثانيا ـ مراجع معربة

ارنولد (ت٠) وآخرون : تراث الاسلام ـ ترجمة د٠ حسين مؤنس وآخرون ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٣٦ ٠

بريتيزولينى (ج٠) : حياة نيكولو ماكيافيلى الفلورنسى ـ ترجمة طه فوزى ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

بور (ايلين) : نماذج بشرية من العصور الوسطى ـ ترجمة محمد توفيق حسين ـ بيروت ١٩٥٧ ٠

تاكيتوس : تاكيتوس والشعوب الجرمانية ـ ترجمة وشرح وتقديم د٠ ابراهيم على طرخان ـ القاهرة ١٩٥٩ ٠

تومسون (ج٠ د٠) وآخرون : حضارة عصر النهضة ـ ترجمة د٠ عبد الرحمن زكى ـ القاهرة ١٩٦١ ٠

دارك (سدنى) : النهضة الأوربية ـ ترجمة وتعليق محمد بدران ـ القاهرة ١٩٤١ ٠

دوسن (كرستوفر) : تكوين اوربا ـ ترجمة ومراجعة د٠ محمد مصطفى زيادة و د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

ديفز (هـ ٠ و ٠ ك ٠) :

١ ـ اوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة د٠ عبد الحميد حمدى محمود الاسكندرية ١٩٥٨ ٠

٢ ـ شارلمان ـ نقله الى العربية د٠ السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٥٩ ٠

سمالى (ب·) : المؤرخون فى العصور الوسطى ـ ترجمة د· قاسم عبده قاسم ـ القاهرة ١٩٧٩ ·

كانتور (ن· ف·) : التاريخ الوسيط ـ قصة حضارة : البداية والنهاية ـ قسمان ـ ترجمة وتعليق د· قاسم عبده قاسم ـ القاهرة ١٩٨١ و ١٩٨٣ ·

كرمب (ج·) وجاكوب (ا·) : تراث العصور الوسطى ـ جزءان ـ مجموعة بحوث راجع على ترجمتها محمد بدران و د· محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٦٥ ·

كوبلاند (ج·و·) وفينوجرادوف (ب·) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب اوربا ـ ترجمة د· محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٨ ·

كولتون (ج·ج·) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتقديم وتعليق د· جوزيف نسيم يوسف ـ ط· رابعة الاسكندرية ١٩٨٣ ·

موس (هـ·ب) : ميلاد العصور الوسطى : ٣٩٥ ـ ٨١٤ ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٦٧ ·

هادريل (ج·م· والاس) : اوروبا فى صدر العصور الوسطى : ٤٠٠ ـ ١٠٠٠ م ـ تعريب وتقديم وتعليق د· حياة ناصر الحجى ـ الكويت ١٩٧٩ ·

هارتمان (ل·م·) وباراكلاف (ج·) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتقديم وتعليق د· جوزيف نسيم يوسف ـ ط · رابعة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ·

هاسكنز (ش٠هـ) : نشأة الجامعات فى العصور الوسطى - ترجمــة وتقديم وتعليق د٠ جوزيف نسيم يوسف - ط٠ ثالثــة - الاسكندرية ١٩٨٤ ٠

هاو (سونياى ٠) : فى طلب التوابل - ترجمة محمـد عزيز رفعت - القاهرة ١٩٥٧ ٠

يعقوب (ج) : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصـــور الوسطى - ترجمة بتصرف فؤاد حسنين علي - القاهرة ٩٤٦ ١٠

المراجع الاجنبية

Bailly, A., La Guerre de Cent Ans, Paris; 194 3.

Bainville, J., Histoire de France, Paris; 1925.

Baker; D. N., Fasel, G. W., Landmarks in Western Culture; 2 vols.. New Jersey, 1964.

Baldwin, M. w., The Medieval Church, New York; 1953.

Balzani. V., Early Chroniclers of Europe: Italy, London; 1883.

Bell, M., A Short History of the Papacy, London; 1921.

Bertrand, L. & Petrie, C., The History of Spain. Eng. Trans. by W. B. Wells, Lohdon, 1934.

Blanchet, D. Pinard, J.; Cours Complet d' Histoire de France; Paris, 1912.

Bloch, M., Feudal Society, 2 Vols-; trans. from the French by L. A. Manyon; London 1967.

Brinton, C., others, A History of Civilization 2 vols., New Jersey; 1967.

Bryce, J., The Holy Roman Empire. London, 1968-

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance in Italy, trans. by S. G. C. Middlmore, Oxford, 1944.

Bury, J. B., History of the Later Roman Empire, 2 vols., New york, 1958.

Cahen, C., Le Régime Féodal de l' Italie Normande, Paris,

Calmette, J.,

1 — Le Monde Feodale, Paris, 1937.

2 — Les Deruiéres Etapes du Moyen Age Francais, Paris, 1944

Cantor, N. F. (ed.), The Medieval world, : 300 - 1300, New york, 1963

Chacdwick, H., The Early Church, London, 1969.

Coulton, G. G.,

1 — Med.eral Pananorama, New york, 1955.

2 — Medieval Village, Manor and Monastery, Ney York, 1960.

3 — The Inquisition, London, 1929.

4 — The Medieval Scene, Cambridge, 1961.

Crmp, C. G. Jacob, E. F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages, Cxford, 1951.

Daru, Histoire de la Republique de Venice, 10 tomes, Bruxelles, 1840.

Davis. H. C., Medieval Europe, London, 1941.

Denis, E., Huss et Guerre des Hussites, 1878.

Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History, Princeton, 1959.

Einhard, The Life of Charlemagne, Michigan, 1960.

Engel, Jean - Marie, L' Empire Romain, Paris, 1973.

Funck - Brentano, F., La Renaissance, Paris, 1935:

Gebhart, L' Italie Mystique, 1906.

Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 4 Vols. Oxford, 1929.

Gibbons, H., The Foundation of the Ottoman Empire Oxford, 1916.

Hambis, Attila et les Huns, Paris, 1972.

Hardwick, G., A History of the Christian Church in the Middle Ages, London, 1861.

Haskins, Ch. H., The Rise of Universities, New York,1960.

Hassall, A., France: Mediaeval and Modern, Oxford, 1918.

Hastings, J. (ed.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, 13 Vols. Edinburgh, 1925 - 1940.

Hayward, F., A History of the Popes, London, 1931.

Heer, F., The Medieral World : Europe 1100 - 1350, trans. from the German by J. Sondheimer, London, 1962.

Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age 2 Vols., Leipzig, 1885 - 1886.

Hillgarth, J. N. (ed.), The Conversion of Western Europe : 350 - 750, Englewood Cliffs, 1969.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages, London, 1955.

Jacobs, J., Geographical Discovery - How the World became Known, London, 1909.

Katz, S , The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, New York, 1955.

Keen, M., The Pelican History of Medieval Europe, Aylesbury, 1976.

Ker, W. P., The Dark Ages, London, 1955.

Kitchin, G., A: History of France, Vol. I, Oxford, 1899.

Lacroix, P., Vie Militaire et Religieuse au Moyen Age et a l' Epoque de la Renaissance, Paris, 1873.

La Monte, J., The World of the Middle Ages, New York 1949.

Lavisse, E., Histoire de France, vol. III, Paris, 1911.

Le Goff, J., La Civilisation de l' Occident Médiév al, Pavis, 1965.

Lodge, R., The Close of the Middle Ages, London, 1922.

Loserth, J., Wycliffe and Huss. Eng Trans. by M. H. Evans, 1884.

Lot, F.,

1 — Les Invasions Barbares, 2 Vols , Paris, 1937.

2 L' Art Militaire et les Armées au Moyen Age, 2 Vols., Paris, 1946.

Masson, G., Mediaeval From the Reign of Hugues Capet to the beginnig of the 16 th Century London, 188.

Maycock. A., The Papacy, London, 1928.

Mckilliam, A., A Chronicle of the Popes from st. Peter to Pius X, London, 1912.

Mckisack, M., The Fourteenth Century : 1307 — 1399, Oxford, 1959.

Miller, G., History Philosophically IIlustrated from the Fall of the Roman Empire to the French Revolution,4 vols., London, 1849 - 1852.

Miller, W., Medieval Rome from Hildebrand to Clement VIII (1073 - 1600), London, 1901.

Morfill, W.,

1 — Russia, London, 1907.

2 — Poland, London, 1891.

Moss, H , The Birth of the Middle Ages, Oxford, 1947.

Oman, C. W. C., The Art of War in the Midle Ages : A. D. 378 - 1515, New York, 1960.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284 - 1500, London, 1966.

Parry, H., Europe and a Wider World : 1415 - 1715, London, 1959.

Petit - Dutaillis, Ch., La monarchie féodale en France et en Angleterre (Xe - XIIIe siécle, Paris, 1971 .

Pirenne, H.,

1 — Medieval, Cities, tr. From the French by F. D. Halsey, Princeton, 1925.

2 Economic and Social History of Medieval Europe, trans. from the French by I: E Clegg, London, 1961.

Power, E , Medieval People, London, 1954.

Stephens, H.; Portugal, London, 1891.

Stevenson, C., Mediaeval Feudalism, New York, 1942.

Stone, D., France in the Sixteenth Century, Englewood Cliffs, 1969.

Stubbs, W.,

1 Germany in the Early Middle Ages : 470 - 1250, ed, A. Hassall, London, 1908.

2 Germany in the Later Middle Ages : 1200 - 1500, ed. by A. Hassall, London, 1908.

Sullivan, R. E , Heirs of the Roman Empire,

Sykes, N., The History of England, London (N. D.)

Sykes, P., A History of Exploration from the Earliest Times to the Present Day, London, 1933.

Symonds, J. A., The Renaissance in Italy, 7 vols., 1875 - 1886.

Tacitus, The Histories, tr. by k. Wellesley, London, 1964.

Taylor, H., The Mediaeval Mind, 2 vols., London, 1930.

Tilley, A., Medieval France, Cambridge, 1922.

Tout, T.,

1 The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216 - 1377), London, 1905.

2 France and England : Their Relations in the Middle Ages and Now, Manchester, 1922.

Trerelyan, G. M., England in the Age of Wycliffe, 1909.

Turberville, A., Mediaeval Heresy and the Inguisition, London 1920.

Ullmann, W.,

1 Medieral Papalism, London, 1948.

2 The Growth of the Government in the Middle Ages, London, 1955.

Watts, H., Spain, London, 1893.

Waugh W. T., A History of Europe from 1378 to 1494, London, 1932.

Webb, J. F. (tr.), Lives of the Saint, 1965.

Winn, H. & Workman, H., Wiclif, Oxford, 1929.

كشاف حضارة اوروبا فى العصور الوسطى

بسم الله الرحمن الرحيم

كشاف ابجدى عـــام

ـ أ ـ

— ب —

- ت -

- ث -

— ج —

— ح —

— خ —

— د —

— ر —

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

— م —

محتـــويات الــكتاب

الموضوع الثالث ٤٦ - ٥٣

اهم المميزات والخصائص العامة للعصور الوسطى الاوروبية

القواعد الأساسية التى ترتكز عليها العصور الوسطى الأوروبية : فكرة الدين ، فكرة الحرب ، وحدة العالم المسيحى الغربى - أثر المسيحية وفلسفتها على مختلف جوانب الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط - جوانب الخلق والابداع فى أخريات العصور الوسطى .

الموضوع الرابع ٥٤ - ٦٥

سقوط الامبراطورية الرومانية وأسبابه

التفكك الادارى - الفوضى المالية - تدهور الحياة الاقتصادية - تمركز القوة الحقيقية للدولة فى أيدي العناصر الجرمانية - الاخطار التى هددت حدود الدولة - انغماس الرومان فى حياة الترف والملذات - تدهور النظم الاجتماعية - الاختلافات الحضارية واللغوية والمذهبية بين شقى الامبراطورية - اقتباس روما والغرب من الديانات الشرقية - اهمال روما فى الفترة الأخيرة من حكم الرومان - ظهور المسيحية واعتناق الرومان لها - استيلاء روما على ثقافات وحضارات أخنى عليها الدهر - عدم محاولة روما ادخال حضارتها فى البلاد التى غزتها - البرابرة وغزواتهم - الخلاصة .

النموذجي سنة ١٢٩٥ — مبدأ الانتخاب والتمثيل للمجالس البرلمانية الوسيطة .

زوال الاقطاع ونمو الملكية المستبدة في فرنسا في اخريات العصور الوسطى

الملك الفرنسي « الأول بين أقرانه » حتى بدايات القرن الثاني عشر — هدف الملك الفرنسي تأمين نفسه داخل أراضيه ضد كبار الاقطاعيين — محاولات أسرة كابيه (٨٨٨ — ١١٣٧) لتوحيد فرنسا على حساب كبار رجال الاقطاع — مواقف لويس السادس ، ولويس السابع ، وفيليب اوغسطس من كبار الاقطاعيين — لويس التاسع وبرلمان باريس — اتجاه الملكية الفرنسية نحو الحكم المطلق في عهد فيليب الجميل — المشاكل التي واجهت العرش الفرنسي بعد لويس العاشر ، والعوامل التي أحاقت نمو الملكية — حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا: أسبابها ، ومراحلها ، ونتائجها — الوباء الاسود وآثاره — شارل الخامس وموقفه من الانجليز — الملكية الفرنسية تفقد مكاسبها في عهد شارل السادس — جان دارك ، ودورها في توحيد الامة الفرنسية — شارل السابع واصلاحاته — حرب المائة عام : مساوئها ومزاياها بالنسبة لفرنسا .

